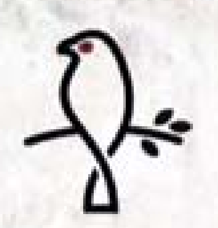
لو سالومي

نيتشه، فرويد، ريلكه

سيرة عاطفيّة

Lou Andreas - Salomé

ترجمها عن الألمانيّة: أحمد الزناتي



نيتشه - فرويد - ريلكه

سيرة عاطفية

الكتاب: نيتشه- فرويد- ريلكه سيرة عاطفية

المؤلف: لو اندرياس سالومي

ترجمة: أحمد الزناتي

تصميم الغلاف: عبد الفتاح بوشندوقة

التنسيق الداخلي: ضياء فريد

عدد الصفحات: 264

الترقيم الدولي: 978-1-998800-10-0

الطبعة الأولى: 2023

منشورات حياة

البريد الإلكتروني: hayatpublishing1@gmail.com

يمكنكم طلب كتبنا من المتجر الالكتروني:

hayatbookstore.com

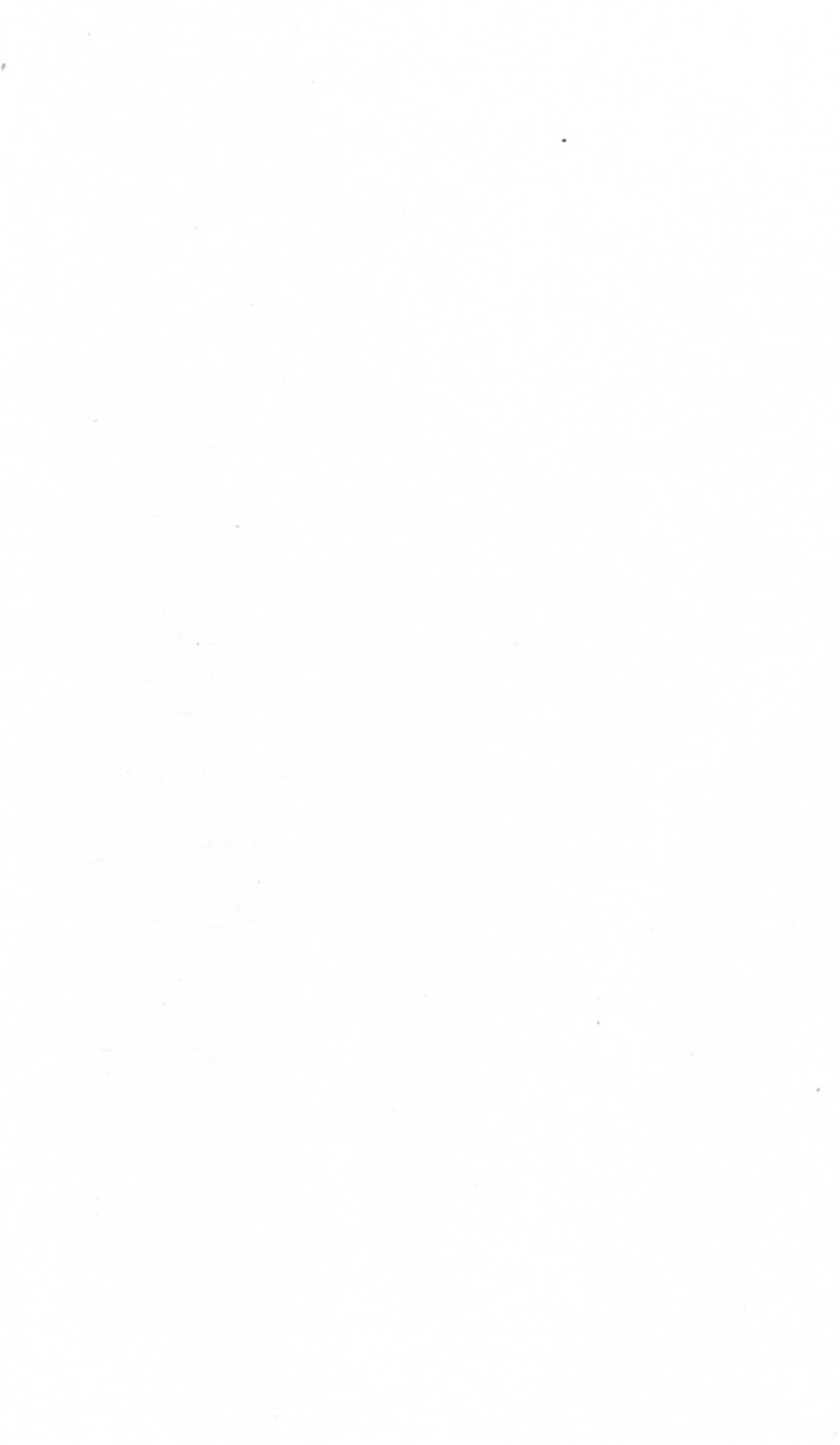
نيتشه - فرويد - ريلكه

سيرة عاطفية

لو سالومي



الفهرس



آه منها الحياة

ما هي إلا قصيدة

نتوهم أننا نعيشها

يومًا بعد يوم

مشهدًا وراء الآخر

بينما هي في الحقيقة

هي التي تعيشنا وتكتبنا

لننس ما قيل: اصنع من حياتك فنًا

نحن أنفسنا عمل فني

لكننا لسنا أبدًا من كتبه.

لو أندرياس - سالومي



الفصل الأول

تجربتي مع الله

لشدَّما يلفت انتباهي أنّ أولى تجاربنا في الحياة هي تجربة الفقد.

وقبل الفقد بلحظة كنا كل شيء، كنا لُحمة واحدة، كنا جزءًا لا يتجزأ من نسيج الوجود، ثم قُذِف بنا رغم أنوفنا إلى هذه الدنيا، وقُدِّر لِما تبقّى منا أن يناضل لئلا يتقلّص وجوده شيئًا فشيئًا، قُدِّر لما تبقّى منا أن يناضل للصمود أمام قوّة مضادة عاتية يزداد زخمها يومًا وراء يوم، وأمام عالم سقَطنا فيه من الدنيا التي أعطتنا كل شيء إلى العَدم الذي يسلبنا كل شيء.

هكذا بالضبط نشعر بتجربة الفَقد والخسارة للوهلة الأولى، وكأنها سلاح المقاومة الذي نرفعه في وجه الحاضر. إن ما سنشير إليها لاحقًا بوصفها "أولى ذكرياتنا" ليست في حقيقتها إلا تعبيرًا عن صدمة، عن خيبة أمل ناجمة عن فقدان شيء عزيز طواه الغياب، وهي تعبيرٌ عن بقية من معرفة ووعي يفترض أنهما ما يزالان موجودَيْن.

وهذه هي لـبُّ مشكلة الطفولة المبكرة، وهي أيضًا لبُّ مشكلة "الإنسان البدائي"، حيث نرى الوعي الإنساني في أطوار نموّه، لصيق الصلة بفكرة وحدة الوجود مع الكون، وهي أيضًا مثل أسطورة علاقة الإنسان الأبدية بالقوة العظمى المحركة للكون.

طالما تشبَّثَ الإنسان البدائي بإيمان راسخ يقول: إن العالم الغيبي خاضع بالضرورة لسطوة قوى سحرية يستطيع ترويضها.

على نحو مماثل استقرَّ في وعي الإنسان البدائي استحالة انفصاله عن العالم الغيبي الذي يرى نفسه جزءًا منه، بل لبث يراه جزءًا غير قابل للانفصال عنه، فوظَّفَ الخيال لردم الهوّة الناشئة في وعيه بين الواقعي والغيبي، برغم اضطراره فيما بعد إلى تكييف هذه الصورة الغيبية لتنسجم مع تطوّر وعيه وأفكاره عن حقيقة العالم الخارجي اللامرئي.

أما عالَم الغيب، هذه الصورة المُتخيلة التي ابتكرها الإنسان ليطمسَ معالم الأسئلة الغامضة محل الشكّ في حياته، فأطلق عليه اسم "الدين".

وهذا هو السبب في أنّ أطفال اليوم أو أطفال الأمس، وهم تحت سطوة المعتقدات الدينية لآبائهم بطبيعة الحال، يتشرّبون الإيمان الديني بالقدر نفسه الذي يتشرّبونه من المدركات العقلية المنطقية.

فالطفل في سنواته الأولى يفتقر إلى القدرة على الفرز والتمييز، فيرى الأشياء كلها جائزة الحدوث، ويرى المُحال ممكنًا، ويرى اللامعقول معقولًا، ولا يستشعر أية غرابة في تجسّد القوى الغيبية على أرض الواقع، ويستمرّ به الحال هكذا حتى يبلغ طور النضج ويدرك نسبية الحقائق واختلافها. بل حتى الأطفال الذين لم يتلقوا تربية دينية يمرّون بهذه التجربة البدائية أيضًا، فسلوك الأطفال عمومًا يظلّ مقترنًا بالتعلّق بكل ما هو خارق ومفارق، ومَردُّ ذلك قصور قدراتهم على الفحص والتحليل وهيمنة رغباتهم التائقة إلى التحقّق بأي شكل من الأشكال.

يضمحل شعورنا "بوحدة الوجود مع الكون" شيئًا فشيئًا ليحلَّ محله الحكم العقلاني الواعي، لكنه وهو إذ يتلاشى من وعينا يخلّف وراءه غبارًا غامضًا من الماضي، هذا الغبار هو الذكريات التي تعَلّقنا بها أو هزّتنا من الأعماق ونحن في عمر الزهور، فيضفي على تلك الذكريات أبعادًا خارقة ويرفعها إلى مرتبة كونية سامية.

رُبَّ قائل يقول: هَبْ مثلًا أنّ أحوال عالم اليوم أو أحوال عالم الغد تبدّلت وشاءت أن تحرِمَ الطفل مَلَكة الخيال كي تجنّبه خيبات الأمل المحتومة وكي تشحذ تفكيره النقدي الواعي مبكرًا، فنتج عن ذلك قمع رغبته الفطرية في تطوير الخيال، وهي الفطرة السابقة على العقل، أليس هذا سببًا كافيًا لنخشى ردّ الفعل المنتظر ضد العقل؟ أوَليس هذا مسوغًا كافيًا لنخشى انتقام الخيال من العقل بسبب قمع الأول وكبت رغباته؟!

ألا نخشى أن يهجر الطفل المعايير العقلانية برمّتها بسبب قمع مَلَكة الخيال؟!

إضافة إلى ذلك نلاحظ أن الطفل الطبيعي يتجاوز "التنشئة الدينية المفرطة"، ليركّز بصره في التفكير النقدي في العالم المادي المحسوس من حوله. والحال هكذا أيضًا حينما يتراجع اهتمام الطفل بالحكايات الخرافية في مقابل اهتمامه المطرد بعالم الواقع.

وعدم حدوث ذلك يعني تأخرًا حتميًّا في عملية النموّ، ويعني ظهور تناقض حاد بين الرغبة في المضيّ قدمًا في طريق الحياة وبين الإحجام عن التكيّف مع شروطها.

ولما كان حدث الميلاد في حدّ ذاته يمثّل هوّة فاصلة بين نمطين من أنماط الوجود، أو لِنَقلْ: بين عالمَيْن متباينَيْن، كان من المحبّذ في العادة الاستعانة بوسيط يرأب هذا الصَّدْع.

أما *في حالتي*[1] فربما أدّتْ صراعات الطفولة التي كانت تضطرم في أعماقي إلى حدوث نوع من النكوص النفسي[2]، بمعنى أني تحوّلتُ من فكرة الحُكم المنطقي العقلاني على الأمور إلى الغرق في التفكير الخيالي الخالص، وهو نكوصٌ نفسي هجرتُ معه توجّهات والدَيّ وآراءهما (أو بالأحرى: خنتُ آراءهما)، فلُذت بالفرار إلى عالم قادر على احتواء الكل (أي: العقل والخيال) في مزيج واحد، فارتميت في أحضان قوة عليا فائقة، وأسلمتُ قيادي إلى سلطتها القاهرة أو بالأحرى: إلى قدرتها الكلية.

ربما يمكنني أن أرسم لكم ما وقع على النحو التالي: كان الأمر أشبه بأني انزلقتُ من بين أحضان والِدَي لألوذ بأحضان الله، أو أني صرتُ أعيش في كنف جدّ حنون يشملني بمظاهر التدليل والعطف ولا يردّ لي طلبًا. جدّ سخي معطاء، خزائنه مملوءة لا تنفد. تخيّلتُ أن مجرد قُربي من الله سيجعلني غنية وقوية مثله، وإن لم أكن بالغِنى والسخاء أنفسهما بطبيعة الحال.

وكان معنى ذلك أني لذتُ بقوة تجمع بين مآثر الأبويْن معًا؛ أعني بين دفء حضن الأم وكمال قوّة الأب (الحقيقة أن الفصل بين الاثنين والتمييز بينهما باعتبارهما عالم الحب وعالم القوة، إنما هو هدم لمملكة السعادة). لكن السؤال: ما الذي يدفع الإنسان إلى أن يحلَّ عالم الخيال عنده محلّ عالم الواقع؟ السبب في ظني هو رفض المرء الاكتفاء بالعالم الخارجي، أي: رفض الاقتصار على العالم القابع خارجنا (ولنشدّد بقوّة

---

(1) الإمالة والتنصيص والأقواس هنا على مدار الكتاب من وضع المؤلفة حصرًا (المترجم).

(2) النكوص: يستخدم علماء النفس هذا المصطلح لوصف حالات الارتداد أو العودة لسلوك في مرحلة عمرية سابقة عند الشعور بالإحباط أو الخوف والقلق كنوعٍ من الهروب لعدم تحمّل هذا الكم الهائل من الصراعات والخوف والمشاعر السلبيةْ (المترجم).

على كلمة خارجنا)، ورفض الاعتراف الكامل والتام بشيء لا يضمّنا بين جوانحه. من المؤكد أن هذا كان السبب الرئيس الذي يفسّر عدم انزعاجي من غيبية هذه القوة الثالثة التي هيمَنَت عليَّ هيمنةً أشدّ من هيمنة أبي وأمي بطبيعة الحال، برغم أنهما استمدّا من هذه القوة كل شيء، كما هو شأن أغلب المؤمنين الحقيقيين. ولكن دعوني في حالتي أضيف سببًا جانبيًّا آخر متصلًا بعلاقتي المتفرّدة بالمرايا.

كنت كلما نظرتُ إلى المرآة صُعِقت لأني أرى نفسي على حقيقتها: مقيّدة، أدور في حلقة مفرغة، مضطرّة إلى التوقّف عند كل شيء حولي لأفحصه، حتى أكثر الأشياء المألوفة إليَّ.

وإذا توقّفتُ عن النظر إلى المرآة يزول عني هذا الشعور، لكن شعورًا غامضًا كان ينكر عليَّ وجودي من دون النظر إلى المرآة، وكأني من دون صورتي في المرآة طفلة بلا مأوى. وهو أمر غير طبيعي، لأني شعرتُ لاحقًا بحاجتي إلى معاودة النظر إلى المرآة من حين إلى آخر، حيث تُجسِّد صورتي في المرآة تعبيرًا عن صورة نفسي الحقيقية.

أيًّا ما كان الأمر فقد ساهمت هذه الأفكار في تهدئة روعي من فكرة وجود الله في كل مكان واحتجابه عن الأعين في آن واحد. وبطبيعة الحال لم يكن لهذه الصورة المبكّرة عن الربّ التي شكّلتها أفكاري وتصوراتي أن ترسخ طويلًا في ذهني، أقصد أنها لم يكن لها أن ترسخ مدة أطول من رسوخ التصورات المنطقية العقلانية. الأمر قريب من فكرة أن الأجداد لا يستطيعون العيش مدة أطول من الآباء.

ثمّة ذكرى صغيرة قادرة على توضيح طريقتي في تبديد مشاعر الشكّ التي كانت تداخلني من حين إلى آخر. ذات يوم وصل أبي إلى البيت قادمًا من حفل، حاملًا بين يديه مفاجأة رائعة، كان صندوقًا لامعًا. دارت في

رأسي فكرة أنّ الصندوق يحتوي على فساتين مصنوعة من الذهب الخالص، وعندما قيل لي: إنَّ في الصندوق فساتين من الحرير ونهاياتها موشّاة بخيوط ذهبية، قررتُ ألا أفتح الصندوق، أي: قررتُ أن تبقى صورة الفساتين في ذهني مصنوعة من الذهب الخالص، لا من الحرير! أما هدايا جدي السماوي فلم أكن أحتاج إلى رؤيتها، لأنها لم تكن تُقدَّر بقيمة أو ثمن، وكان الحصول عليها أمرًا مفروغًا منه، لم تكن هدايا الله مشروطة بسلوك قويم للحصول عليها، كطاعة الوالدين مثلًا، في حين كانت الهدايا التي أجدها فوق طاولة حجرتي بمناسبة عيد ميلادي مشروطة بأن أكون ابنة مطيعة.

ولما كنتُ على الدوام طفلة مشاكسة، مُهدّدة بالضرب المبرح بالعصا، لم أكفّ يومًا عن بثِّ شكواي بحُرقةٍ إلى ربّي العزيز. ثم تبيّن لي أن الربّ كان يقف في صفي تمامًا، بل كنتُ أشعر أحيانًا بغضَبِه على والدَي وهما يؤدبانني بالعصا، حتى إني كنتُ أرجوه عندما يعتدل مزاجي (ونادرًا ما كان يحدث ذلك)، أن يصفح عنهما، وينسى الأمر برمّته.

بالطبع كان لهذا الخيال الجامح أثره وصداه الواضح على مجرى حياتي اليومية ووقائع حياتي، وكان خيالي الجامح يُقابَل في أغلب الأحوال بابتسامةٍ باهتة. ثم استمرَّ بي الحال هكذا حتى ظهيرة أحد أيام الصيف. كنت قد خرجت في نزهة مع صديقة تكبرني قليلًا، ولما رجعنا إلى المنزل سُئلنا:

"**حسنًا، أيتها الآنستان الصغيرتان، ماذا رأيتما اليوم؟**".

انبريتُ لحبك قصة درامية طويلة، فحكيتُها حكيًا مسهبًا بلا انقطاع. فراحت صديقتي، بعد أن أرّقها ضميرها الطفولي وألحَّ عليها صِدق

لسانها، تحدّق إلى وجهي، مذهولة مضطربة، ثم قاطعتني صائحة: "ولكنكِ تكذبين!".

أظن أنني بدأتُ اعتبارًا من تلك اللحظة أتحرى الدقة وأتوخى الحرص في كل ما أقول، بمعنى ألا أضيف إلى كلامي أدنى تفصيلة من خيالي، وهو ما كان يعكّر صفوي بشدة.

أما ليلًا، وتحت جنح الظلام فلم أكن أكتفي بأن أخبر إلهي العزيز بكل ما جرى لي من أحداث اليوم وحسب، بل كنتُ أحكي له، طوعًا وعن طيب خاطر، بعض القصص.

ولم يكن حكي هذه القصص يخلو - بالنسبة إليَّ - من مغزى وغاية، إذ أحسستُ أن هذه القصص وُلدت من حاجتي المتنامية إلى إدخال الله العالمَ الواقعي الشاسع الموازي لعالمنا السرّي، لأني شعرتُ أن اقتصار علاقتي على الله كانت تصرف انتباهي عن رؤية أرض الواقع بدلًا من أن تأخذ بيدي للعيش في الواقع بأريحية.

ومن ثمَّ لم يكن من قبيل المصادفة أن أنتقي مادة القصص من وقائع مقابلاتي اليومية مع البشر والحيوانات والأشياء، ولما كان الله سميعًا إلى ما أقول لم تكن ثمة حاجة إلى إدخال عنصر الفانتازيا والخرافة، بل على العكس، كانت غايتي هي أن أرسم صورة دقيقة للواقع ما وسعني، لأنه كان من المستحيل بالطبع أن أروي شيئًا لا يعلمه الله الكليّ القدرة، العليم بكل شيء. بل كانت هذه الحقيقة تحديدًا هي ما تضمن لي صدق حكايتي وخلوّها من أي شك، وهو ما حداني على أن أبدأ، بضمير مستريح، كل حكاية بالكلمة التالية:

"كما تعلم فإن...."

على أني لم أتذكّر النهاية المفاجئة لهذه العلاقة المتخيّلة والملتبسة إلا في أواخر حياتي، وقد رويتُ طرفًا منها في قصتي "ساعة من دون الله". في هذه القصّة يُلقى بطفل في بيئة غريبة وظروف مختلفة. وربما فعلت هذا لأني كنت في حاجة إلى الوقوف على مسافة من الشخصية القصصية لأتمكّن من خَلْق عالمها الداخلي الخاص.

وكان مدار القصة كالتالي:

اعتاد خادمٌ أن يجلب لنا من منزلنا الريفي إلى بيتنا في المدينة بيضًا طازجًا، وأخبرني في مرة أنه لمحَ زوجين مصنوعين من الثلج يقفان أمام منزلي المصغّر الذي أقمته وسط البستان الخاص بي، يطلبان الإذن بالدخول إلى المنزل، إلا أنه طردَهما من أمام الباب. ولما جاء الخادم في المرة الثانية سألته على الفور عن الزوجين المصنوعين من الثلج لأني خشيتُ أن يكونا قد لقيا حتفهما بسبب الجوع أو البرد، فسألته: "أين تراهما قد ذهبا؟" فقال: ما يزالان واقفين. سألته: أتقصد أنهما ما يزالان واقفين أمام بوابة المنزل؟ قال: ليس الأمر هكذا، فقد طرأ عليهما تحوّل بطيء وتدريجي، فأخذا في الانكماش والصِّغَر، ثم راحا يهبطان إلى الأسفل ويتدحرجان.

وفي صباح أحد الأيام، حين كان الخادم يكسح الثلج من أمام بوابة المنزل لم يجد إلا بعض الأزرار السود التي سقطت من معطف المرأة، وقبعة بالية تخصّ الرجل، وكانت البُقعة التي كانا يقفان فيها مغمورةً بدموعهما المتجمّدة.

لم تكن أكثر النقاط إيلامًا بالنسبة إليَّ في تلك القصة المُفجِعة هو شعور التعاطف مع مصير الزوجين، بل غموض لغز فَناء البشر وسرّ تلاشي ما

هو أمامنا، وكأن شيئًا غامضًا في أعماق نفسي كان يُبعد عني الجواب عن هذا السؤال، برغم أن أعماقي كانت مشتعلة بالبحث عن الجواب. في الليلة نفسها أخذتُ أسأل إلهي العزيز عن جوابٍ لهذا السؤال. بطبيعة الحال لم يكن مَعْنيًّا بتقديم أيّ ردّ.

كان الربّ بالنسبة إليَّ بمثابة أذن واعية، لكنها أذن لا تلتقط إلا ما تعرفه بالفعل. الحقيقة أني لم ألحَّ عليه في طلب الكثير، وكل ما رجوته أن يجود عليّ ببضع كلمات من وراء حجاب، وعبر فمِه الصامت أن يخبرني أين ذهب "السيد رجل الثلج والسيدة امرأة الثلج".

كانت كارثة أن الرب لم يُجِبْ ولم ينبس بكلمة. لم تكن مجرد كارثة شخصية، بل إن صمته أزاح الستار ليكشف عن حقيقة مروّعة لا أقدر على وصفها، وهي أن الربّ القابع وراء الستار لم يختفِ فقط لما أزيحَ الستار، بل اختفى معه الكون برمّته.

عندما نمرُّ بتجربة مماثلة، تجربة تجرّ علينا خيبة الأمل وتدفعنا إلى إعادة النظر فيما تعلّمنا، مسكونين بشعور الهجران والتخلّي، لا يبقى أمامنا إلا العثور على الحقيقة على أرض الواقع، ولا يبقى أمامنا إلا تصحيح منظور الرؤية الذي كنا ننظر به.

لا شكّ أنَّ كل إنسان وكل طفل قد مرَّ بهذه الواقعة، وأقصد بالواقعة هنا إدراك الهوّة الشاسعة بين ما نأمل حدوثه وما نجده على أرض الواقع، ووحدها التجربة تعلّمنا كون الأمر مؤلمًا أو قابلًا للشفاء، وتعلِّمُنا أن مسألة التفاوت في قوة التجربة ذاتها.

إلا أنه في حالة تجربتي مع الله كان الفارق حاسمًا، لأن التخلّي عن الإيمان بالله مقرون بالتخلّي عن الإيمان بكل ما هو غيبي. أستطيع أن أذكر اللحظات التي كنا نتلو فيها الصلوات المعتادة داخل المنزل ويأتي

ذِكر "الشيطان" أو "القوى الشريرة"، فأفزعُ مستيقظة من أحلام اليقظة وأقول:"هل الشيطان موجود حقًّا؟" "أكان الشيطان هو المسؤول عن سقوطي من أحضان الرب، حيث كنت راقدة في طمأنينة؟" "وإذا كان الشيطان هو المسؤول عن سقوطي من مملكة الربّ فلماذا لم أقف في وجهه؟" "هل ساعدتُ الشيطان عندما تخاذلت عن مواجهته؟"

عندما أحاول من خلال هذه الكلمات تحليل اللحظة السابقة، تلك اللحظة العابرة والمحفورة في ذاكرتي بشدة في آن واحد، فإني أسعى إلى إبراز ملاحظة معينة على وجه الخصوص: ليس الأمر هو الشعور بالذنب عن فقدان الإيمان بالرب، وإنما الشعور بالتواطؤ لحدوث هذا الفقد.

فالحكاية التافهة التي اخترعتُها لإدخال الرب في تجربة، جعلت الأمور أبعد ما تكون عن التصديق، بمعنى أني لم أصل إلى الردّ على السؤال بمفردي، ولم أكشف حقيقة رجل الثلج وامرأة الثلج مَنْ يكونان، ولم أمدَّ يد العون لإنقاذهما. لم تلعب هذه الفكرة المرعبة التي استيقظتْ في نفسي دورًا آخر في طفولتي، كل ما فعلته أنها حرمتني من العيش بسلام في العالم الواقعي الخالي من وجود الله.

المدهش أنّ هذه الفكرة خلقتْ معها أثرًا آخر متصلًا بالسلوك الأخلاقي لم أضعه في الحسبان، أعني أني صرت فتاة أكثر تهذّبًا ورُقيًّا (وهكذا لم أتشيطن عندما فقدت الإيمان بالربّ!)، ربما لأن انكسار نفس المرء عادة ما يُخفّف من وطأة السلوك الجامح المتمرّد.

ثم إن الموقف تركَ في حياتي أثرًا إيجابيًّا آخر، ألا وهو الشعور بنوع من التعاطف الراسخ مع والدَي اللذين لم أشأ أن أزيد من تعكير صفوهما، بعد أن مسّتهما الضربة أيضًا، أي بعد أن فقدا الإيمان بالله، *وإن كانا لم يعرفا ذلك.*

لم تتوقّف محاولاتي على مدار مدة طويلة لأتراجع عن موقفي، لأقتفي أثر والدَي المؤمنيْن، لأني كنت قد ورثتُ عنهما كل شيء، وتعلّمتُ منهما كل شيء حتى هذه اللحظة، ولأني كنتُ أعوّل عليهما دومًا في التيقّن بحقيقة الأشياء.

عندما يهبط الظلام كنتُ أضمّ ذراعيّ ضمّة خجل، مسكونةً بمشاعر خشوع ويأس طاغية، مثلي كمثل غريب نودي من أقصى تخوم العزلة المخيفة لكي يرحل إلى بلد في أقاصي الأرض. لكن هذه المحاولة لتحقيق الانسجام بين بلوغ البلد البعيد وبين صلتي الحميمية القديمة المؤسسة على اقترابي من الله: باءت بالفشل.

برغم مظاهر التواضع والخضوع التي أبديتُها ابتغاء العودة إلى طريق الإيمان، نازعتني هواجس قوية لمقاربة طريق غريب كليًا، وكانت الحيرة بين الطريقيْن مدعاةً إلى تعميق شعوري بالوحدة العميقة الناجمة عن خجلي من أن أضلَّ الطريق، وأن أزعج "*مخلوقًا*" مشتتًا حائرًا بين الطريقين.

في تلك الأثناء واصلتُ حكي القصص لنفسي قبل الخلود إلى النوم، وكما كان الحال في السابق كانت مادة قصصي مُستلهمة من مصادر بسيطة أي: من مقابلات الحياة اليومية ووقائعها، الاختلاف هو حدوث انقلاب جوهري في مسار القصص، متمثلًا في غياب "المستمع" المنصِت الذي كان موجودًا فيما سبق. ولكني مهما حاولتُ جاهدةً لتزيين هذه القصص وتحسين مصاير أبطالها، فإن مصيرها كان الاختفاء في غياهب الظلام.

في مقدوركَ أن تستشعرَ في مسار الحكي، أن القصص نفسها لم تعد تشعر بأنها بين يدي الربّ الرحيمتيْن، وأني لم أعد أُلهَم من خزائن الربّ التي لا تنفد كما كان في السابق، وإنما صارت جائزة ومُعتَمَدة.

في هذه اللحظة بِت على يقين من كونها قصصًا مستمدّة من عالم الواقع، لأني توقفت عن سماعها ثمّ إعادة حكيها باستهلال يقول: "**كما تعلم...**"، ثم ما لبث أن تحوّل الأمر إلى مصدر قلق حاد بالنسبة إليَّ، لأني شعرتُ كما لو أنني أقذف بقصصي دونما اكتراث ولا حماية إلى أتون الحياة بمجاهلها ولا يقينها، برغم أنها الحياة نفسها التي استلهمتُ منها مادة قصصي.

استدعتْ ذاكرتي في هذه اللحظة حُلمًا قابِضًا راودني -وكثيرًا ما حكوا لي عنه- لما أصِبتُ بمرض الحصبة وضربتني الحُمّى. في الحُلم رأيتُ عددًا كبيرًا من شخوصي القصصية، وقد تركتُها في العراء مهجورة من دون مأوى ولا طعام. كنت عاجزة عن تمييز أيّ منها، ولم يكن أمامي من سبيل إلى انتشالهم من أماكنهم ورحلتهم الحائرة البائرة إلى ملاذ يأويهم، لكي أعيدهم إلى البيت الآمن الذي تخيّلتُهم فيه جميعًا بلا استثناء، راقدين مطمئنين، مهما تعدّدت الصور والأشكال التي اتخذوها وبلغت الآلاف، تلك الصور القابلة للتضاعف، وقررت أن أواصل هذا حتى لا يبقى في العالم شيء لا يعرف طريق العودة إلى الله.

وربما كانت هذه الصورة الحُلمية السابقة هي التي عوّدتني الربط بين مجموعة من الخواطر التي لا يمتّ بعضها إلى بعض بِصِلةٍ، كأن أربط بين صبي في المدرسة وشيخ مسنّ، أو بين شتلة صغيرة وشجرة باسقة، وكانت كلها تمثّل لي مراحل عُمرية لحياة فردٍ واحد، وكأنها جميعًا خرجتْ من أصل واحد. واستمرّ بي الحال هكذا حتى بدأتْ وفرة الانطباعات والخواطر المتشابكة تثقل على ذاكرتي، فبدأتُ أرتبها على هيئة أفكار متوالية ورؤوس موضوعات وكلمات مفتاحية لأعثر على طريقي وسط هذه الشبكة الكثيفة من الخيوط المتداخلة (وربما استمرت هذه العادة إلى مرحلة لاحقة من حياتي عندما بدأتُ أكتب القصص القصيرة، فغدتْ هذه الأفكار عناصر مساعدة لكتابة شيء أكبر وأشمل من أن يسعه

موضوع واحد مترابط، شيء لا يُمكن التعبير عنه، ثمَّ بقيت حتى النهاية مجرد عناصر مساعدة على الكتابة لا أكثر). ولا ينبغي بأي حال من الأحوال تفسير اهتمامي بشخوص أعمالي القصصية على اعتبار أنه لون من ألوان الرعاية الأمومية المتوقّعة من مُخيّلة صبية صغيرة.

فحتى في أيام طفولتنا المبكّرة إذ كنا نلعب بالدُّمى، كان شقيقي الذي يكبرني بثلاث سنوات، لا أنا، هو منْ يعيد الدُّمى إلى الفراش ويعيد حيوانات اللعبة إلى حظيرتها. فالدمى لا تعدو كونها مادة للعب واللَّهْو، وكم كان غريبًا أن أشعر، بسبب تصرفه هذا، بأن مُخيّلة أخي الأكبر أكثر خصوبةً من مخيلتي!

الحقيقة أنني لم أتحدّث قط عن "تجاربي مع الله" مع صديقاتي اللواتي كنَّ في مثل سنّي (من بينهن قريبة تشابه ظروف نشأتها ظروفنا تمامًا، إذ كانت تنحدر من عائلة ألمانية/ فرنسية من ناحية الأم، وقد تزوجت أختها في وقت لاحق بشقيقي الثاني)، لأني لم أكن على ثقة من أنّ لديهن تجارب دينية قريبة من تجاربي.

إلا أن هذه التجارب أيضًا تبخّرتْ مع مرور السنوات. أتذكر الآن مدى انزعاجي عندما عثرتُ بمحض المصادفة لاحقًا على قصاصة ورق قديمة ممزقة، كنت قد خططتُّ فوقها بعض الأبيات التي نظمتُها في أثناء مقامي في فنلندا، وكتبتها في أجواء الوهج الساحر لليالي الصيف الرائقة.

أيتها السماء الساطعة فوق رأسي

آه.. كم أودُّ أن أثق بكِ

لا تحرميني لذة النظر إلى وجهكِ

لا تحجبي عني وجهكِ

سواء كنتُ في قمة اللذة أم في قمة الألم

أنتِ الواسعة المحيطة بكل

العالم والرياح

أريني الطريق الذي أتحرّقُ إليه شوقًا

الطريق الذي يعيدني إليكِ من جديد

لا أريد للمتعة أن تنتهي

ولا أريد الهروب من الألم

لا أريـد إلا شيئًا واحدًا: البراح.. البراح

لأجثو على ركبتي أسفل قدميكِ

في أثناء قراءتي للقصيدة انتابني شعور غريب، حتى إني عاودتُ تأمّلها بموضوعية لا تخلو من غرور لأعرف هل كانت تستحق لقب قصيدة أم لا!

تركَتْ هذه الواقعة بصمتها القوية على أفعالي وتجاربي اللاحقة، وكأنها لم تكن ثمرة السيرورة التدريجية لشخصية المرء وتجاربه العادية بما تحمله من أفراح وأتراح، وإنما وُلِدتْ من رحم الطفولة المبكّرة، ونبعتْ من تجدّد الصدمة التي تضرب البشر جميعهم عندما ينتقلون إلى طور الواعي بالحياة، ذلك الوعي الذي يتواصل طَوال حياتهم. من الصعوبة بمكان صوغ المسألة صوغًا مقبولًا بنزاهةٍ داخل السيرة الذاتية. ربما يكون من الأفضل أن أضرب لكم مثالًا ملموسًا.

أعلى سريري عُلِّقت "روزنامة" تحوي آيات من الكتاب المقدّس. كانت مكوّنة من اثنين وخمسين اقتباسًا أتناوبُ على قراءتها أسبوعيًّا على مدار السنة، وفي الوقت الذي وصلتُ فيه إلى رسالة بولس الأولى إلى

أهل تسالونيكي (11,4)[1]، تركتُ كل ما في يدي، وتوقّفت طويلاً أمام هذه الآية:" **جاهدوا لأن تكونوا هادئين، والتفتوا إلى شؤونكم، ولتكن أعمالكم صنيعة أيديكم**".

أحيتني الحيلة في العثور على سبب مقنع يفسّر موقفي. من المؤكد أنّ ما بعثته الآية في نفسي من مشاعر الشعور المُبكّر *باليُتم الروحي* وما واكبه من زهد في الحياة هو سبب استمرار تعليق هذه الروزنامة أعلى سريري حتى هذه اللحظة، وبفضل هذه الآية على وجه الخصوص.

كانت هذه هي الآية الوحيدة من الكتاب المقدّس التي استمرّتْ معي في سنوات ابتعادي عن الله، لا لارتباطها بذكرى أبي وأمي، بل لأنّ قلبي كان مُعلقًا بها بشدة.

ثمَّ جاءتني إشارة ثانية في المدة التي سافرتُ فيها إلى الخارج بعيدًا عن مسقط رأسي، بعدما أرسِلَتْ إليَّ الروزنامة في صحبة أشياء أخرى كثيرة. بعدها حدثت نقطة التحوّل الثانية في حياتي على يد نيتشه عندما حدّثته عن هذه الآية، فأشار عليَّ بإبدالها بمقولة أخرى للشاعر الألماني جوته تقول: "**علينا أن نفطم أنفسنا عن أنصاف الحلول وأنصاف الأشياء، علينا أن نحيا بكل ذرة فينا داخل الروح الكليّة**".

ما يزال بالإمكان العثور على هذه السطور المكتوبة بخطّ اليد في الورقة الأخيرة من النسخة المصفّرة من الروزنامة. ربما تبدو جميع الانطباعات العائدة إلى مرحلة مبكّرة للغاية من طفولتي حالة باعثة على الدهشة بشكل استثنائي، على الأرجح بسبب ارتباطها، كما ذكرتُ آنفًا، بنكوصي إلى مرحلة الطفولة أو بسبب تأخّر نموي النفسي في تلك المرحلة.

---

(1) إحدى رسائل العهد الجديد المنسوبة للرسول بولس (المترجم).

ونتيجة لهذا النكوص وقف مفهومي المبكّر عن الله على طرف النقيض من التطوّر الروحي له، وهذا ما أسفر عن تقوّض هذا المفهوم على نحو أشدَّ ترويعًا وإزعاجًا عما يفترض أن يكون عليه في العادة. كان الأمر كما لو أنه أُعيدَ إلقائي مجددًا إلى قلب العالم الواقعي، لأواجه واقعًا كئيبًا منذ تلك اللحظة فصاعدًا، وإلى الأبد.

نبعتْ أولى ذكرياتي عن احتدام صراعي المبكّر ضد فكرة الإيمان بالله من مصدر خارجي عندما بلغتُ السابعة عشرة، وتحديدًا في حصة تثبيت العقيدة[1] التي كنت أتلقاها على يد "هيرمان ديلتون" المنتمي إلى الكنيسة الإنجيلية/ الإصلاحية، في هذا الطقس الديني لاحظتُ أن شيئًا في أعماقي منحاز بقوّة إلى إله الطفولة المهجور منذ أمد بعيد، وأنّ هذا الشيء يقاوم البراهين ودروس التثبيت الكَنَسي التي يحاولون زرعها في رأسي، لأن وجود الله لم يكن يحتاج إلى أدلة وبراهين.

في الوقت ذاته كان يثور بداخلي رفض مكتوم هادئ للبراهين المنطقية الدالة على وجود الله، وعلى عَدلِه، وقُدرته التي ليس كمثلها شيء، ورحمته، فداخلني شعور بالخزي، وكأن الله الذي يسكن أعماق طفولتي، كان يصغي إلى أفكاري بدهشة وذهول. وهكذا أحسستُ أني كنت أنطق بلسان حال الله بشكل أو بآخر.

أسفَرتْ حصص تثبيت العقيدة عن النتيجة التالية: كان أبي قد وقع فريسة المرض في تلك المدة، فبدأتُ في السنة التالية أحضر دروس تثبيت العقيدة استجابةً لكلام السيد "ديلتون"، لا لشيء إلا لأتحاشى عن إثارة غضب عائلتي لو خرجتُ من الكنيسة.

---

(1) في الكنيسة الرسولية الجديدة يُلقّن الصبي/ الصبية دروسًا في تثبيت العقيدة بعد إتمام الرابعة عشرة، حيث يجري تأكيد صحّة معتقده الديني (المترجم).

وبعدما نزلت على رغبته اتخذتُ قراري على الفور بالخروج من الكنيسة. والحقيقة أني بفعلتي المراوغة هاته، وبرغم موقفي العقلاني، ارتكبتُ جرمًا يفوق بكثير ما لو كنت قد أعلنتُ ببساطة وبشكل مباشر خروجي من الكنيسة، ووفّرتُ على عائلتي المؤمنة عناء الهمّ والغم. لم يكن شغفي بالحقيقة هو الدافع الأساسي وراء اتخاذ هذه الخطوة، بل كان باعثًا غامضًا مُلحًّا لم أستطع صدّه. دفعتني دراساتي وأبحاثي طَوال حياتي إلى الانغماس في دراسة الفلسفة، بل وإلى التعمّق في الدراسات اللاهوتية، أكثر مما دفعتني إلى ارتياد المجالات التي كنتُ أتوقُ أكثر إلى التعمّق فيها.

ولم يكن لذلك علاقة بطبيعتي الورِعة المؤمنة في السابق، بل ولا بصدِّي عن الإيمان في اللاحق. لم يحدث أن تأثّر إيماني السابق بأفكاري اللاحقة قط، وكأن هذا الإيمان كان عاجزًا عن اختراق حُجُب التفكير الناضج، وهذا ما أدّى إلى أن بقي اهتمامي بالحقول العلمية التي انخرطتُ في دراستها - ومنها علم اللاهوت - ، مجرد اهتمام فكري صِرف، مُنبتّ الصلة عن أية مشاعر أو عواطف سابقة، بل أكاد أذهب فأقول: هو شيء مثل حصص تثبيت العقيدة.

صحيح أني أبديت إعجابي أكثر من مرة بالأساليب التي سلكها غيري في ابتكار بديل تنويري/ روحي جذّاب يجمع بين إيمانهم الديني السابق ونضجهم الفكري في لُحمة واحدة.

وقد توسَّل هؤلاء بطريقة ناجعة، طريقة تقول: إن مرآة العواقب في يد أصحاب التجارب، وهذا يعني المضي قدمًا في طريق الحياة بهدف التعلّم من دروسها في كلّيتها وشموليتها، وهو ما عجزتُ عن فعله بسبب حيرتي وطبعي المتردد وأنا أخوض معترك الحياة، أقول: برغم كل ذلك بقيت هذه الطرائق والأساليب غريبة المذاق، غير موافقة لهواي، وكأنني في وادٍ وهم في وادٍ آخر.

الحقيقة أن ما جَذبني إلى أولئك الأفراد، الأحياء منهم والأموات، مِمن كرسوا حياتهم تكريسًا مطلقًا لهذه الأفكار، هو طبيعتهم الإنسانية. إذ مهما تحرَّتْ أفكارهم الفلسفية الحيطة والحَذَر في الإفصاح عن رؤاهم إفصاحًا مباشرًا، لم يكن من الصعوبة أن نقرأ من بين السطور أن الله كان التجربة الأولى والأخيرة في كل شيء معيش.

أقول: وأية تجربة تضاهي هذه التجربة؟ لم أتوقّف لحظة عن حبِّ أولئك المفكّرين المخلصين حبًّا غايته النفاذ إلى قلب الوجود الإنساني، حيث يتقرّر المصير الحقيقي لنا جميعًا.

وإن كنتُ قد أخفقتُ في خلق هذا التوازن في حياتي بين المأمول والمعقول، وبين العواطف والحقائق، وهو التوازن الذي يحققه المرء تدريجيًّا وعلى نحو طبيعي في سيرورة تطوّره، فربما يسألني سائل: **ما الذي بقي إذن مِن تجاربي الدينية الأولى العائدة إلى مرحلة الطفولة؟**

ردًّا على السؤال السابق لا أملك إلا جوابًا واحدًا: اختفاء وجود الرب من حياتي، وبغضّ النظر عما يطرأ على صفحة الحياة والعالم من تغيرات دائمة، فقد خلصتُ إلى نتيجة حتمية مؤدّاها أن الرب قد هجر الكون برمّته.

وربما بسبب طبيعة هذه الصورة الطفولية عن الربّ تحديدًا، يغدو من المستحيل إبدالها أو إصلاحها بصياغات أخرى لاحقًا. برغم ذلك لم تخلُ هذه النتيجة السلبية والصورة الطفولية عن اختفاء الرب من جانب إيجابي، تمثّل في أنها قادتْ خُطاي إلى خوض غمار الحياة الواقعية على نحو لا رجعة فيه. أعلمُ يقينًا أن أية تصورات بديلة عن الرب نابعة من عواطفي الشخصية كان من شأنها أن تقيّد رؤيتي وتحيد بها عن طريقها وتلحق بها ضررًا بالغًا (وأنا أتكلم هنا من منظور سيرة ذاتية تتوخّى الدقة بحسب ما تتيحه معرفتي وقدراتي).

برغم ذلك فلا أنكر أن غيري استطاع أن يستغلّ التصورات البديلة [عن الربّ] استغلالًا أتاح له المضيّ إلى الأمام، والوصول إلى أبعد مما وصلتُ إليه.

كان لمحصّلة ما سبق أبلغ الأثر في حياتي: كان محصّلته شعورًا نافذَ الأثر، مطرد النموّ بشكل لا يتراجع أبدًا، *بأن مصيري ومصير جميع الكائنات الأخرى إنما هو مصير إنساني واحد مشترك*. والأفضل لو أسميناه إدراكًا حسيًا بدلًا من كونه شعورًا وجدانيًا؛ اقتناع قائم على أساس مادي باشتراكنا جميعًا في وحدة المصير، وهو مصير لا يقتصر على البشر وحدهم، بل يفتح ذراعيه ليضمَّ الموجودات كافّة، حتى غبار الكون إن جاز لي التعبير.

ولهذا السبب تحديدًا، أي بسبب كونه مصيرًا كونيًّا مشتركًا، فهو مصير لا تقوى معايير البشر أو منظومة القيم الحياتية على تغييره، ومن المستحيل تبرير وجوده أو الرفع من قدرِه أو الحطّ من شأنه، مثلما هو من المستحيل الحطّ من شأن أي شيء في هذا الكون مهما صغر حجمه، بل حتى مهما زاد حجمه وبلغ مبلغ القتل أو التدمير، إلا لو نجحنا في أن نسلبه القداسة التي تمنحه ثِقَل وجوده، الوجود الذي يتشارك فيه معنا، لأن الوجود هو نحن.

والحقيقة أني عندما أقول هذا، فإني أعجز عن العثور على التعبير المناسب عن بقايا علاقتي الروحية القديمة بالله، لأني طَوال حياتي لم أَتُقْ إلى شيء بقدر ما تقْتُ بشكل غريزي إلى إظهار مشاعر التبجيل والقداسة لعلاقتي بالله، كما لو أن ما عداها من علاقات، سواء مع بشر أم مع أشياء، كانت أمرًا هامشيًّا يأتي في مرتبة لاحقة. تبدو لي هذه الكلمة مثل وصف جديد، أقصد مثل لفظ جديد مُبتكر يصف الترابط الوثيق

لمصيرنا الإنساني برمته، وهو مصير يقف عنده أعظم الأشياء وأضألها حجمًا على قدم المساواة. ربما نصوغ المسألة بكلمات أخرى فنقول: إن كل شيء يحمل بين طيّاته قوّة الوجود بأسره.

السؤال الآن: هل يُمكن الشعور بحرارة هذا الانتماء إلى مصير واحد من دون أن يكون هناك احترام متأصّل للوجود؟ وهل يقبع هذا الشعور في الدَّرْك الأسفل والأشدّ غموضًا من بئر انفعالاتنا؟

بل حتى فيما أرويه لكم الآن شيء من القداسة، بل ربما لم أحكِ لكم إلا عن القداسة، برغم كثرة الكلمات التي تدندن حول هذا المعنى، فالكلمة الوحيدة، البسيطة، العصيّة على القول، ساكنة في الأعماق.

ربما يتحتم عليَّ الآن أن أدلي باعتراف خِلو من أي منطق: لو ضاع مفهوم القداسة من البشر، فسيغدو أي نوع من الاعتقادات، حتى أكثرها عبثية، خيرًا لهم.

الفصل الثاني

تجربتي مع الحب

لا تخلو أية حياة من محاولات متكررة لأن نبدأ من جديد، وهذه المحاولات هي ما نُطلق عليها اسم الميلاد الثاني. وهنا تصدق العبارة الشائعة على الألسنة: المراهقة هي الميلاد الثاني[1]. بعد انقضاء عدة سنوات على محاولات التكيّف مع الواقع المحيط فضلًا على التكيّف مع قواعد هذا الواقع وشروطه، التي هيمنت على عقولنا الغضّة الناشئة، وتزامنًا مع فورة أجسامنا في مرحلة المراهقة، تفجّرتْ بغتة قوة بدائية تفجرًا عنيفًا، وكأن العالم قد خُلِقَ للتوّ، وكأن هذا العالم الذي جئنا إليه بات عاجزًا عن صدّ هجوم رغباتنا المحتدمة.

بل حتى أكثرنا رصانةً وواقعية في تجاربه لا يسلم من الوقوع في أسر هذا الشعور السحري بشكل أو بآخر؛ فنشعُرُ بنشوء عالم جديد كل الجدّة، مختلف كل الاختلاف، ونحسُّ بأن أي تعارض مع عالم المراهقة الجديد يشوبه سوء فهم غير مُبرّر. ولأننا نُـحرَم من مواصلة التشبّث بهذه الأفكار الجريئة، ولأننا يُفرض علينا الرضوخ إلى العالم كما هو، تغشانا حالة من "الرومانسية"، التي تطوّق وجودنا بغلالة من الحنين إلى الماضي، فيغدو المشهد أشبه بتلألؤ نور القمر على صفحة بحيرة تحفّها الأشجار، أو بظلّ شبح يحوم في الخرائب، فترانا نخلط بين ما هو حقيقي نابض

---

(1) يُطلق عليها أيضًا الولادة الثانية أو الولادة الجديدة، وهو مصطلح مأخوذ من العهد الجديد (المترجم).

بالحياة في أعماق أنفسنا وبين المشاعر الحادة الكريهة غير النافعة، التي تفرض نفسها علينا فرضًا في مدة معينة من حياتنا.

واقع الأمر أن مصدر ما نُطلق عليه خطأً اسم "الرومانسية" هو أشدّ مكونات نفوسنا استعصاءً على التدمير، وأكثرها صلابة، وأنقاها فِطرةً، لأن هذا العنصر هو قوّة الحياة ذاتها.

ولذلك فقوة الحياة هي الشيء الوحيد القادر على خلق التوازن بين الوجود البرّاني والقوة الجوّانية، ومن ثَمَّ فهي الوحيدة القادرة على توطيد ركائز أساس مشترك يجمع بين الحقيقة الخارجية والداخلية سواءً بسواء.

إن السنوات الانتقالية التي نمرُّ بها منذ فجر الطفولة وصولًا إلى مرحلة البلوغ والنضوج الجسدي بما تحمله بطبيعتها من مكابدات وآلام هي أكثر السنوات ملاءمةً لنخلقَ هذا التوازن القادر على مداواة ما ألَمَّ بنا في سنواتنا الأولى من مشاعر طافحة بالارتباك وتثبيط الهمة.

وأصدق مثال على هذا الكلام هو حالتي الشخصية، حيث تنبهتُ أن أحلام الطفولة وخيالاتها قد خطَتْ خطواتٍ واسعة إلى الأمام لتطأ أرض الواقع، فحلَّ محل هذه الأحلام والخيالات "**إنسان حقيقي من لحم ودم**"، إنسان لم يقف إلى جوارها، بل احتضنها واحتواها، فصار هو نفسه تجسيدًا للواقع.

الحقيقة أني لم أستطع العثور على تعبير أبسط ولا أوجزَ لوصف الهزّة النفسية التي عصفتْ بي آنذاك، أقصد عندما بلغت مرحلة المراهقة، من هذا التعبير: "**إنسان حقيقي من لحم ودم**"، التعبير الذي استطاع الجمع بين أكثر الأشياء إثارة للدهشة في حياتي وأكثرها حميمية وقربًا إلى نفسي، وهو أمر لم أتوقّع حدوثه برغم توْقي الشديد إليه.

فبالنسبة إليَّ كطفلةٍ كان حبّ الله هو أكثر الأشياء حميمية وقربًا، وكان أيضًا أكثرها إثارة للدهشة، لأن حبّ الله كان مفعمًا بمشاعر رائعة مذهلة، على عكس كل ما يحيط بي، ومن ثمّ لم يكن له، بهذا المعنى، وجود حقيقي.

وهكذا تجلّى في التعبير السابق، أي "الإنسان الحقيقي المصنوع من لحم ودم" الشمول الكامل والتفوّق الكامل في آن واحد. المفارقة أن هذا الإنسان/ الإله كان على طرف النقيض من كل خيالاتي الطفولية، وتبنّى موقف المُعلّم الذي يرمي إلى توجيهي توجيهًا غير مشروط ناحية التطوّر الفكري الناضج المباشر، وبقدر ما وجدتُ صعوبة في توطين نفسي على هذه الأفكار، أذعنتُ لها بشغف، وعزّز من موقفي آنذاك تعلُّق قلبي بشدة بهذا الرجل، فحتى هذه اللحظة لم أكن قد اقتربتُ من الحقيقة التي يمثلها هذا المعلّم.

ساعدني هذا المعلّم والمربي، الذي كان يتردّد إلى بيتنا في البداية سرًّا، ثم جعل يزورُني بموافقة عائلتي، على الاستعداد لمواصلة دراستي في مدينة "زيوريخ". وبرغم صرامة طباعه رأيتُ فيه رجلًا نبيلًا، كريم الخُلق، يتحلّى بكرم وسخاء "جدّي الإلهي" في السابق، الذي عوّدني أن يلبي كل رغباتي. وبدا الأمر كما لو أنّه تحوّل إلى رب وأداة عملية في آن واحد، إلى مرشد يهديني ومُغــوٍ يغريني، إلى الغوص في أعماق رغباتي الدفينة.

لكني في اللحظة التي أدركتُ فيها استحالة تحوّل علاقتي به إلى علاقة حبّ حقيقي إنساني، اكتشفتُ أنه لم يزد على كونه نسخة مكرّرة، بديلًا، أو ربما مرادفًا للرب الذي بُعث من الموت.

كان لهذه النتيجة التي خلصتُ إليها ما يبرّرها من الأسباب، أدناها فارق السنّ الهائل بيننا، وهو الفارق الذي كان مرادفًا للفارق بين الهوس برجلٍ ما وبين الوعي لحقيقة العلاقة به، بله أنه كان متزوجًا وأبًا لصبيتين

في مثل سنّي تقريبًا (وهو ما لم يزعجني البتّة، فالرب نفسه قريب من البشر من دون استثناء، ثم إن قُربَ الرّب من البشر لا يمنع من نشوء صلة فردية وطيدة مع كل واحد منهم على حدة).

يضاف إلى ذلك أن تضاريس جسدي الطفولية آنذاك - العائدة بالأساس إلى التأخّر الطبيعي للنموّ الجسدي لأبناء بلدان الشمال الأوروبي بوجه عام - مَنَعته من أن يطرق موضوع الزواج. لكني رفضتُ الأمر برمته عندما حانت اللحظة الفارقة بغتة، اللحظة التي طالبتني بالهبوط من علياء الخيال إلى أرض الواقع، رفضتُ الأمر برمته. وهكذا بضربة واحدة، سقط من قلبي حبّ المعشوق الذي كنت هائمة بحبّه، وسافر إلى أرض غريبة.

كان صديقي قد تحوّل إلى مجرد "شيء" له مطالبه الخاصة، "شيء" لا يكتفي بعدم تلبية رغباتي ومطالبي وحسب، بل يهدّدها، نعم يهدّدها، ويسعى إلى تحويل الجهود التي جَزم لي أنه سيبذلها من أجلي، ليسخّرها لخدمة مخلوق آخر.

واقع الأمر أني رأيت "إنسانًا آخر" واقفًا أمامي، إنسانًا لم أستطع تبيّن ملامحه تحت هالة القداسة التي أضفيتُها عليه. برغم ذلك أقول: إن الصواب لم يجانبني لمّا خلعتُ عليه صفة القداسة، فبرغم كل شيء كان هو الشخص الذي أدين له بالفضل، وكان هو الشخص الذي كنتُ أحتاج إلى وجوده وإلى أثرِه كيما أعثر على ذاتي الحقيقية. وقد تجلّتْ هذه العلاقة المزدوجة (أي: كونه حبيبًا ومرادفًا لصورة الربّ) في أنني لم أرفع الكلفة بيننا قط، ولم أنادِه باسمه الأول كما كان يفعل معي برغم علاقة الحب بيننا، وطَوال حياتي كانت المخاطبة بصيغة الاحترام (حضرتك)[1]

---

(1) تستخدم اللغة الألمانية ضمير المخاطب (حضرتك = *Sie*) لمخاطبة الغرباء والأكبر سنًّا والأعلى مقامًا، في حين تستخدم (أنت = *Du*) لمخاطبة بقية الناس (المترجم).

مرادفة للحميمية والألفة، أما المخاطبة بصيغة (أنتَ) فمرادفة لمخاطبة من هم أقل أهمية.

كان صديقي أحد أعضاء البعثة الدبلوماسية في السفارة الهولندية، وكانت الجالية الهولندية تتمتع بحضورٍ قوي داخل روسيا منذ عهد القيصر "بطرس الأكبر"، ومن ثمَّ ظهرت الحاجة إلى تعيين رجل لاهوت للاضطلاع بالمهام الدينية الرسمية، من بينها أن يؤدي البحّارة قَسَمَ الولاء أمامهم، وكانت تلك الطقوس تُؤدَّى باللغتين الألمانية والهولندية داخل كنيسة صغيرة تقع في شارع "نيفسكي بروسبكت" *Newsky Prospekt*.

ولما كان صديقي يخصّص جانبًا كبيرًا من وقته لمساعدتي، فقد كنت أتطوّع من حين إلى آخر لإعداد المواعظ التي سيلقيها في الكنيسة، ومن ثم سنحتْ لي فرصة التردّد إلى الكنيسة، وأنا أتحرّق فضولًا لأعرف هل ستأسر الموعظة انتباه الحضور أم لا (لا سيما أنّ صديقي كان خطيبًا مفوّهًا). إلا أن كل ذلك قد انتهى، ففي إحدى المرات وفي غمرة انهماكي في تدبيج الموعظة، شرَدَ ذهني بعيدًا ووقع اختياري على شذرة من مسرحية فاوست لـجوته تقول: "**الشعور هو كل شيء، أما الاسم فصوتٌ ودخان**"[1]، عنوانًا للموعظة، بدلاً من الاستشهاد بآية من الكتاب المقدّس، فنال صديقي نصيبه من التقريع الحاد على يد السفير الهولندي، ونلتُ أنا أيضًا نصيبي من التوبيخ!

ولما كانت هولندا دولة تعترف بفصل سلطة الدولة عن الكنيسة، وكان صديقي وزيرًا مفوضًا فقد ساعدتني صلاحيات منصبه في سياق

---

(1) اعتمدنا هنا على ترجمة د. عبد الرحمن بدوي (سلسلة المسرح العالمي، الكويت، عدد سبتمبر 2008) (المترجم).

آخر. كان السلطات الروسية قد رفضت منحي جواز سفر ساري المفعول قبل رحلتي إلى زيوريخ بسبب خروجي من الكنيسة، فاقترحَ صديقي أن يصدر لي شهادة معمودية بمعاونة أحد أصدقائه العاملين في كنيسة صغيرة بإحدى القرى المغمورة في هولندا. وقد تأثّر كلانا تأثرًا بالغًا بهذه الطقوس التي جَرتْ صبيحة يوم أحد عادي من أيام شهر مايو الجميل وسط الفلاحين وبين ربوع الطبيعة. لكن هذا الطقس أيضًا كان يعني انفصالنا الوشيك، وهو ما كنتُ أخشاه خشيتي للموت.

ولحسن حظي لم تفهم أمي، التي سافرتْ معنا إلى هذه القرية، كلمة واحدة من الخطبة المُلقاة باللغة الهولندية الطافحة بالتجديف [1] على حد قولها، بل ولم تفهم شيئًا من كلمة التعميد التي اختُتِمتْ بها الطقوس، مثلها مثل كلمة الزواج:" لا تخشَيْ شيئًا، لقد اخترتك، لقد ناديتكِ باسمك: أنت لي" (عهد إليَّ أن أنطق أنا باسمي لصعوبة نُطق اسم *Ljola* [2] الروسي بالنسبة إليه).

وبعد انقضاء عشر سنوات استطعتُ رسم ملامح التحوّل المفاجئ الذي طرأ على تجربة الحب في مرحلة شبابي، وهي التجربة التي لم أتمكن من فهم أبعادها حتى فهمها آنذاك، داخل رواية قصيرة جعلت عنوانها "روث"، إلا أنها لم تكن رواية مكتملة الأركان بسبب افتقارها إلى مقوّم جوهري، ألا وهو معرفة الخلفية الدينية للقصة، بمعنى الآثار الباقية من الصلة بين علاقتي بالله وعلاقة الحبّ في حياتي. إذ اختفى حبيبي من دون أثر مثلما اختفى حُبّي لله من دون أثر. وبسبب افتقاد الرواية لتفاصيل المقارنة السابقة بين الله/ الحبيب، الذي ترتب عليه افتقادها

(1) سبب الوصف أن أغلب الصلوات في الكنائس الغربية تؤدّى باللغة اللاتينية، لا المحليّة (المترجم).

(2) اسم "لو" سالومي الأصلي بالروسية (المترجم).

للمعنى الأعمق، اصطبغت رواية "روث" بصبغة رومانسية واضحة، بدلًا من أن تتقصّى مظاهر التطوّر الفريد والعنيف لنفسية بطلة العَمل. وهكذا احتفظت عندي تجربة الحب غير المكتملة هاته بسحر أخّاذ لا يُضاهى بسبب المعوقات التي حالت دون نموّها واكتمالها، لأنها كانت تجربة حقيقية، ربما تضنّ حتى الحياة بها عليَّ.

ولهذا السبب كانت النهاية المفاجئة، وعلى نقيض مشاعر الحزن والأسى التي انتابتني لما اختفى ربّ الطفولة، أقول: كانت النهاية المفاجئة خطوة إلى الأمام لبلوغ السعادة والحرّية ولتعزيز علاقتي بأول إنسان من لحم ودم أقابله في حياتي، أول إنسان ساعدتني إرادته وحكمته على تحرير نفسي، ومنحتني الحرية الداخلية لأن أعيش الحياة حتى حدودها القصوى.

وإن كان مسار الأحداث لا يخلو من غرابة أطوار سببها الرئيس مرحلة الطفولة التي لم تشهد مراحل التطوّر الطبيعي السليم، فقد لازمتْ غرابة الأطوار هاته وبشكل أكثر وضوحًا، نموي الجسدي الذي لم يتوافق مع نموي العقلي. إذ اضطرّ جسمي إلى التعامل مع المؤثرات الإيروتيكية (الحسّية) التي بدأت تداعبه، من دون أن يواكب ذلك نوع من التواؤم على المستوى الروحي. وقع جسدي فريسة المرض (أقصد مرض النزف الرئوي) بعدما تُرِكَ لحاله، وهو السبب الذي جعلني أغادر مدينة "زيوريخ" قاصدةً مدن الجنوب، فبدا لي الأمر لاحقًا أشبه بسلوك بعض الحيوانات، كأن يلزم كلبٌ مثلًا قبر صاحبه الميّت كمدًا عليه حتى يتضوّر جوعًا، من دون أن يعلم ما الذي أفقده شهيته. فنحن - الأطفال/ البشر - لا نقاسي الآثار الجسدية الناجمة عن تحطّم قلوبنا الوفيّة قبل أن نتمثّلها داخل وعينا أولًا.

في حالتي لم أشعر بالراحة من مسألة انفصالي عن حبيبي فقط، بل شعرتُ أن الألم الجسدي المواكب للانفصال عنه لم يكن إلا أمرًا غريبًا طارئًا عديم التأثير في شجاعتي المتزايدة لمواجهة الحياة. بل أكاد أقول: إن ما شعرتُ به كان لونًا من ألوان الغطرسة، ففي وسط أشعار الحب التي تُكتب عادةً في هذه الأوقات، نظمتُ وأنا على فراش المرض قصيدة مشوبة بنبرة خبيثة جعلت عنوانها "رجاء على فراش الموت":

عندما أُسْجِيتُ في نعشي

سرعان ما انقدحتْ شرارة

لتمسِّدَ تمسيدة حانية على شعري

قبل أن يُوارَى الثرى

ذلك الذي ينبغي حتمًا أن يعود يومًا إلى الثرى

اطبَعْ قبلة أخيرة

على تينك الشفتين اللتين تُحبّهما

وافهمْ أنّ جسدي المسجى داخل النعش

ليس إلا مظهرًا لا يُنبئ عن الجوهر

فحياتي الحقيقية مأواها قلبكَ أنت

وأنا الآن كلي مِلككَ أنتَ

والحقيقة أنّ الحيلة التي ابتكرتُها لتحويل الموت إلى صورة رمزية وربما إلى شرط قادر على تحقيق فكرة الزواج تحقيقًا أعمق وأشمَل، لهي أبلغ دليل على غرابة أطوار قصة الحب التي مررت بها. وهنا يتحتّم أن أميّز بين الغرابة المقصود بها مخالفة الأعراف والتقاليد المعمول بها في الطبقة

البرجوازية وتبعات ذلك وعدم استعدادي لقبولها، وبين الغرابة الناشئة على خلفية تجربة علاقتي بالله في مرحلة الطفولة.

لم يكن مُقدَّرًا لعلاقة الحب هاته منذ اللحظة الأولى أن تصل إلى نهايتها الطبيعية، بل قُدِّر لها أن تتحوّل إلى صورة رمزية تجسِّدُ ملامح تجربتي الدينية في شخص حبيبي، الذي كان رجل دين في الأساس.

ولكن كما يحدث أحيانًا عندما تخرج الأحداث عن إطارها الطبيعي، فتكشفُ عن ملامح معينة من حياتنا بشكل أكثر وضوحًا، فقد كشفَتْ لي هذه العلاقة شيئًا آخر متّصلًا بطبيعة الحب بوجه عام، وهذا الشيء أن المحبوب يرسم صورة رمزية غامضة لكل ما هو رائع وجميل في الدنيا، من دون أن يعني ذلك بالضرورة العلاقة بالله على نحو ما ذكرتها هنا.

الحب في أسمى معانيه هو أن يمنح كل منا الآخر نفسه بشكل مُطلق، بدايةً من انقداح شرارة الغرام الأولى التي لا تُقاوم وصولًا إلى أشدّ ألوان الشغف بين العُشاق اختلافًا وتنوعًا.

ولكن علينا أن نضع في اعتبارنا أنَّ فناء العشّاق بعضهم في بعض يستلزم بالضرورة العودة بوعي إلى أنفسهم ليكون كل طرف قادرًا على الاضطلاع بدوره إزاء الطرف الثاني فيما يخص ضروريات الحياة والتزاماتها. إلا أن ذلك لا يمنع أنَّ من وقعوا بهوس في حبائل الحب، ونالت منهم انتقادات العقل وسخريته، يستحقون منا كلمة امتنان على عواطفهم المفرطة، لأن معيار التجربة هنا مختلف، وكلمة الشكر مِنا واجبة لأنها ساعدتنا على اختراق وسبر أغوار ما هو ضروري وبديهي قبل معرفة الحقيقة.

فالرجل الذي يملك من القوة ما يدفعنا إلى الجمع بين الإيمان والحب في آن واحد، يَرْسَخُ في أعماق قلوبنا كإنسان مقدّس ونبيل، حتى لو تحوّل بعدها إلى خصم لدود.

ولهذا السبب ينبغي لنا، حتى ونحن في علاقات الحبّ العادية، أن يغفر بعضُنا لبعضٍ ما قد يبدرُ مِن الطرف الثاني من تجاوزات، أقول هذا برغم صعوبة تجاوز الحدود المحيّرة التي لا يمكن وضعها فيما يخصّ مبدأي الوفاء والخيانة. وفي حين أن إحراز خطوة جسورة إلى الأمام عادة ما يكون مصحوبًا بتكليف الآخرين بمطالب ثقيلة، فوجود المحبوب في حياة الإنسان لا يعدو أن يكون شرارة الانطلاق التي تحفّز الشاعرَ لكتابة الشعر، ذلك الشعر الذي لا تربطه أدنى صِلة بالموضوعات التي يقاربها في عالم الحقيقة.

إننا جميعًا شعراء أكثر من كوننا بشرًا يمارسون التفكير. فالحالة التي نكون عليها إذ نكتب الشعر لا تكون أبدًا الحالة التي كنا عليها قبل كتابته، بغضّ النظر عن مسألة القيمة، فالقضية أعمق، وأبعد بكثير من هذه المسائل؛ فالقضية الجوهرية هي المواجهة الحتمية التي يخوضها وعي الإنسان مع جوهر وجوده، ومع البحث الحتمي عن كيفية اعتراف بعضنا ببعض.

وأصدق تشبيه لحبّ أحدنا للآخر هو طوق النجاة الذي يتيح لطَرفي العلاقة تعلّم السباحة، إلا أننا في العادة نسلك سلوكًا غريبًا، فنتصرّف كما لو أن الطرف الآخر هو البحر الذي يحمل كلينا معًا، وهذا ما يدفعنا لنرى علوّ مكانة الطرف الآخر وتفرّده في أعيننا، كما لو كان الحبيب هو برّ الأمان، وفي الوقت ذاته نراه مخاتلًا مُحيرًا مثل الأبدية.

إن علينا، بعدما صرنا واعيَين لحقيقة كوننا شظايا من هذا الكون اللانهائي، أن نتحمّل بعضُنا البعض وأن نؤازر بعضُنا البعض في مثل هذه الحيرة بين الضفتين، علينا أن نُثبتَ أننا كيان واحد لا ينفصم، وأن نجسّد ذلك على أرض الواقع.

إلا أن استقرار هذه الحقيقة المادية أمام أعيننا، الحقيقة التي يبدو لي أنها غير قابلة للدحض، مجرد ادّعاء ملؤه الصياح ضد حقيقة عزلة كل واحد منا عزلة راسخة غير قابلة للتجاوز.

لذلك لا نستبعد ونحن نعيش حالة حبّ روحي، أن نسقط فريسة وهم جميل يقول لنا: إننا نحلّق في الهواء من دون أجسادنا، وإننا لم نفارق أجسادنا في الوقت ذاته. وللسبب نفسه قد يحدث العكس تمامًا، وعوضًا عن هذا العشق الروحيّ تنجزُ أجسادنا عملية التواصل عبر موضوع (شيء مادي) ربما لا يستحوذ على كبير اهتمامنا.

وعليه، يتحتّم أن نميّز تمييزًا واضحًا بين "*إيروس Eros*"[1]، الذي يُرشِدنا وبين "*الإيروتيك Erotik*"، الذي يغوينا، كما علينا أن نفرّق بوضوح بين الجنس كمفهوم شائع عام، وبين الحب بوصفه عاطفة تخفق لها قلوبنا، ونميل إلى تصنيفها على أنها تجربة "صوفية" يكتنفها الغموض.

---

(1) "**إيروس**" هو إله الحب عن اليونان، وفضلاً على معنى الحب الذي يحتشده، يستخدم أيضًا للتعبير عن الرغبة الحسّية المتأججة، وفي علم النفس الفرويدي وعند آخرين اكتسب المصطلح معنى أكثر اتساعًا يتراوح بين المفهوم الجنسي المحض والرغبة، وبحسب موسوعة لالاند الفلسفية (منشورات عوديات 2001) إيروس هو الحب والعشق، وهو كل رغبة شديدة وكل نشدان لشيء بشوق، أما "**إيروتيك**" فهو كل ما يتعلّق بتحريك الغريزة الجنسية. راجع المعجم الفلسفي جميل صليبا بيروت 1982، أما هنا في كتاب "سالومي" فالمقصود به "المبدأ الفاعل" وتسمّى طاقته المحرّكة بالليبيدو (المترجم).

تختلف هذه التجربة من حالة إلى أخرى، اعتمادًا على تجربة الحب هل ستتجسّد في أجسامنا البريئة التي تجدُ رضاها في الانغماس في المتعة الخالصة، فلا تستشعر فيها ابتذالًا، بل تحتاج إليها مثلما تحتاج إلى الهواء والطعام، أم سنجد في سرّ الحب تعبيرًا عن انتمائنا نحن البشر الضِّعاف إلى الوجود الكوني بأسره بشكل مفعم بالنَّشوة الصوفية.

الحقيقة أن الحيوانات وحدها هي التي تعاني التعارض السابق، فعوضًا عن مشاعر الحب والهَجر التي تعذّب البشر، لا يحرّك الحيوان إلا قانون داخلي نابع من غريزته الحيوانية فقط: شهوة التكاثر والحرية، ومن ثمّ فالحيوان لا يعرف كلمة الخيانة، لأن الخيانة صفة مقصورة على البشر وحدهم.

برغم ذلك ثمّة عنصران أساسيان يتجاوزان غرائز مملكة الحيوان مثلما يتجاوزان تعقيدات عالم البشر ليتحكما في قراراتنا الخاصّة، وهما: غريزة التكاثر وغريزة الأمومة (دعوني أقول: إن سبب ابتعادي عن التعمّق في دراسة الحب راجع بالأساس إلى عجزنا عن فهم سرّ "الحب" بمعزل عن رغباتنا النابعة من العقل والغريزة، لكن برغم ذلك فالعقل والغريزة مجرد وعاءيْن ضيّقين لا يمكننا أن نغترف منهما غَرْفة كبيرة بيدنا). وهذا هو السبب في أننا نصير أمهات، أقصد تلك الغريزة المتجذرة فينا. وبغض النظر عن مشكلات الإنجاب، ثمة ما يؤكّد تأكيدًا قاطعًا أن منح المرأة الحياة كائنًا آخر يُسبغُ عليها صحة وافرة، حتى عندما لا تكون غريزة الأمومة بداخلها رغبة واعية متصالحة مع رغبتها الشخصية في إعادة خَلقِ طفولة الرجل المنشود داخلها. ومن هنا لا يخامرني شكّ في أن حرمان المرأة من تجربة الأمومة يحرمها بالضرورة من معايشة أهمّ مقوّم من مقومات كونها امرأة حقيقية.

أتذكّر الآن مناقشة مُطوّلة حول موضوع مماثل مع شخص ما، ولا أنسى أبدًا كَم بدَتِ الدهشة على ملامحه لما اعترفتُ أمامه بالاعتراف التالي: "هل تعلم أني لم أجرؤ قطّ على التفكير في إنجاب طفل إلى هذا العالم؟".

ولما أخبرته بذلك كنت على يقين من أن موقفي لم يكن من جرّاء تجربتي في مرحلة الشباب، بل تَـشَكَّل في مرحلة مبكرة للغاية في حياتي، مرحلة لم تُكن تطرح فيها مثل هذه الأسئلة، مرحلة كنت أعرف فيها الله أكثر مما أعرف كفّ يدي. كنت أعرف أنه عندما يأتي الأطفال إلى العالم إنما يأتون من عند الله، وعندما يموتون إنما يرجعون إلى الله. وإلا فكيف كانوا "سيأتون إذن"؟ هكذا فكّرت آنذاك. والحقيقة أني لا أودّ القول: إن اختفاء الإيمان من حياتي أوهَنَ أو قتل فكرة الأمومة بداخلي.

لا، لا أريد أن أدلي بأية كلمة في حالتي على وجه التحديد. إلا أن ذلك لا ينفي بالطبع جسامة وأهمية المعنى الجليل الذي ينطوي عليه فعل خَلق الإنسان من لا شيء أو من جِماع الأشياء كلها. وبصرف النظر عن آمالهم ورغباتهم، يتجاوز أغلب الناس مشاعر التردد في خطوة الإنجاب بأنْ يعلّلوا أنفسهم بالأماني ويقولون: إن أولادنا سيفلحون في تحقيق ما لم نفلح في تحقيقه.

إن قوّة الخلق الفني لا تكمن في كونه فعلًا عظيم القيمة الأخلاقية أو عديمها، وإنما تكمن في الموقف نفسه الذي ينقلنا من حالة الانكفاء على الذات إلى حالة الإبداع والإنشاء، ومن ثمّ ينزع منا قرارنا الشخصي في أشدّ لحظات حياتنا امتلاءً وثراءً.

ولو صَـحَّ أن كل أفعال حياتنا خاضعة لقانون الانتقال هذا (أي: الانتقال من الذات إلى الخَلْق)، مثلما نوقّع باسمنا أسفل النصّ الذي أُمِلِيَ علينا، ففي مقدورنا أن نقول: إن العالمَيْن المتناقضين يلتقيان في بؤرة واحدة اسمها بؤرة الإبداع (ويصدق هذا بالمثل على كل مناحي الحياة). فمهما توخّى الأبوان الأمانة والجدّية في الاضطلاع بمسؤوليتهما إزاء الطفل المولود حديثًا، فستكون جهودهما محكومة بطباعهما الفيسيولوجية والروحية من جهة، ومحكومة بما هو خارج عن متناول أيديهم من جهة ثانية، أي: تلك المؤثرات الخارجية البعيدة عن نطاق سلطتهم.

ومن ثَمَّ يسهل علينا، والحال هكذا، أن نفهم سبب كون الأم داخل أوساط المؤمنين هي الطرف الأكثر توقًا إلى الإيمان والأشدّ إلحاحًا عليه، وعسى الله أن يؤازرها في هذه النقطة تحديدًا دعمًا للطفل المولود حديثًا. فلم تعد على وجه الأرض اليوم امرأة كمريم العذراء، زوجة يوسف[1]، التي حَمَلَتْ بلا دنس تحقيقًا للسرّ العظيم الذي اصطفاها.

من بين مظاهر "الإيروس" التي تربط بين شخصين عاطفيًا وجسديًا، ثمّة رابطة أخرى أشدّ عمقًا، وهي رابطة غامضة يتعذّر شرحها وتوضيحها عبر الإشارات السريعة. وربما يكون ضربًا من المجازفة أن نحاول رسم معالم الصورة نسجًا على منوال ما شرحناه سابقًا، لذلك سأسوق لكم المثل التالي:

---

(1) استخدمت المؤلفة تعبير *Josefs Weib* (زوجة يوسف)، ويجدر هنا التوضيح أنّ الزواج حسب التقليد اليهودي القديم يجري على مرحلتين: خطبة ثم زواج. هذه الخطبة في الحقيقة تعادل الزواج المعروف حاليًا في كل شيء ما خلا العلاقات الجسدية. فالمخطوبة تُدْعى "زوجة"، وتصير أرملة إن مات خطيبها. من هنا نفهم سر إطلاق "زوجة يوسف" في تعبير لو سالومي على السيدة العذراء رغم كونها مخطوبة وليست متزوجة وفق الاعتقاد المسيحي (المترجم).

لنتخيّل زوجين يعتزمان إتمام علاقة الحب بينهما، فقط وبشكل حصري، عبر إنجاب طفل، ولنتخيّل أيضًا أنهما ينشدان الارتقاء بمستوى علاقة الحب من المستوى البيولوجي القاصر على فعل الإنجاب إلى مرتبة أكثر سموًّا وروحانية، هنا نجد أنّ المستوى المادي الملموس لم يفارق المستوى الميتافيزيقي المتعالي، ذلك أن النشوة المنوط بها الارتقاء بهما إلى المرتبة الروحانية لم تنعكس عليهما انعكاسًا مباشرًا، بل انعكست على مظهر ثالث هو قِبلة رجاء الزوجين كليهما (أي ولادة الطفل)، وهذا المظهر الثالث هو القادر على نقلهما من أعماق ذاتهما إلى أفق الرؤية، أو - لو جاز لنا التعبير - إلى الرؤيا التي ينشدها الزوجان. ومن ثمَّ ليس ما يدخل في تجربة الزوجين على أرض الواقع هو معيار التجربة، وإنما الأرضية المشتركة لتصورات الزوجين هي المعيار الحقيقي، والأرضية الروحية المشتركة هي ما يجعل هذا التصوّر معقولًا. والحقيقة أننا لم نكن لنحتاج إلى شرح الصورة السابقة عبر هذه الكلمات المغرقة في الرمزية والإبهام لولا خلط الناس المستمر بين هذه العلاقة وبين ما نطلق عليه عمومًا لفظ "صداقة أو رفقة العشاق". ففي علاقتنا التي ضربتُ بها المثل السابق لا ينغمس الزوجان في العلاقة الجسدية وحسب، بل يعزّزان هذه العلاقة عبر تكريس نفسيهما لشيء ثالث أساسه الميول المشتركة، سواء أكانت ميولًا روحية أم فكرية أم عملية.

واختلاف هذا عن ذاك ليس فقط أشبه باختلاف التلّ عن الجبل، فالأمر أعمق من ذلك، إنه اختلاف جوهري، الأمر مثل زوجين قرّرا تبنّي أطفال خدمة للمصلحة العامة بدلًا من إنجابهم، ويمضيان في طريقهما، سواء كان قرارهما حكيمًا أو شجاعًا، أو كان سيسعدُهما أم لا. ربما تمتزج الصداقة بشعور النشوة الذي تكلمتُ عنه في سنوات الصبا المبكّر، أقصد تلك السنوات التي تتفجّر فيها الطاقات الإبداعية وتناضل

للظهور على السطح، راغبةً في إثبات وجودها، قبل أن تأتي مرحلة البلوغ الجسدي التي تستأثر بكل الاهتمام لمصلحة تلبية احتياجاتها.

في أحوال نادرة للغاية تُفلح هذه المشاعر البِكر الصافية في مواصلة طريقها من دون تحطّم، حتى تصل إلى مرحلة النضج التام، المفارقة أن "الإيروس" يخلق في البشر أشدّ المشاعر نُدرة وأشدّها روعة في الوقت ذاته. خلاصة كلامي أن الطرف الآخر في علاقة الحب يبقى وسيطًا بشريًا، مجرد مرآة شفّافة رائقة تلبّي رغباتنا الدفينة.

كلمة "أن نكون صديقيْن" هي تجسيد فائق للقدرة على المصالحة بين أشد مظاهر التناقض تعقيدًا في هذه الحياة؛ معنى الصداقة أن نقف في حضرة الألوهية، أن نتشارك في وحدَتنا، أن نعمّقها روحيًّا لا ماديًا، أن نجعلها عميقة الغَور بحيث يرى الإنسان ذاتَه في الآخر. فالصديق هو من يحميكَ حتى مِن فقدان الشعور بالوَحدة، والصديق هو الذي يحمي الإنسان من نفسِه. لا شك أن تجربة الحبّ الأول الكبير في سنوات صباي المبكّرة وثيقة الصلة بجوهر ما حكيتُ عنه لكم للتوّ، ولذلك لم أخجل البتة من محاولتي المرتبكة في صوغ أفكاري في هذه الكلمات الغامضة، إذ لم يُكتب لأي علاقة حب في حياتي النضج ولا الاكتمال.

ومن هنا لا بدّ لي من الاعتراف أني لم أُوَفَّق على مدار حياتي لإحراز النجاح الذي ربما صادفه غيري في نمط من الأنماط الثلاثة التي تكتمل أو تتجسّد بها علاقة الحب، وأقصد بها (رابطة الزواج، ورابطة الأمومة والرابطة الإيروسية الخالصة). لكني لا أرى ضيرًا في ذلك على الإطلاق ما دمنا نحاول فهم مغزى حياتنا الماضية وحياتنا الحاضرة، وما دمنا نسعى بقوّة لننجز عملنا وإبداعنا حتى الرمق الأخير من حياتنا.

ربما أصوغ الأمر على النحو التالي:

لو أن إنسانًا جاء إلى شجيرة ورد وقبض كفَّه على طاقة أزهار، فمهما قبض فلن يوازي ما قبضَه شيئًا مقارنة بوفرة أزهار الدنيا. لكني برغم ذلك أقول: إن ما قَبَضه كفيل بأن ينقل إليه عَبَقَ أزهار الدنيا كلها. ولو انصرف عن شجيرة الورد بذريعة أنه لن يظفر بالأزهار كلها دفعة واحدة، أو لو أنه نفخ في طاقة الأزهار أمامه كما لو أنها هي كل أزهار الشجيرة، فعندها ستنتثر في الهواء أزهار ميّتة، فتغادرنا وتتركنا بمفردنا.

أما عني فلا أعرف إلا حالات قليلة من بنات جيلي ممن عرَفْنَ كيف يحسِمْنَ مشكلات الحب والحياة، بل إن موقفي تجاه الأمور كان مغايرًا تمامًا لموقفهنّ من دون أن أكون قادرة على تفسير ذلك بشكل واضح.

ربما يرجع ذلك إلى أني ضربتُ صفحًا عن سنوات "الشوق والخوف المعلّق بأهداب العذاب المتأرجح"[1] في اللحظة التي قابلتُ فيها الرجل ذا التأثير الأبلغ في حياتي، الرجل الذي فتح باب الحياة الحقيقية أمامي على مصراعيه، وتركني في حالة تأهّبِ الجنس الخشن لمواجهة الدنيا، لا خنوع الجنس الناعم. ولم يكن هذا هو السبب الوحيد؛ فبنات جيلي، وهُنّ في غمرة تفاؤل الشباب، اعتدنَ النَّظر إلى كل الرغبات والأماني التي ينشُدْنَ تحقيقها، بمنظور وردي مفرط في التفاؤل.

أما أنا فكنت أفتقر إلى صفة جوهرية، أو بالأحرى أقول: إني ابتليت بمعرفة هائلة تفوق طاقتي، شيء أشبه بحكمة موغلة في القِدَم وَسَمَتْ مزاجي وشخصيتي بوسمٍ أبدي. كانت هذه الحكمة مثل جلمود صخر هائل مستقرّ أسفل قَدَمي، لكنه، برغم ذلك، لا يمنعني من مواصلة السير إلى الأمام وكأني أمشي فوق الطحالب والزهور.

---

(1) الاقتباس هنا من قصيدة للشاعر الألماني جوته، والاقتباس موضوع بين قوسين في الأصل (المترجم).

أم هل تُراني عبّرتُ عن الأمر تعبيرًا حرفيًّا؟ ربما. على أي حال أنا امرأة اعتادتْ مواجهة كل ما يأتي به المستقبل، أيًا ما كان، بسعادة وطيب خاطر.

طالما أحببتُ الحياة وانتظرت بشوق مفاجآتها، بل تمنيت أن أعانقها بكل ما أوتيتُ من قوة، عشقتُ في الحياة كل شيء ما عدا ما يفرض سلطته وما يبسط عليَّ هيمنته وتحكّمه، اللهم إلا إذا كان شيئًا أو شخصًا يشبهني ومرَّ بنفس تجربة وجودي الغامض في هذه الحياة.

ولكن متى وأين يتوقّف دور "الإيروس" في حياتي؟

ألا يجدر بهذا الفصل المعنون بتجربة الحب الردّ على هذا السؤال؟

ما جرى أنّ حماسة الشباب تدفقتْ تدفّقًا هادرًا لتصبّ في نهر الحياة، متخطية كل الحواجز المتصلة بأسئلة السعادة والألم والآمال والرغبات، فأمسَتْ حالة عاطفية خالية من الموضوعية، مثل حالتنا عندما نقع في الحب، ومن ثمّ لم تجد عواطفي مَصْرِفًا لها إلا كتابة الشعر والقصائد.

ومصداق كلامي قصيدة قصيرة كنت قد كتبتُها إبان إقامتي في "زيوريخ" بعد مغادرة روسيا، وبها أختمُ هذا الفصل، جعلت عنوانها **"ترتيلة للحياة"**، تقول أبياتها:

هكذا الأمر حتمًا، وكما يُحبُّ الصديقُ صديقَه

أحبّكِ أيتها الحياة

أيتها الحياة المجلّلة بالغموض

سيّان إن كنتِ سبب ضحكي أم سبب يأسي

وسيّان إن كنتِ سبب نعيمي أم سبب بؤسي

سأظلّ أحبّكِ برغم ما ذقتُه منكِ من صنوف الأذى

وحتى لو أردتِّ يومًا أن تدميري

فسأهجركِ عندها هجرًا جميلًا

كما يهجر صديقٌ صديقًا

ثمّ أضمّكِ بين ذراعيّ بكل قوّتي

لأدع ناركِ تحرق جثّتي

ألا فلتَدَعي سرَّكِ العميق يخترق عظامي عميقًا عميقًا

في وهجِ معركتي معكِ

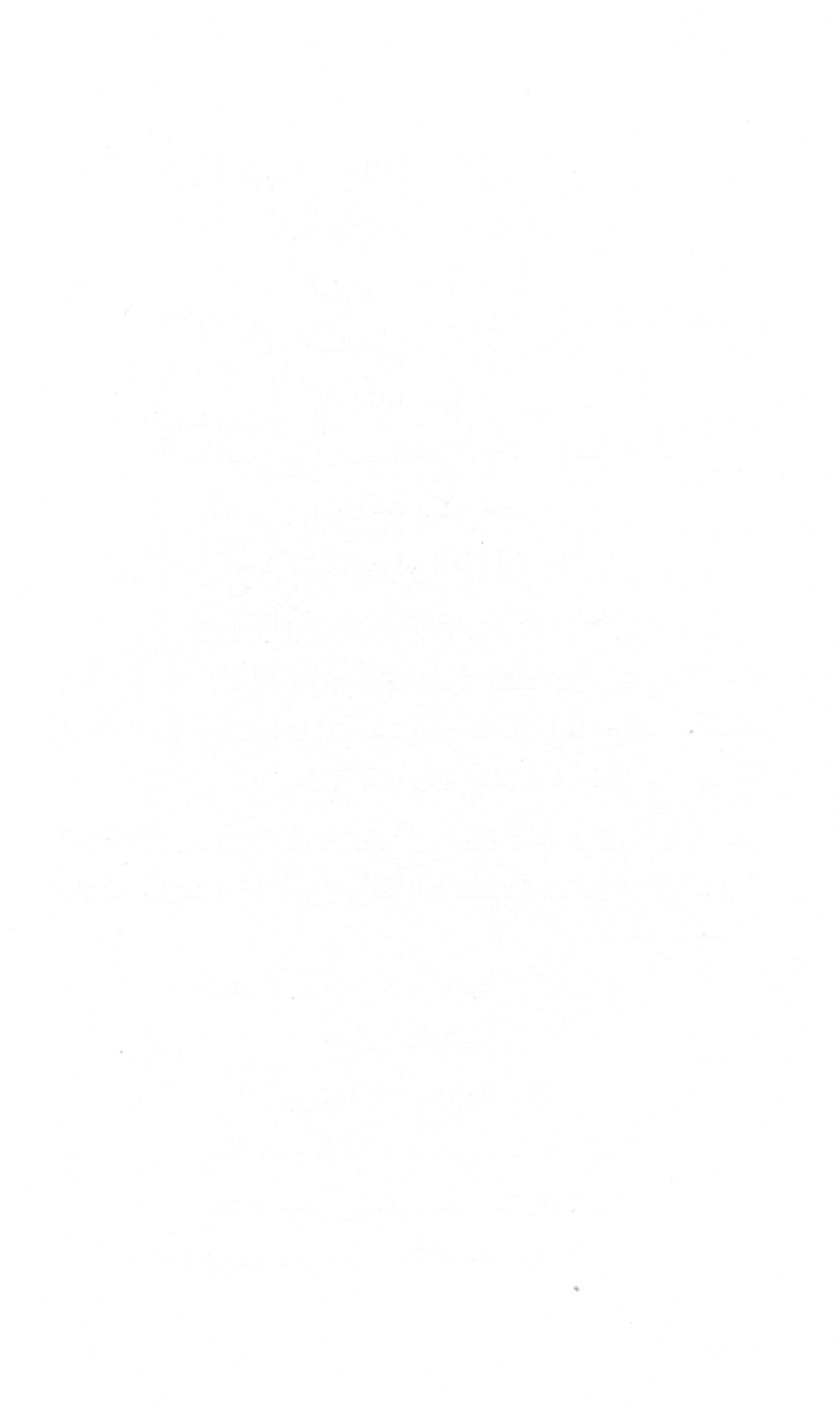
لأحيا آلاف الأعوام، لأفكّر آلاف الأعوام

ثمّ طَوِّقي بذراعيكِ خصري من جديد

فإن لم يبقَ في جعبتكِ ما تمنحينه لي من أفراح

فما يزال في جعبتكِ ما تمنحينه لي من أتراح

(ملاحظة: بعدما دوّنتُ القصيدة من الذاكرة أمام نيتشه، وتولّى تلحين كلماتها صارت أبياتها أطول وأكثر امتلاءً بنبرة احتفالية).



الفصل الثالث

تجربتي مع العائلة

بصفتي آخر العنقود والأنثى الوحيدة في العائلة فقد استمرّ شعور التآزر الأخوي ملازمًا لي طَوال حياتي، تاركًا بصمته على علاقتي بكل من عرفتهم من رجال. كنت أشعر على الدوام أنّ لي أخًا مدفونًا وسط مَن قابلتهم، سواء من تعرّفت بهم في بداية حياتي أم في آخرها.

إلا أن ذلك الشعور كان راجعًا أيضًا إلى طبيعة أشقائي الخمسة أنفسهم، ولا سيما ثلاثة منهم، إذ لم يُكتب لشقيقي الأكبر وشقيقي الرابع أن يعيشا طويلًا. وبرغم أن طفولتي كانت محكومة بعزلةٍ جدرانها مصنوعة من أعمدة الخيال، وبرغم أن طريقة تفكيري وطموحي كانا على طرف النقيض من التقاليد العائلية فضلًا على كونهما مصدريْ إزعاج لوالدَي، وبرغم أني قضيتُ جلّ حياتي لاحقًا خارج بلادي، لم يطرأ أيّ نوع من التغيّر على علاقتي بأشقائي.

وبعد مرور السنوات وبسبب بُعد الشُّقَّة بيننا، علّمتني حكمة الحياة أن أقترب من قِيمهم الإنسانية، وأن أفهمها فهمًا أنضج. وعقب سنوات طويلة، وبعد أن بدأت أضع نفسي وأفكاري موضع المساءلة، أثلجتْ صدري فكرة أننا جميعًا ننحدر من أصل واحد، وتنبهت أني لم أقابل رجلًا واحدًا في حياتي يتمتّع برجاحة العقل أو لطف المعشر أو الشهامة الحقيقية، إلا وبعث في ذاكرتي صورة أشقائي على نحو متقد بالحياة.

وحتى بعد وفاة أمّنا وقد ناهزت التسعين من عُمرها، أعطاني أشقائي ضعف نصيبي من الميراث، برغم أنّ الشقيقين المتزوجيْن آنذاك كانا يعولان خمسة عشر طفلًا، في حين كنت عزباء بلا أطفال، وعندما ألححت في السؤال عن فحوى وصية أبي جاءني ردّ من أخي مفاده أن هذا ليس من شأني قائلًا: "ألا تعلمين أنكِ ستبقين على الدوام الشقيقة الصغرى؟".

كان أكبر الأشقاء سنًّا - وهو "ألكسندر"، واسم التدليل "ساشا" - بمنزلة الأب الثاني، وكانت طبيعته تجمع بين الحماسة والطيبة في آن واحد، وكان يشبه والدنا في حيويّته واستعداده لمساعدة الجميع، حتى من لا يمتّون إلينا بأدنى صلة. وهو إلى جانب ذلك كان يتحلّى بروح دعابة ساحرة وضحكة رائقة لم أسمع مثلها في حياتي، ضحكة قادرة على أن تصيب الجميع بعدوى الضحك. كانت روح الدعابة عنده مزيجًا نابعًا من صفاء ذهنه الحاد وقلبه المفعم بالطيبة، الذي يرى في مساعدة الآخرين أمرًا بدهيًّا مفروغًا منه.

وعندما كنت في الخامسة عشرة وتلقيتُ نبأ وفاة أبي الصادم في أثناء وجودي في برلين، خرج مني ردّ فعل لا يخلو من أنانية طاغية، إذ قلت: "ومن سيحميني إذن؟".

أما شقيقي الثاني "روبرت" أو "روبا" (أبرع راقصي المازوركا[1] في حفلاتنا الشتوية)، فكان يتمتّع بمواهب فنيّة لا تُبارى ومزاج حساس مفرط الحساسية. كان يرغب في أن يكون ضابطًا بالجيش مثل أبيه، ثمّ شاءت إرادة الأب أن يصير شقيقي مهندسًا، وقد كان.

(1) أسلوب موسيقي بولندي الأصل قائم على الرقصات الثلاثية (المترجم).

كذلك فَرض النظام البطريركي الأبوي آنذاك على الأخ الثالث "يوجين" أو "جينيا"، الذي وُلِدَ ليكون دبلوماسيًّا، أن يدرس الطب ضدّ رغبته الشخصية، إلا أنه أحرز برغم ذلك نجاحًا لافتًا في مسيرته المهنية كطبيب. وعلى اختلاف مشاربهم، جمعَتْ بين أشقائي خصال مشتركة، أبرزها التفاني المُطلق في أداء واجباتهم الوظيفية والمهنية. وقد برع شقيقي الثالث في مهنته كطبيب أطفال، وكان قد أظهر منذ يفوعه قدرة نادرة في التعامل مع الأطفال، محتفظًا في أعماق نفسه سرًّا ببذرة "الرجل الدبلوماسي".

ما أزال أحتفظ بذكرى عنه من أيام الطفولة الخوالي؛ كان يوبخني بشدّة بسبب خروجي الصريح عن تقاليد العائلة، وفي إحدى المرات أغاظني كلامه إلى حد أني رغبت في أن أقذف وجهه بكوب الحليب الساخن، لكني عوضًا عن ذلك سكبت كوب الحليب على نفسي، لتحرق جلدَ عنقي وظهري سخونة الحليب. وبنفس درجة التهور التي جُبلنا عليها جميعًا قال وعيناه تشعّان سرورًا: "انظري! هذا جزاء الأشقياء".

بعد وفاته في سن الأربعين متأثرًا بمرض السل بدأت أفهم المزيد عن شخصيته. على سبيل المثال بدأت أتنبه لسبب وقوع النساء في غرامه بشدة برغم أنه كان طويلًا مفرط الطول، نحيف الجسد، ولا يتمتع بأية وسامة لافتة، وعلى وفرة النساء من حوله لم يتخذ صاحبة قط. وكنت أفكّر أحيانًا أن جاذبيته الطاغية كانت مسكونة بما يُشبه قوّة سحرية لا تنتمي إلى عالمنا، قوة مُشبَّعة بخفّة ظل. في إحدى المرات قرّر شقيقي أن يأخذ مكاني في أثناء إحدى الرقصات التي كنا نؤدّيها في المنزل، كان يضع شعرًا مستعارًا فوق رأسه الحليق، وبدا جسده نحيفًا ممشوقًا في المشدّ (الكورسيه) الذي يطوّق خصره. ونال أوسمة في جميع حفلات رقص

"الكوتيليون"[1] من صغار الضباط الذين لم يكونوا على معرفة جيدة بأفراد العائلة، اللهم إلا معلومة غامضة عن صبية لم تبلغ الحُلم تعيش منعزلة وسط العائلة.

لم يكن يعجبني في الأمر سوى حذاء الرقص الرشيق الذي كنت أحبُّ ارتداءه منذ بدء تلقّي دروس الرقص، وكانت تحدوني رغبة قوية في ارتدائه حتى أنزلق على أرضية الباركيه في قاعة المنزل الكبيرة، كما لو أنني أرقص فوق الجليد، وهو ما كان يغريني بممارسة هواية التزلّج في غرف المنزل الأخرى الواسعة، التي كانت أسقفها شاهقة الارتفاع مثل أسقف الكنائس.

كان المقر الرسمي لإقامة أبي في بلدة "مورسكاي" هو جناح لإحدى بنايات كبار ضباط الجيش في منطقة "مويكا"، وكانت طبيعة تصميم هذه الغرف الهائلة الاتساع والتزلّج على أرضيتها يمثّلان لي متعة يومية لا تُضاهى، وعندما أعود بذاكرتي إلى تلك الأيام، أرى نفسي أتزلّج في تلك الحجرات بمفردي تمامًا.

كان أشقائي الأكبرون سنًّا قد تزوّجوا وشقّوا طريقهم في الحياة في الوقت الذي كنت ما أزال فيه أتلقّى دروس الرقص، وكانوا أزواجًا محبين وآباء عاطفين وعاشوا حياة سعيدة، لكن سلوكهم إزاء زوجاتهم كان قد تأثّر تأثرًا بالغًا بسلوك أبينا تجاه أمنا. على سبيل المثال كان أبونا يقف عندما تدخل أمنا من باب الحجرة، وهو ما كنا نقلّده ونحن صغار من دون تفكير.

إلا أن ذلك لم يمنع من أنّ أبانا كان يخرج عن طوره أحيانًا ويتلفّظ ببعض الألفاظ الحادّة بفعل طبيعته المزاجية المتقلّبة التي ورثناها جميعًا

---

(1) رقصة شعبية حظيت بانتشار واسع في أوروبا وأميركا في القرن الثامن عشر (المترجم).

عنه. لكنه كان رجلًا غير متكلّف، صافي النيّة، وبقي هكذا حتى الرمق الأخير من حياته. وهنا تحضرني طُرفة اعتدنا أن نرويها عنه.

كانت "موشكا"، وهو اسم التدليل الذي أطلقناه على أمّنا، قد حذّرت أبي من شخص يدبّر له المكايد في الخفاء، ونبّهته على صديق ثان جدير بمحبته، إلا أنَّ أبي خلط الحابل بالنابل، فاقترب من الأول وخاصم الثاني. في صدر شبابه كان أبي شابًّا مُحبًّا للحياة، مُقبلًا على ملذّاتها، وكان ذلك في حقبة حكم القيصر "نيكولاس الأول" و "بطرس الثاني"، وكان أبي أحد أعضاء الجيل الذي ضمَّ "بوشكين" و "ليرمنتوف"، وقد عقد أبي مع الأخير أواصر صداقة قوية بوصفه ضابطًا أيضًا.

وبعد زواجهما، شهدت حياة أبي وأمي، التي كانت تصغره بتسعة عشر عامًا، تحولًا دينيًّا رسميًّا بتأثير من القسيس البلطيقي "إلكين"، الذي سعى إلى بثّ روح الورع والتقوى في الجسد الطافح بالوعظ الجاف للكنيسة الإنجيلية في بطرسبيرج.

بالنسبة للسكان غير الأصليين من أمثالنا، أي غير المنتمين إلى الكنيسة الكاثوليكية - اليونانية، كانت الكنائس الإصلاحية، سواء الفرنسية منها أم الألمانية أم الهولندية، جنبًا إلى جنب مع الكنيسة اللوثرية، تمثّل نوعًا من أنواع التلاحم الديني، برغم أننا جميعًا كنا ننتمي إلى الروح الروسية، ومن ثمَّ أسفر خروجي من الكنيسة عن نبذي اجتماعيًّا، وهو ما كان مصدر ألم شديد لأمي.

فيما يخص أبي، الذي وافته المنية عقب خروجي من الكنيسة بمدة قصيرة، كنت على يقين من أنه لم يعارض قراري برغم ما انتابه من حزن عميق لخروج ابنته من حظيرة الإيمان (المفارقة أن أبي كان يرتبط

ارتباطًا خاصًا بالكنيسة الإصلاحية الألمانية لأنه كان صاحب الفضل في الحصول على الترخيص بتأسيسها من القيصر الروسي آنذاك).

كان أبي متحفظًا في الخوض في مسألة الاختلافات الدينية، وبعد وفاته أهدِيتْ إليّ نسخته الخاصة من الكتاب المقدّس، فكوّنتُ صورة لحقيقة معتقده الديني، ولا سيما من واقع الآيات التي كان يخطط بالقلم أسفلها. وقد مسّتني من الأعماق خصال التفاني الشديد، والهدوء والتواضع والثقة الطفولية التي كانت تسكن روح هذا الرجل القوي الممتلئ بالنشاط، وتملّكني حنين جارف إلى معرفة كل ما يخصّ هذا الرجل الذي رحل وأنا في السادسة عشرة.

ربطتني بأبي، منذ سنوات الطفولة المبكرة، مشاعر حنان سريّة لا يشعر بها سوانا، وكانت هذه المشاعر سرعان ما تتبدّد بمجرد دخول "موشكا" إلى الغرفة، لأنها كانت من النوع المتحفّظ الذي لا يجْهر بمشاعره، يضاف إلى ذلك أن أبي كان يتمنّى أن يُرزق بابنة صغيرة، تؤنِس أوقاته بعد إنجاب خمسة ذكور، في حين كانت أمي ترغب في إكمال العدد ليصل إلى نصف دزينة ذكور!

من بين ما عثرتُ عليه من خطابات أبي إلى أمي لما كانت تصحبنا إلى الخارج في العطلات الصيفية، رسالة تقول: "ابعثي بقبلة مِني إلى طفلتنا الصغيرة"، ورسالة ثانية تقول: أمَا تزال طفلتنا تتذكّر "بابا العجوز؟".

ها هو شريط الذكريات يجتاح ذهني بعنف.

بعد مرور بضع سنوات لما بدأت أشعر بما يُسمّى بآلام النموّ عانيت مشكلات في المشي. وكنوع من المواساة والدعم النفسي أهدِيَ إليّ زوجان من الأحذية المصنوعة من الجلد الأحمر الناعم الموشّى بشراشيب ذهبية، وحُمِلت لأستقرّ بسعادة بين ذراعي أبي، إلا أني لم أكن أدرك أن مسار

الحكاية سينقلب إلى الأسوأ، في هذه اللحظة لم أنتبه من فوري أن الآلام قد زالت عني، لكني أدركت أن ذلك الأب الحنون نفسه، حازم الطبع، كان يحمل تحت إبطه عصا تأديب صغيرة بحجم قبضة اليد من خشب البتولا.

أتذكّر الآن تمشياتنا الطويلة في أيام الشتاء الصافية. ولما كانت أمي من النساء التي لا تحبّ عقد ذراعها بذراع زوجها، علمني أبي هذه الحركة الجميلة، فكنتُ أمشي قافزة محاولة أن أواكب خطواته الطويلة الهادئة. وفي مرة أخرى صادفنا أحد المتسوّلين الروس الذين كانت تزدحم بهم الشوارع، وكنت أحمل قطعة فضية قيمتها عشرة كوبيك، مُنحتها لأتعلّم كيفية التعامل مع النقود، فأردت إعطاءها للمتسوّل. إلا أن أبي فهّمني أن الأمور لا تُدار على هذا النحو، وأنه يكفي المرءَ إعطاء نصف ما يملك للمحتاجين، وعلّمني أن هذه الصدقة تذهب إلى إخوتنا من البشر، ومن ثمّ ينبغي ألا تقل عنها قيمة، بمعنى أنه لا ينبغي أبدًا أن أمنح مستقبلًا قطعة نقدية من النحاس مثلًا، بل أن أعطي مِن مثل ما أملك، فأعطاني قطعتين نقديتين فضيتيْن، كل واحدة بقيمة خمسة كوبيك.

هأنذا أرى أن علاقتي بوالدَي كانت تفتقر إلى العاطفية المفرطة كما كان الحال عند غيري من الأطفال، سواء في لحظات الحب والحنان أم في أوج لحظات الخلاف. فسيّان حالة الرفض وحالة الموافقة، كانت ثمة حدود بعينها تكفل لي مساحة معقولة من "الحرية".

لكني أسأت استغلال هذه "الحريّة" أيام المدرسة، لأني عندما شكوت ضعف مستواي في اللغة الروسية التي صارت إجبارية في كل المواد الدراسية آنذاك (علمًا بأننا اعتدنا التحدّث بالألمانية والإنجليزية فقط داخل المنزل)، باغتني أبي بضحكة مؤكدًا: "لن يجدي معها الإجبار على

الذهاب إلى المدرسة". ولا أدري من أين عرف أبي انحيازي الفطري إلى هذه الفكرة.

وأعتقد أيضًا أن هذه الحرية هي التي كفلت لأشقائي الذكور حتى في مرحلة النضج، مَـدَّ جسور الثقة وإشاعة جوّ الدفء في علاقتهم بِوالدَي. أما في حالتي فقد أتاحتْ لي مساحة الحرية المكفولة شكلًا من أشكال الصمت الدائم، أقصد أنها سمحتْ لي بلزوم العزلة التامّة حتى وأنا مغمورة بمشاعر الثقة من أبي وأمي.

وخير مثال على ذلك حادثة بسيطة وقعت لي في مرحلة مبكّرة لا أستطيع تذكرها بدقّة مع الأسف، كل ما أذكره أني كنت ما أزال طفلة حديثة الالتحاق بالمدرسة، وهو ما يعني في روسيا أني كنت في الثامنة تقريبًا. كان كلبُنا "يمكا"، وهو من فصيلة "شنتاوتسر" قد أصيبَ بالسُّعار. في تلك المدة كانت الكلاب المسعورة تملأ شوارعنا (سواء في الصيف القائظ أم مع انخفاض درجة الحرارة)، وكانت تنقل عدوى السُّعار إلى الحيوانات المنزلية عن طريق عضّها.

ولما كان الموضوع جديدًا بالنسبة إلينا لم نتنبّه على الفور لحقيقة الأمر. وعندما عقرني كلبي الحبيب في رسغي وقد كنت بصدد مغادرة المنزل إلى المدرسة، وضعتُ ضمادة فوق الجُرح ولم يثر الأمر غضبي. وحالما عدت إلى المنزل وجدتُّ أن الكلب قد اختفى.

كان هياج السُّعار قد استبدّ بالكلب فنقلوه بعيدًا إلى منشأة لمتابعة الكلاب المسعورة، ثم قُتل رميًا بالرصاص قبل حلول المساء. قبل نقله من المنزل كان "يمكا" قد عَقَر منظفة منزلنا، وقال الطبيب: إنه ليس في مقدوره أن يفعل شيئًا حيال الأمر بسبب مرور عدة ساعات على واقعة العَقْر (وفق التصوّر الشائع آنذاك).

في غمرة مشاعر الذعر مما جرى دهمتني فكرة بشعة وهي أنه لا بد أني صِرتُ محطّ أنظار عائلتي بسبب خشيتهم من أن السُّعار قد تمكّن مني، وأنني قد أعقرُ أشقائي الذكور عند أدنى بادرة مشاجرة بيننا، فغشيت المنزل حالة من الخوف المكتوم.

كان من بين الأعراض التي سمعتُ عنها متلازمة السعار وحساسية الماء، ومن حينها خشيتُ ملامسة الماء وغسل أسناني بالفرشاة صباحًا على مدار عدة أيام (ولحسن حظي لم أكن أعلم أن ذلك يصدق أيضًا على شرب الشاي واللبن!). وكان من بين ما سمعته أيضًا أن الكلاب المسعورة تعقر أصحابها أولًا. ولم أنس قط الذعر الهائل الذي انتابني من شعور مهدِّد بأني مسعورة، و قد أعقر "*بابا*" الآن.

أظنّ أن معنى ذلك أني كنت أحبّه أكثر من أي شيء، ولم أكن واعية لأنني كنت أحبّه أكثر من حبي لأمي. ثمة ذكرى أخرى عائدة إلى مرحلة مبكرة من طفولتي تثبت إلى أي حدّ يلعب الوعي دورًا مؤثرًا في مثل هذه الأمور؛ في أيام الصيف كان يُسمح لي مرات عديدة بالذهاب مع أمي إلى المسبح العمومي المطل على شاطئ البحر، نستقل عربتنا التي يجرها حصان واحد، ثم عبر نافذة صغيرة في الكابينة التي نستأجرها كنتُ أراقبها وهي تغوص وتطفو في المسبح، أذكر أني هتفتُ بها مرة قائلة: "من فضلكِ اغرقي مرة واحدة فقط!"، فأجابت أمي ضاحكة: "آه يا بنت! لكني لو غرقت مرة واحدة فسأموت في التو".

فما كان مني إلا أن أجبتُها صائحة بأقوى ما يمكن بالروسية قائلة: *Nitschew* (وما الضير؟).

لكن في أعماق قلبي لم أكن أفرّق بين أحد من والدَي. ولما كان أبي يعامل أمّنا بأشد قدر من المروءة والاحترام أمامنا، كنت أضمر لها نفس القدر من الاحترام. ولشدّما كانت دهشتي عندما صرت فتاة نصف ناضجة، وأدركتُ أن احترامي هذا لم يكن شيئًا بدهيًا.

أصل الحكاية كالتالي: في مرة ضاع مفتاح أحد الأبواب وجاء أشقائي للمساعدة في فتحه، لكني كنت قد نجحتُ بالفعل من دون استعمال أداة مساعدة، ولما حكيت لأمي عن انتصاري سألتني: "وبِماذا فتحتِ الباب؟"، أجبتُها: "فتحتُه بأصابعي"، لكنني سرعان ما لمحت امتقاع لون وجهها إذ قالت: "ما كنتُ لأجرؤ يومًا على أن أجيب أمي بمثل هذا الردّ أبدًا! أعرف بالطبع أنكِ لم تفتحي الباب بقدميكِ!".

بقيتُ أحملق في الفراغ مدهوشة، فاغرة فمي وأطرافي متيبسة حتى إني كنت عاجزة عن توضيح مقصد كلامي. كان أبي وأمي يفهم بعضهما بعضًا بلا كلمة برغم الاختلاف العميق بينهما (باستثناء حدّة المزاج وقوة الإيمان، التي كانت قاسمًا مشتركًا بينهما)، وكانت تجمعهما أواصر علاقة حب ووفاء عميقة ومتبادلة إلى أبعد الحدود. يضاف إلى ذلك عنصر جوهري آخر طبع علاقتهما، وهو أنهما، بطواعية تامة، حَرَصا طَوال حياتيهما على تجاوز أسباب الخلاف والتحيزات الشخصية، لا انطلاقًا من دافع أخلاقي، بل من رغبة داخلية في عدم الوقوع في فخّ وجهات النظر المتحيزة (كان والدَاي يخلوان من صفتين بعينهما: الغطرسة وجُبن الأخلاق).

وكان معنى ذلك بالنسبة إلى أمي، بسبب طبيعة شخصيتها المستقلة القوية، الانغماس الطوعي في دور الزوجة والأم من دون تكلّف، من حيث كونه الدور الذي شرَّفها الربُّ به. ومن ثم كانت أمي تنتظر من

الجميع أن يتعاملوا بمثل القدر من الرزانة وضبط النفس الذي ألزمت به نفسها، لكن ذلك لم يمنع من أن عروقها لم تخلُ من دماء حارة قابلة للانفجار في أية لحظة.

اضطرّت أمي وهي فتاة يافعة أن تحمل على كاهلها عبء العناية بشؤون عائلة كبيرة بعد وفاة جدّتها كي لا تقع إدارة البيت تحت سيطرة شقيقة زوجة أبيها المتسلّطة.

بدهشة بالغة ما تزال ذاكرتي تحتفظُ بصورة غائمة لرحلاتنا الصيفية إلى سويسرا. أرى صورتها أمامي الآن واقفة في الردهة أمام باب غرفتنا تراقب بإعجاب بالغ مشاجرة نشبتْ في بهو الفندق بين رجلين يتقاتلان بالسكاكين. لم تكن أمي قويّة من الناحية الجسدية فقط، بل أحسبُ أنها كانت أميل، بحكم طبيعتها الشخصية، إلى حلّ الأمور بالعنف والقوة بدلًا من تسويتها بالطرق السلمية.

وعندما اندلعت ثورة سنة 1905، وكانت أمي قد ناهزت الثمانين، وجدنا من الصعوبة ثنيها عن النزول إلى الشوارع المشتعلة بنيران الرصاص، وكانت الخادمتان الشابتان المخلصتان تحاولان منعها بالقوة من النزول. كان من حسن حظ أمي، التي عاشت بعد رحيل أبي أربعة عقود، ألا تشهد اندلاع ثورة أكتوبر [البلشفية]، التي اضطرَّتْ أُسَرَ أشقائي إلى أن تذوق شتّى صنوف المعاناة والأذى على مدار سنوات الثورة والحرب الأهلية. وكان من الصعوبة وصول الخطابات إلى ألمانيا بصفة منتظمة.

وعندما عاد أخي الثاني "روبرت" من شبه جزيرة القرم بعد دفن ابنه الأصغر متأثرًا بجراحه في الحرب، وجد أن الثورة لم تكتف بتجريده من وظيفته وبيته وأملاكه، بل إنهم منحوا خادمَه منزلًا صغيرًا كان في الأصل

مملوكًا لأخي في العاصمة الروسية، حيث اعتاد قضاء عطلة الصيف، بكل ملحقاته من حقل وغيره. ومَنَح الخادمُ شقيقي وأسرته غرفة صغيرة فوق سطح المنزل، فضلًا على وجبة غذاء مكوّنة من حساء الكرنب، هذا لو ساعده شقيقي في فلاحة الأرض. وفي أثناء النهار كان شقيقي بمساعدة أحفاده الصغار يجمعون الفُطر وثمار التوت البري ليسدّوا رمقهم. أما زوجة أخي فلم تطق رؤية زوجة الفلاح ترتدي ثيابها ولا رؤية نظرة الفرحة البلهاء المطلّة من عينيها.

وبرغم فظائع تلك الحقبة لم يكن أعظمها ولا أكثرها هولًا تلك الأخبار الموجزة التي هي أشبه بالندف، والواردة في الخطابات القادمة من هنا وهناك، بل كان أشدّها فظاعة هي العواقب الوخيمة التي تمخضت عنها الثورة نفسها، وهي العواقب التي امتدّ أثرها ليشمل طبيعة الشعب نفسه.

لم تكن المسألة أن أخي احتفظَ بآرائه السياسية لنفسه (كان أخي على وشك الانضمام إلى الحزب الديمقراطي الدستوري[1])، لكنه كان عندما يحكي كيف كان يجلس إلى جوار خادمه السابق على مقعد واحد في المساء أمام باب المنزل، فيستريحان ويتأملان التغيرات الثورية الحاسمة التي يموج بها العالم، لم يكن الأمر مثل علاقة سيّد وخادم تبادلا الأدوار، فرفعت الدنيا واحدًا وخسفتْ بالثاني الأرض، بل بدا الأمر وكأن شخصًا ثالثًا كان يتحدث بالنيابة عنهما؛ شخصًا عايش هذا التحوّل. وربما كانت تركيبة هذا الفلاح تتسم بطابع روسي مميّز أسفر عن هذا الحوار، حيث يكتب أخي بمزيد من الإعجاب: "كم كان هذا الفلاح نابهًا وودودًا".

(1) ويُسمّى حزب "كاديت"، حزب سياسي تشكّل في أكتوبر سنة 1905 (المترجم).

وهو ما يدفعني إلى القول: إن الأمر لم يكن استسلامًا من جانب رجل (أخي) وانبعاثًا مفاجئًا للوعي عند الرجل الثاني (الخادم)، بل كل الحكاية أنّ كليهما وجد نفسه على حافَة تغيير جذري هائل عصف بالعالَم كلّه، كما لو أنهما انتُزِعا من عالميهما، وأُعيدَ تشكيلهما في صورة أبسط وأكثر تجريدية فرضها الوضع القائم. برغم تلك الظروف فإن أكثر ما بدا مؤثرًا هو توطّد الأواصر بين أفراد الأسرة في اللحظة التي بدت تلك الروابط الأسرية وكأنها على وشك الانفصام بالمعنى الاجتماعي.

حيث لم تجبر المحنة أفرادَ الأسرة على التآزر فيما بينهم فقط كما لو كانوا فوق جزيرة صغيرة تواجه ريحًا عاتية، وإن لم يمنع ذلك من نشوب خلافات مردّها تباين الرغبات الشخصية والأهداف. أقول: لا؛ لم يقتصر الأمر على ذلك وحسب؛ بل برزت الأهمية النفسية للروابط العائلية، أهمية الفرحة والدفء الأسري القادرة على التخفيف من معاناة أفراد العائلة ودعمهم نفسيًّا. ازدهر تأثير الشعر القديم البعيد عن الموضوعية، ودبّت فيه الروح بقوّة جديدة نابضة بالحياة. وقابل ذلك على الصعيد الآخر فورة مضطرمة في أوساط الشباب المشتعل بروح الحماسة والرغبة العارمة في تجربة وسائل العنف الوحشي.

وكان من حسن حظ أمنا الطاعنة في السن أنها لم يُكتب لها العيش لترى وفاة ابنها الأكبر، الذي كان مستشارها وراعيها، إذ وافته المنية بعد مدة وجيزة من اندلاع ثورة أكتوبر إثر أزمة قلبية، إذ مات وسط معاناة مؤلمة بشكل لا يُوصف من عواقب ما ستؤول إليه الأمور.

وهكذا عاشت أمنا وحيدة وسعيدة في آن واحد، لكن أولادها وأحفادها ما برحوا يترددّون إليها. لكن أكثر ما نغّص عيشتها أنَّ أولادها وهي في هذه السن المتقدّمة، قد حاصروها بجليسة مقيمة لرعايتها،

وكانت إحدى قريباتها. صحيح أنها كانت تحبّها، ولكن ليس أكثر من حبّها للحرية ورغبتها في فعل ما يحلو لها.

وبرغم استمتاعها بالتفاف أولادها وأحفادها حولها، بقيت تؤثر حياة العزلة، وظلّت تشغل نفسها حتى آخر لحظة من حياتها. وحتى فيما يخص الكتب المفضلة، لم تكن تُلقي بالًا إلى ترشيحات الآخرين، وكانت ملحمة "الإلياذة" واحدة من الأعمال المتأخّرة التي كانت تفضل قراءتها ولا تفارق يدها.

عندما أتحدث عن سنوات حياتها ما بين الثمانين والتسعين لا يسعني إلا التفكير في الانتصار والانكسار العظيمين اللذين كشفتْ لي عنهما في إحدى زياراتي لمنزلها. سأروي لكم بالتفصيل.

بدافع من رغبة إيمانية عميقة مخلِصة رأتْ أمي أنّه بات لزامًا عليها أن تمحق وجود الشيطان من حياة عائلتها إلى الأبد قبل أن يوافيها الأجل. ولما عارضتُّ كلامها في ذهول بقولي: وماذا لو أنها محقَتِ الله أيضًا وهي تحاول محَقَ الشيطان، لأن مسألة وجود الشيطان وعدمه بيد الله وحده، أجابت بنبرة مطمئنة: "أنتِ لا تفهمين حقيقة الأمر، لن يضرّ الله شيئًا، لقد تحدّثتُ إلى الله على مدار سنوات عديدة، الله باقٍ، وبالطبع هو القادر على إهلاك الشيطان".

لم تنكر أمي سبب الصحوة المفاجئة التي ضربَتها وهي في هذه السنّ المتأخرة، فأوضحَت أن مردّها الألم الذي كان يعتصر قلبها وهي ترى أبناءها يسقطون واحدًا تلو الآخر في قبضة الإلحاد وأسر الشيطان، حتى لو كان أبناؤها قد اعتادوا – في حركة مجاملة نبيلة – المشاركة في الشعائر الدينية، لا لشيء إلا لإرضاء خاطر زوجاتهم وخاطر "*ماما موشكا*".

وطَوال هذه المدة حافظت أمّي على ثباتها الانفعالي ولم تُقدِم على أية خطوة من شأنها أن تزرع بداخلها بذور الانقسام الروحي، فكانت تتبع صوت قلبها الداخلي، الذي كان يطلب منها إنعام التفكير في التفاصيل الدقيقة وتوخي الحرص في التعامل مع الظروف الراهنة.

وتحضرني هنا ذكرى أخرى متصلة بقدرة أمي على الحفاظ على سلامها الداخلي: أتذكّر كيف كانت تجلس إلى مائدة الإفطار صباحًا وعيناها الزرقاوان تشعّان بابتسامة جذلة، فنظنّ أنها تسخر منا، ثم يتبيّن لنا أنها تستكمل الضحك من حُلم عذب رأته البارحة.

بعدها صرنا نتندَّر على هذه الواقعة ونقول: إن "موشكا" لو مرَّ بها نهارٌ ممل (وهو ما لا يَصْدق في حالتها، لأن أيامها كلها كانت خالية من الملل)، كانت تكسر جمود اليوم بأحلام ليلة مسلية.

وفي سنواتها الأخيرة قبل الوفاة وبعد إصابتها بالصمم كانت تستمتع بزيارة صديقاتها اللواتي كن يعانين ثِقل السمع أيضًا، وتستأنس بالحديث إليهنّ. كانت أمي تضحك من أعماقها عندما تروي كيف أنّ جميع صديقاتها - وهي أيضًا - لم يكنّ يسمعنَ شيئًا من كلام الأخريات، وبرغم ذلك لم تسمح واحدة منهنّ للأخريات بمقاطعة حديثها.

إلى جانب عادة القراءة كان أكثر ما يجذبها مراقبة الطبيعة، وكانت تسعد أيما سعادة بقدوم فصل الصيف، وفي أواخر فصل الخريف كانت تعتاد الوقوف أمام النافذة تناجي الكائنات الماثلة أمامها، تناجي الأشجار المتراصة على جانب الشارع، أو تراقب اختلاف الليل والنهار.

كانت غرفة معيشتها عامرة بالنباتات الطويلة المورقة التي كانت توليها جلّ عنايتها، لكنها كانت تنفر من الحيوانات المنزلية. وفي فترة

الشيخوخة صارت أملاكها وأغراضها عبئًا ثقيلًا على كاهلها تريد التخلّص منه، كما لو أنّ هذه الأغراض تسلبها عـزلتها.

وكما هو حالها مع كل شيء كانت تولي عناية فائقة لكل شيء تملكه أو يخصّها، لكنها كانت تسعد أيضًا بأن تُهدِي إلينا أو إلى معارفنا شيئًا من مقتنياتها. لكننا لاحظنا مع مرور الوقت ضرورة أن نهدي إليها بعض المقتنيات أو الأغراض لكيلا يفرغ المنزل تمامًا. بدَتْ لي أمي في بعض الأوقات مثل إنسان ينشد تحرير نفسه أو ينشد الهروب من نفسه، أو بدَتْ كأنها - إن جاز لي التعبير - كانت تمهّد العشَّ وتفرشه لمن سيأتون من بعدها. بل إني كنت أشعر أحيانًا أنّ موقفها ينمُّ عن شيء وثيق الصلة بموقفها من الحياة والموت؛ فعِوضًا عن إحساسها بخطفة الموت القريبة، داخَلَها شعور قوي بالاستغناء، عندما صارت على وشك التخلّي عن كل شيء.

والحقيقة أني لا أستطيع الكلام عن أمّي من دون الإشادة بكل ما فعلته لأجلي برغم معارضتها الصريحة لطريقة حياتي كفتاة شابة خارج البلاد، فضلًا على طريقة تفكيري التي كانت تنكرها عليَّ أشدّ ما يكون الإنكار. صحيح أني حاولت أن أصير فتاة مثالية في نظرها بعدما خيّبتُ أملها لكوني وُلِدتُّ أنثى، لا ذكرًا كما كانت ترغب، لكني خيّبتُ ظنّها فيَّ كأنثى أيضًا.

بل حتى في ذروة تألّمها بسبب خرق كل العادات والتقاليد المجتمعية السائدة آنذاك، كانت "موشكا" تتعامل مع الموقف تعاملًا لا يخلو من حكمة وحِلم، فوقفت بقوّة إلى جانبي في مواجهة العالم كله. اتخذت أمي موقف امرأة مملوءة بالثقة مثلما كانت مملوءة بالحزن والأسى. فخلقَتِ انطباعًا مفاده أننا على توافق تام، وكان هذا هو بيت القصيد عندها لتجنّب التفسيرات العدائية الناجمة عن سوء الفهم ضدّي. ولم أتنبّه لتلك

الحقيقة بشكل واضح وأنا أستمتع بأجمل سنوات شبابي خارج البلاد، كنت بالكاد أستشعر مشاعرها الأمومية الحانية التي كانت تغمرني بهدوء، ولم أفكّر إلا في توبيخها ومعارضتها العنيفة "السريّة بالطبع" التي لا تلين لأسلوب حياتي وطريقة تفكيري. كنت فتاة مفرطة الغرور، مسرفة في التمركز حول ذاتي، فلم يساورني شعور بالندم ولا حنين إلى الوطن. ولما كانت أمّي تُلمح تلميحًا خفيفًا في رسائلها إلى أنها تتمنّى أن تراني سعيدةً في ظلّ رجل، كنت أجيبها بنبرة مشرقة بأني أفضّل أن أكون في ظلّ "باول ريه"[1].

إلا أننا لم نناقش كل ذلك مناقشة تفصيلية إلا بعد زواجي وبعد قيام أمي بزيارة طويلة لمسكن الزوجية. صُعِقت عندما ألقيت نظرة على رأسها، فرحت أسأل في نفسي، مسكونة بفكرة بالية: "هل ابيضَّ شعر أمي من تحت رأسي؟" هزّني الموقف من الأعماق، وطار قلبي من الفرحة الممزوجة بالحب والتوقير المتبادلين، وتجسد كل ذلك في اللحظة السعيدة التي جمعتنا وجهًا لوجه.

أخبَرَني شخص كنت قد حكيت له هذه الواقعة، فثارت ثائرته لما أنهيت حكايتي قائلًا: "أشَعرتِ بالسعادة بدلًا من أن يملأكِ شعور بتأنيب الضمير والحنين إلى الوطن مثلما يُفترض عليك؟ أليس هذا لونًا من ألوان الجنون الأخلاقي[2]؟".

---

(1) باول ريه: كاتب ألماني، كان الضلع الثالث في علاقة لو سالومي ونيتشه، وسيرد ذكره في فصل منفرد لاحقًا (المترجم).

(2) وردت بالإنجليزية في الأصل *Moral insanity*، ويشير المصطلح إلى نوع من أنواع الاضطراب العقلي الذي يتضمن عواطف وسلوكيات شاذة برغم عدم وجود قصور فكري أو هلوسات (المترجم).

والحقيقة أن هذه الواقعة هي أبلغ دليل على طبيعة التناقضات الصريحة بين شخصيتي وشخصية أمي؛ إذ كانت أمي تتصرّف دائمًا بوازع أخلاقي مردّه الرغبة في أن تؤدي واجباتها الأسرية على أكمل وجه، وأن تجود بنفسها في سبيل سعادة الآخرين، مدفوعة بروح بطولية تطبع شخصيتها، وربما كانت هذه هي خصلتها الذكورية المميزة بعد أن اصطبغتْ بصبغةٍ أنثوية رقيقة. أما أنا فكنت أبعد الناس عن النضال لنيل شيء أو الصراع ضدّ شيء، ولو كان ضدّ نفسي، فكل الأشياء التي رغبت فيها أو انتظرت حدوثها، لم أنافس أحدًا قطّ للحصول عليها. وكانت الأمنيات حينما تتحقّق أستقبلها بمزاجٍ أقرب إلى الزهد أو عدم الاكتراث، كانت الأشياء تغشى حياتي البرّانية والجوّانية فتمتزج بها امتزاجًا، ولم تراودني يومًا فكرة النضال لأجل الحصول عليها، كنت أسرق لحظات الحياة الحقيقية، ربما ينطق بيت الشعر التالي بلسان حالي: "**صدّقني: لن يمنحكَ العالم ما تحلُم به أبدًا، لو أردتَّ حياة حقيقية فاسرقها**[1]".

طالما اعتقدت أن أجمل الأشياء في الحياة وأعظمها قيمة هي الأشياء التي تُهدى إلينا ولا فضل لنا في اكتسابها، لأن الأشياء المُهداة عندما تأتينا تجلب معها هدية ثانية: شعورنا بالامتنان. ولا شكّ أن هذا ميزة كوني قد أتيتُ إلى الدنيا امرأة، لا رجلًا، برغم ما يوحي به مظهري الخارجي من سمات النضال والمعافرة مع الحياة.

وهنا أودّ أن أعرب عن عميق امتناني لوالدَي؛ فلولا مشاعر الحب والثقة التي غمراني بها والجوّ العائلي المحيط، ما كانت لتزدهر بداخلي بذرة الثقة بالذات ازدهارًا كاملًا، مثلها كمثل الإيمان الذي يُوهب للإنسان. ولأن لسان التجربة أصدق، فثمة حكاية صغيرة من حياتي اللاحقة

---

(1) الاقتباس للشاعر الألماني جيورج فريدريش داومر (1800 - 1875) (المترجم).

تبرهن إلى أي حد تضرب هذه الأشياء بجذورها في نفس الإنسان، حتى في أكثر سنوات حياته نضجًا وتحليًا بالرزانة والعقل.

في صباح أحد الأيام كنت أجُول في الغابة فعثرت بمحض المصادفة على زهرة "كفّ الذئب" الزرقاء، كنت أنوي قطف بعضٍ منها لأهديها إلى صديق مريض، لكني كنت أقلِّبُ بعض الأمور في ذهني، فقررتُ ألا أنشغل عن أفكاري بجمع الزهور.

وعندما هممت بالمغادرة عائدة إلى المنزل صُعقت لما رأيتني قابضةً على طاقة من زهور كفّ الذئب. العجيب أني ما زلت أذكر كيف أني كنت أشيح ببصري عن الأرض لأتجنّب قطف الزهور، كان من المفترض أن أعدّ ما حدث معجزة، لكني لم أعدّها كذلك، ولم أضحك من حالة الشرود الذهني المفرطة التي تملّكتني، كان ردّ فعلي هو أني قلت بفرحة عارمة: "شكرًا".

إبان مدة إقامتي بالخارج اعتدت زيارة أمّي كل سنة مرة، ولو طالت الغيبة كنت أزورها كل سنة ونصف. ما تزال ذكرى آخر وداع بيننا قبل مدة وجيزة من وفاتها حيّة نابضة في ذهني.

كان القطار يبدأ رحلته من "بطرسبيرج" ليتجه إلى الجزء الشمالي من "فنلندا"، ثم أواصل الرحلة بعدها بالباخرة إلى "إستوكهولم". ولما كان القطار سينطلق في وقت مبكّر للغاية من هذا اليوم ودَّعتها عشية السفر. وبينما كنت أتسلل بهدوء قدر الإمكان قاطعةً الردهة في فجر هذا اليوم، رأيتُ أمّي واقفةً أمامي حافية القدمين، في ثوب نوم طويل، ورأيت شعرها ناصع البياض مجعدًا مثل شعر الأطفال، ثم لمحتُ من تحت خصلات شعرها عينيها الزرقاوين النافذتيْن تحدّقان على اتساعهما. عينان الأجدر بك ألا تنظر إليهما لو كنتَ سيّئ النيّة. كانت هيئتها كمن استُدعي من عالم الأحلام، بل هي نفسها كانت أقرب إلى حُلم.

لم تنبس بكلمة. عانقَتني، كانت في مثل طولي، وبرغم أن حجم جسدها قد انكمش قليلًا في سنوات شيخوختها، كانت ما تزال رشيقة القوام، منتصبة العود، فضمّتني إلى جسدها النحيل ضمّة رقيقة حانية.

ولكن متى سبق أن تصرفت أمي على هذا النحو؟ بدا الأمر وكأنها أخرجت هذه اللفتة الحانية من قبو سري بداخلها لتُظهرها في هذه اللحظة، أو كأن سنوات عُمرها الأخيرة أنضجَتْ هذا السلوك العطوف في الخفاء كثمرة حُلوة نضجت وطابت تحت أشعة الشمس حتى حان وقت قطافها. وربما أحسَّ كلانا بالشعور نفسه، ففي اللحظة التي غمرتنا فيها مشاعر العطف والحنان، دهمتنا الخاطرة نفسها، والألم نفسه ووخزة القلب نفسها.

"آه.. لماذا في اللحظة الأخيرة وليس قبل ذلك؟"

كانت المعانقة هي آخر هدايا الحياة التي أهدتها إليّ.. العزيزة "موشكا".

الفصل الرابع

تجربتي في روسيا

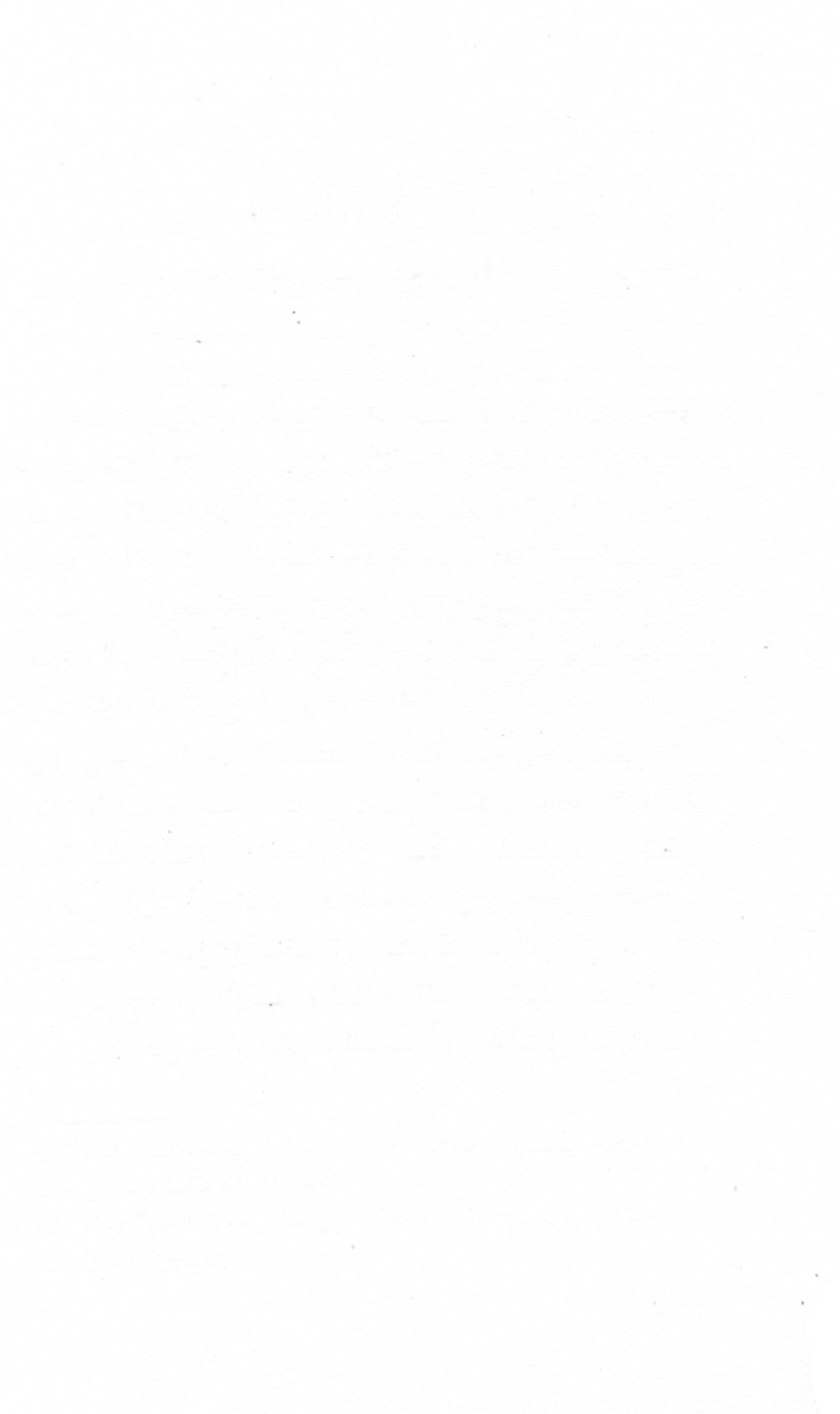
من جهة الأب تجري في عروقنا دماء فرنسية/ ألمانية/ بلطيقية. نحن ننتمي إلى طائفة "الهوغونوتيون"[1] الذين استوطنوا مدينة "أفينون" الفرنسية. وأغلب الظن أن أسلافي وصلوا إلى منطقة البلطيق عبر ألمانيا بعد اندلاع الثورة الفرنسية، بعد بقائهم في مدينة "ستراسبورج" بضع سنوات. وفي منطقة البلطيق كانوا جزءًا مما يسمى جماعة "فرساي الصغيرة"، التي عاشت في بلدة "ميتاو"[2] وبلدة "فينتسبيلس". سمعتُ حكايات كثيرة عن تاريخ أسلافي في مرحلة الطفولة.

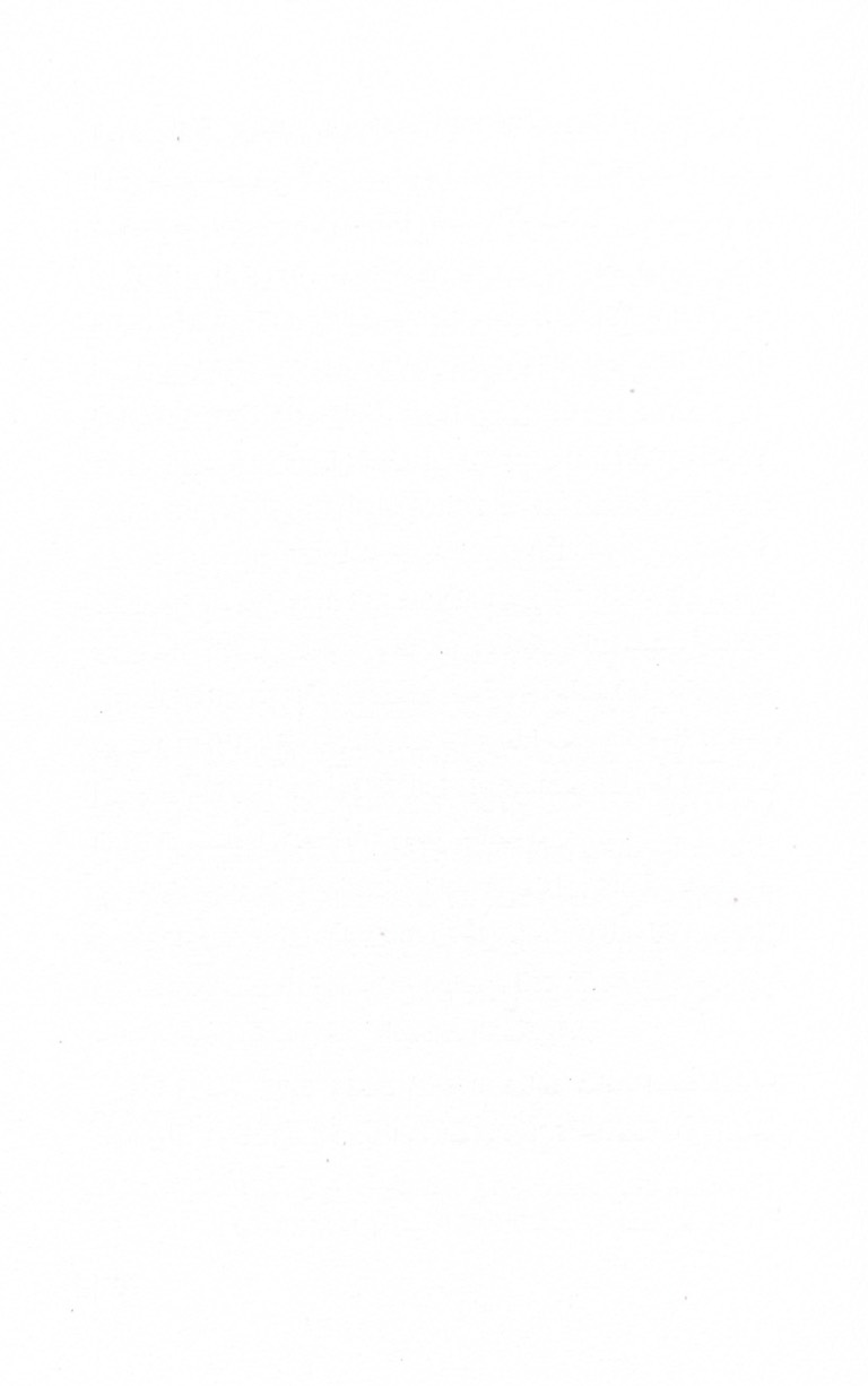
في زمن حُكم القيصر "ألكسندر الأول" أُرسِل أبي وهو صبي يافع إلى مدينة سانت بطرسبيرج لتلقّي التعليم العسكري. وبعد الانتفاضة البولندية سنة 1830، لأنه أبلى بلاءً حسنًا في الميدان، قلَّدَ القيصرُ "نيكولاس الأول" أبي، الذي كان قد وصل إلى رتبة عقيد في الجيش، وسامَ النبالة الروسي، ليضاف إلى وسام الشرف الفرنسي. ما أزال أتذكّر بوضوح دفتر الأوسمة والنياشين الممهور بكلمات الشرف من القيصر، في الأعلى وسام الشرف الفرنسي، وفي الأسفل شعار النبالة

---

(1) جماعة دينية فرنسية، تنتمي إلى كنيسة فرنسا الإصلاحية البروتستانتية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر (المترجم).

(2) تُسمّى اليوم "يلجافا"، وهي بلدة في دولة "لاتفيا"، وكانت تُسمّى بهذا الاسم حتى سنة 1917 (المترجم).





الروسي الموشّى بخطين بلون الذهب المائل للحُمرة، كما أذكر "البروش" الذي صُنع خصيصًى لأمي بمرسوم قيصري، مُصَمَّمًا على شكل سيف شرف ذهبي، يحمل صورة دقيقة لجميع الأوسمة التي مُنحت لأبي.

أما أمي المولودة في مدينة "سان بطرسبيرج"، فأصلها من مدينة هامبورج شمالي ألمانيا، وكانت عائلتها - من ناحية الأم - تنحدر من أصول دانماركية. كان اسم عائلتها "فيلم"، وكان اسم عائلة أسلافها الدانمارك "*Duve*" (أي حمامة).

من الصعوبة بمكان أن أحدّد أي لغة كانت لغتنا الأولى ونحن في روسيا، لكني على أي حال أقول: إن اللغة الروسية السائدة بين الطبقات الشعبية، قد توارَت قليلًا أمام هيمنة اللغتين الألمانية والفرنسية. أما في حالتنا على وجه التحديد فكانت الألمانية هي لغة الكلام اليومي، إذ كانت حلقة الوصل بيننا وبين وطن أمي، ولم يكن ذلك بسبب أصدقائنا وأقاربنا في ألمانيا، بل لأنها كانت تمثّل بحقّ رحمًا ماسّة (على عكس كثير من معارفنا الألمان في سان بطرسبيرج) تربطنا بـمن يتكلمون الألمانية، أكثر مما تربطنا بسياسة الدولة الألمانية. لم نكن نشعر أننا رعايا في خدمة الدولة الروسية، بل شعرنا بأننا روس خالصون.

نشأتُ محاطة بالبزّات العسكرية من كل مكان. كان أبي يحمل رتبة لواء في الجيش، وفي أثناء الخدمة المدنية عُيّن مستشارًا للدولة، ومستشارًا في الديوان، ومستشارًا في المجلس الخاص، لكنه بقي محتفظًا حتى نهاية حياته بمنصبه ومكتبه في مبنى القيادات العسكرية.

وأنا في نحو الثامنة وقعت في غرام ضابط شاب اسمه البارون "فريدريك" (وكان وسيمًا شديد الوسامة)، عَمِلَ كأحد مساعدي القيصر

"ألكسندر الثاني"، ثم لاحقًا رئيسًا للديوان، وقد عمَّر طويلًا حتى شهد سقوط روسيا القيصرية واندلاع ثورة أكتوبر.

لم تتجاوز علاقتي بالضابط الشاب الواقعة التالية: في مرّة كنت أتزلّج فوق السطح الواسع في مبنى القيادات العسكرية حيث يعمل أبي، وأحسستُ بخطوات الشاب الوسيم خلفي، حتى زلَّت قدمي وسقطتُّ فوق الأرض المصقولة، وسقط الضابط الشاب كذلك بدوره. جمعتنا لحظة مباغتة اقترب فيها أحدنا من الآخر بشدّة، إذ كنا جالسيْن أمام المدخل فوق الأرض وجهًا لوجه، يحدّق بعضنا إلى بعض في دهشة، تلوح منه ضحكة مشرقة، وتُشِلّ لساني فرحة مكتومة.

لكن هذه الذكريات المتصلة بالعالَم المحيط بي لم تكن روسية خالصة قياسًا بذكرياتي عن "مُرضعتي" و "المربية" (بالمناسبة كنت أنا الوحيدة التي رضعتْ من مرضعة أجنبية).

كانت مرضعتي امرأة رقيقة، لطيفة المعشر (أنعمَتْ عليها الكنيسة في وقت لاحق بتطويب[1] بسيط بعد أن قامت برحلة حجّ إلى القدس)، وهو ما أثار حفيظة أشقائي، لكن كنت أفخر بها على كل الأحوال. كانت المربّيات الروسيات (*Njankis*) يتمتعن بسمعة ممتازة فيما يخصّ قدرتهن اللامحدودة على منح مشاعر الأمومة الخالصة على نحو لا تستطيع الأمهات البيولوجيات القيام به (وإن كنَّ أقلَّ مهارة في تربية الأطفال). وكان من بينهنّ كثيرات من "الأقنان"[2].

---

(1) عملية من عدة مراحل لإعلان قداسة شخص ما يُختار بمعرفة بابا الكنيسة الكاثوليكية (المترجم).

(2) القنانة أو العبودية وضع اجتماعي لطبقة الفلاحين في ظل روسيا القيصرية، وكان القنّ يُجبر على العمل في حقول مُلاك الأراضي مقابل الحماية (المترجم).

ويا ليتكم تفهمون مصطلح "الأقنان" في سياق أكثر رقيًّا وتفهمًا إرضاءً لخاطرهم. أما بقية معاوني الخدمة في العائلات الروسية فكانوا مُهجّنين من أعراق غير روسية: فمثلًا كان العائلات الروسية يفضّلون الخادم المنحدر من عرق "تتري" للعمل كحوذي أو عامل عادي بسبب امتناعهم عن معاقرة الخمور، ثم يأتي بعدهم العمال "الإستونيون"[1].

كان الخَدمُ خليطًا من البروتيستانت والكاثوليك التابعين للكنيسة اليونانية والمحمديين [المسلمين]، فترى بعضهم يصلّون قِبَل المشرق وآخرين يصلون قِبَل المغرب، وترى تقويمات سنوية جديدة وقديمة لتحديد المناسبات الدينية ومواقيت الصلاة. كان أكثر ما يميّز منزلنا الريفي في بلدة "بيترهوف" هو إدارته من قبل جالية تنحدر من مقاطعة شفابن الألمانية، فتراهم يرتدون زيّ أهالي شفابن ويتكلمون لغتهم التي تركوها وراء ظهورهم منذ أمد بعيد.

لم تكن معرفتي قوية بأقاليم روسيا الداخلية، واستمرّ الأمر هكذا حتى سنحت لي فرصة زيارة شقيقي الثاني "روبرت"، الذي كان قد سافر إلى شرقي البلاد (بيرم، أوفا) في وقت مبكّر من حياته ليعمل مهندسًا، وهناك عرفت روح المجتمع الروسي الحقيقية.

بل حتى مدينة سان بطرسبيرج، وهي المدينة الجذابة الجامعة بين مزايا باريس وإستوكهولم، كانت تبدو مدينة ذات طابع أممي برغم مظاهر الأبهة القيصرية، والزلاجات الشهيرة التي تجرّها غزلان الرنّة، ومنازل الجليد المتلألئة في "نيفا"، وفصول الربيع المتأخرة، وفصول الصيف الحارّة.

---

(1) مجموعة عرقية تشبه الفنلنديين، تعيش مجموعة منهم في إستونيا والبقية في منطقة بحر البلطيق (المترجم).

حتى زملاء المدرسة كانوا ينحدرون من شتّى جنسيات الأرض، سواء في المدرسة الإنجليزية الصغيرة التي التحقت بها في البداية، أم في المدرسة الكبيرة التي التحقت بها فيما بعد ولم أتعلّم منها شيئًا. إلا أني أفدت من المدرسة عبر تكوين دائرة معارف واسعة ساعدتني على الارتباط بشكل جديد بروسيا، وأقصد بكلمة "جديد" على مستوى الفهم السياسي.

والسبب أن روح الثورة القادمة التي تجسّدت أول ما تجسّدتْ في حركة "نارودنكي" (الحركة الشعبوية الروسية)، كانت قد نشأت في المدارس بشكل خاص واختَمرت الأفكار الثورية فيها.

وكان من شبه المستحيل ألا يتأثّر أحد تشتعل بداخله جذوة الشباب والحيوية بهذه الروح الثورية، وبرغم علاقة والدَي بالقيصر (السابق) كانا يشعران بقلق بالغ إزاء النظام السياسي الحاكم، وعلى الأخص بعد انتكاس القيصر "ألكسندر الثاني" (ألكسندر المحرّر) بالقرارات الرجعية مرة ثانية بعد أن كان قد ألغى نظام الأقنان (أي أعتق الفلاحين) في السابق.

كنت بمعزل عن هذه الأحداث العاصفة بفضل التأثير القوي لصديقي وحبيبي الأول، الذي كان يشعر بالاغتراب التام داخل روسيا بسبب أصوله الهولندية، فأدى اغترابه إلى إضعاف صلتي بالقومية الروسية. أشار عليَّ صديقي بضرورة أن أتحرّر من الانغماس في عالم الخيال، وأن أضع نُصب عيني تكوين شخصيتي الفردية المستقلة، جنبًا إلى جنب مع التأكيد على تنمية مهاراتي الذهنية بشكل يتسم بالرصانة العاطفية.

واستجابة لنصيحته بقيت علامة تعلقي الوحيدة بعالم السياسة حبيسة أدراج مكتبي، أقصد صورة "فيرا ساسوليتش" *Wera Sassúlitsch*، التي عُدَّت أول إرهابية في تاريخ روسيا، بعد أن أطلقَت النار على عمدة المدينة (واسمه تريبوف)، وبعد قرار هيئة المحلّفين بإبراء ساحتها (كانت محاكم المحلّفين قد أنشئت للنظر في مثل هذه القضايا)، حُملت على الأعناق وسط الحشود المحتفية بها، لتهرب بعدها إلى سويسرا، وربما ما تزال هناك على قيد الحياة.

شهدتُ بداية مرحلة دراستي في زيوريخ اغتيال القيصر "ألكسندر الثاني" على يد أحد الفوضويين، كان ذلك في سنة 1881، وهو الحدث الذي هلَّل له واحتفل به الطُّلاب الروس آنذاك احتفالًا صاخبًا، والحقيقة أني في تلك المدة لم أتعرّف بشكل شخصي بأحد من الطالبات اللاتي كن يدرسن معي، وكان أغلبهنَّ يعتزمن دراسة الطب.

في البداية اعتقدت أن أغلبهن يستخدمن الدراسة كغطاء سياسي يسوّغ إقامتهن بالخارج، لأن روسيا كانت قد أتاحت بالفعل، ومنذ مدة طويلة، التحاق المرأة بالجامعة، بل أسّست جامعات خصيصًا للسيدات، مجهزة بأطقم كاملة من الأساتذة الجامعيين المتخصصين على سبيل المثال في حقلي الطب والجراحة. ثم اتضح لي لاحقًا أني كنت على خطأ. فهؤلاء السيدات ومن بينهنّ الشابات الصغيرات قدَّمْنَ في الماضي تضحيات هائلة لإنشاء مؤسسات جامعية لا تقلّ عن مستوى جامعات الرجال، بعد أن أغلِقَتْ مؤسّساتهنَّ الجامعية بالقوة، ثم أعيد فتحها مُجددًا، أقول: هؤلاء السيدات لم يكنّ يعرِفنَ في حياتهن شيئًا أكثر أهمية وجدّية من التحصيل الدراسي والرغبة في اكتساب المهارات العلمية في أقل مدة ممكنة.

ولم تكن غايتهنّ من وراء ذلك منافسة الرجال لنيلِ حقوقهنّ ولا تحقيق الطموح العلمي لتطوير المسار المهني، بل كنَّ ينشدن هدفًا واحدًا، ألا وهو تقديم يد العون والمساعدة إلى المحتاجين من أبناء الشعب الروسي الغارق في البؤس والقمع والجهل. وهكذا خرجت من قاعات الدروس والأكاديميات العلمية أفواج من الطبيبات و "القابلات"، والمعلّمات والعاملات في مجال الرعاية الاجتماعية، فضلًا على كاهنات *متعلِمنات* - إن جاز لي التعبير - في حشود هادرة قاصدة المناطق النائية الفقيرة، وأشدّ القرى انعزالًا وأولاها بالرعاية.

رأيتُ سيدات ينذرن حياتهنّ تمامًا لشيء متوافق مع دوافع الحب، بعد أن طالهنّ خطر الاعتقال والنفي والموت طوال حياتهن. حقيقة الأمر أن الاتجاه الثوري الذي كان مهيمنًا على الجنسين كليهما في روسيا (رجالًا ونساءً) عاملَ الشعب كما يعامل الأطفالُ آباءهم.

وبرغم أن الثوريين كانوا من أبناء الطبقة المتعلمة المستنيرة المنوط بها تعليم الشعب (كان أغلبهم من النخبة المثقفة أو "الأنتلجنسيا")، بقي الفلاح في نظرهم، بالمعنى الإنساني، نموذجًا يُحتذى برغم ما كان يتسم به الفلاحون من إغراق في الخرافات وإدمان الكحوليات وغلظة الطباع، وهو موقف نراه عند "تولستوي" مثلًا، الذي تعلّم من مجتمع الفلاحين مغزى الموت والحياة، وكان يعزو إليهم فضل فهمه لقيمة العمل وجوهر القداسة الدينية.

لكن هذا النوع من الحبّ قضى على كافة أشكال الواجب الأخلاقي وتهذّب الطِّباع، واختُزِلَت الحياة الروحية لكل فرد من أفراد الشعب في حالة مفرطة من البدائية، لا يقوى أحدٌ على الهروب منها تمامًا، مهما بلغ طموحه ومهما بلغت درجة نضجه.

في الأغلب الأعمّ مارست كل تلك الأمور تأثيرها القوي في الحياة الجنسية داخل روسيا، إذ خفّفَت نسبيًا من غلواء التوترات التي تفاقمتْ في أوروبا الغربية على مدار ألف سنة حتى وصلت إلى درجة من الشهوة الشبقية المتطرفة (لم أرَ موضوع الإيروتيكية بهذا الشكل إلا في دفتر رسوم الأمير "كارل روهان"، بعنوان موسكو - 1929).

قد تحدث تجاوزات جنسية أو تنتشر مظاهر الفجور في روسيا كما يحدث في كل مكان في العالم، وربما بدرجة أشدّ تطرفًا، إلا أن الحياة الروحانية تبقى بريئة طاهرة كبراءة الأطفال في بساطتها مقارنة بالشعوب التي هي أكثر نضجًا، التي تتخذ فيها علاقات الحبّ الفردية منحنى مفرطًا في الأنانية. تشير كلمة "جَمْعي" في اللغة الروسية إلى كل ما هو مرتبط بالشعب، وكل ما هو أصيل، وتشير إلى الوجدان المشترك وإلى كل ما هو متصل بجذور القلب، أكثر من إشارتها إلى السلوك المتحضّر والذكاء والسلوك العقلاني.

كل شيء مفعم بالنشوة يتجلّى هناك في روسيا بدون اختزال من خلال التشديد على التمييز بين الجنسيْن. اتضحتْ هذه الصورة في ذهني بشكل أكبر في أثناء إقامتي الثالثة في باريس سنة 1910، عندما أتاحت لي شقيقة إحدى الإرهابيات الدخول إلى دوائرهم السرية. وقد حدث ذلك بعد مدة وجيزة من تفجّر تفاصيل "مأساة أزوف"[1]، وبعدما خلّف هذا الجاسوس المغرق في الغموض والوحشية في آن واحد، جبلًا لا يتزحزح من مشاعر الإحباط وخيبة الأمل، في أعقاب إدانة "أزوف" بتهمة العمالة المزدوجة على يد "بورتسيف".

---

(1) يايفنو أزوف، اشتراكي ثوري اشتغل كعميل مزدوج، حيث عمل كمدبّر للاغتيالات السياسية لمصلحة الحزب الاشتراكي الثوري، وفي الوقت نفسه عمل جاسوسًا لمصلحة الشرطة السرية للإمبراطورية الروسية (المترجم).

في تلك الأثناء سيطرت عليَّ مشاعر واضحة تؤكد عدم وجود تناقض بين موقف القلّة من الثوّار المستعدين للتضحية بأرواحهم وإلقاء قنبلة لإنجاز مهمة انتحارية، وبين الفلاحين الغارقين في الخنوع والسلبية، الراضين بأقدار السماء؛ ذلك أنّ حماسة الإيمان في الحالتيْن واحدة، أدركت أنَّ حماسة الخنوع للمصير لا تختلف البتة عن حماسة الفعل الثوري، ووعيتُ أن الشعار المتحكّم في حياة الفريقين كليهما، والمتمظهر في سلوكهم الشخصي، ليس صادرًا عن مبدأ ذاتي، بل عن قوة خارجية قادرة على جعل الشهداء من الفريقين، أقصد شهداء الإيمان وشهداء الإرهاب الثوري، يدركون قوة الصبر عند الفريق الأول، وقوة العنف عند الفريق الثاني.

فبعد قرابة قرن من النضال الثوري وجد الاشتراكيون الثوريون أنفسهم أمام حائط مسدود بعد اعتلاء البلاشفة[1] سدّة الحكم، ووجدوا أنفسهم أمام شيء تجاوَزَ كثيرًا ما حلموا به؛ إذ نشأ نمط ثوري ثالث من نفس ينبوع الحماسة الإيمانية الموجود في قلوب أبناء الشعب: طبقة "البروليتاريا"[2] التي نالتْ حريّتها حديثًا واستُدعيت للمشاركة في العمل والنجاح، لتجد نفسها غارقة في نوع جديد كليًّا من القهر والعبودية، ومغمورة بألف لون جديد من ألوان البؤس، تُدفع بقوّة محمومة معربدة إلى العمل الدائم.

---

(1) البلشفية تعني الكثرة أو الأكثرية، وقد أطلقتْ جماعة الجناح اليساري من أنصار لينين في حزب العمل الاشتراكي الديمقراطي الروسي هذا التعبير على نفسها عام 1903 (المترجم).

(2) مصطلح ظهر في القرن التاسع عشر في كتاب البيان الشيوعي لماركس وإنجلز يشير إلى الطبقة التي ستنشأ بعد التحول الاشتراكي (المترجم).

وتجسّد ذلك في التحوّل الحاد من حالة الإيمان السلبي الخانع إلى حالة الإنجاز والعمل في شتّى مناحي الحياة، وإلى المشاركة في إنفاذ قوانين الإصلاح الزراعي (توزيع الأراضي الزراعية)، فبدوا مثل المسيحيين الأوائل الذين حلموا بهبوط مملكة الربّ السماوية لتملأ الأرض عدلًا.

وكان من شأن ذلك أن تحوَّلَ الشيوعي البروليتاري إلى خصم لدود لأخيه الفلاح الذي لم يرَ من كل هذه التطوّرات سوى جانبها السلبي، بمعنى تدمير الشكل البدائي البسيط لقريته عبر قرارات وتدابير سياسية مجرّدة لا تعير انتباهًا لتسليمه وإذعانه الفطري لمشيئة السماء، ولا سيما حينما رأى أن هذه الإجراءات كانت موجّهة بالأساس ضد الله وضدّ إيمانه الديني.

وهكذا رأى الفلاحون المؤمنون أنفسَهم وهم يجتمعون على أصوات أجراس الكنائس وأمام أنوار الشموع، يقفون وجهًا لوجه في مواجهة "البلشفية"، الناطقة بلسان الشيطان.

ولا يخفى علينا أنّ قوة الدعاية التقديسية التي وظّفها البلاشفة لتعزيز قوة طبقة البروليتاريا، لتضعَ "لينين" محل "المسيح"، لم تخل بالطبع من محاولة لدغدغة المشاعر الدينية للشعب الروسي البسيط بشكل ماكر ومقصود، ولكن أيًا ما كان الأمر، فلو فسّر لنا هذا السلوك شيئًا لبيّن لنا أن ظاهرة التديّن لا يمكن تفسيرها بمعزل عن الدهاء الكهنوتي وشهوة القساوسة إلى السلطة.

لا شكّ أن مربط الفرس هنا هو تأثير التجارب الهائلة التي قلبت حال الأمة الروسية رأسًا على عقب عبر الإفراط في توظيف القوى الإرهابية الثورية، دافعةً روسيا إلى مخاطر لا حدود لها. وسيّان أن تكلّل جهودهم

بالنجاح وأن تُمنى بالفشل، فإن خطورة هذه التجارب تكمن في أنها وثيقة الصلة بالحماسة الدينية القارّة في قلوب أبناء الشعب الروسي.

فهذه الحماسة الإيمانية تحديدًا هي التي تمهّد تربة روحانية خصبة تسمح بنموّ أركان مادة النظريات السياسية والتكنولوجيا المبتغاة، على عكس الثقافات الأخرى التي نضجتْ على أرضها هذه النظريات على مهلٍ، أقصد تحديدًا الثقافات التي ابتُكِرتْ على أرضها هذه الأفكار[1].

ربما يمكننا أن نستشعر أصداء هذه الروح القومية في المدة التي بدأتْ فيها روسيا اعتناق المسيحية (نحو سنة 900 ميلادية)، إذ لم يُجبر أبناء الشعب الروسي - كما يحدث غالبًا في شعوب أخرى - على اعتناق المسيحية، بل اعتنقوها طوعًا على يد مبشّرين وافدين من الإمبراطورية المسيحية البيزنطية، إذ كانت الروح المسيحية أقرب إلى طباعهم ومشاربهم من الإسلام والبوذية، ومن هنا جرتْ عملية "روسَنَة"[2] المسيحية في البلاد على قدمٍ وساق.

بل حتى الوثائق الدينية البيزنطية خضعتْ لهذه "الروسَنَة" على نحوٍ دفع البطريرك "نيكون"[3] إلى إصدار أوامره بضرورة مراجعتها وتصحيح ما وردَ فيها، وهو ما اعتبره الروس شططًا في التنوير الديني ولونًا من ألوان التدخّل الكنسي في روحهم الروسية الخاصة، وهو ما أسفر عن مغادرة نحو ثلث الروس الكنيسة الأرثوذكسية، ليعتنقوا "الراسكول"

---

(1) المقصود من كلام سالومي أن أفكار ماركس وإنجلز أفكار غريبة عن الروح الروسية، أفرزتها عقول أوروبية غربية، لا روسية (المترجم).

(2) أي صبغ المسيحية بصبغة روسية، وكلمة "روسَنة" صارت شائعة ومعروفة اليوم في لغة الإعلام والصحافة (المترجم).

(3) هو البطريرك السابع في تاريخ الكنيسة الروسية الأرثوذكسية الشرقية، واتخذ إجراءات إصلاحية قوية أدّتْ إلى حدوث انشقاق داخل الكنيسة (المترجم).

(الانشقاق 1654)، الذي صاغ العبارة التالية: "من يحبّ الله ويخشاه، فعليه ألا يذهب إلى الكنيسة".

ومن ثمَّ فالعناصر المستمدة من العقيدة المسيحية كانت منسجمة مع الروح الروسية أشدّ ما يكون الانسجام. بل حتى من ظلّوا داخل الكنيسة الرسمية لم يظهروا مشاعر التبجيل والتوقير لرجال الدين من الطبقة العليا، بل كانوا يبجّلون الحُجاج والرهبان والنسّاك البسطاء، أي أولئك الذين يتبعهم عامة الناس، وكان تبجيل العامّة لهؤلاء ينطوي على احترام قوي لشيء في صدورهم، شيء يقول سرًّا: إنّ ما في قلوبنا مثل ما في قلوبهم.

يشبه الأمر تمامًا، ما لو عكسنا الآية، عندما يضع المرء نفسه مكان مُدانٍ أو مجرم.

أستحضر هنا تلك العادة الشعبية الذائعة عندما يُشيِّع الناسُ المحكوم عليه وهو في رحلته الشاقّة إلى "سيبيريا"، فيعطونه شيئًا؛ سواء بيضة أو كسرة خبز أو قطعة من وشاح ملوّن. صحيح أن هذه الأفعال لا تخلو من شفقة رقيقة، لكنها لا تخلو كذلك من إيلام نفسي نبّهني عليه أحد الفلاحين ذات مرة إذ قال: "لقد أصابته هذه اللفتة في مقتل".

إن الإحجام عن إصدار الأحكام الأخلاقية على الآخرين وتجاهل المعايير التقليدية التي تقود الناس إلى إصدار مثل هذه الأحكام، مرتبطان ارتباطًا وثيقًا بعقيدة التسليم لله المتحكّم في كل شيء. لكن هذا التسليم "الطفولي" ملحوظ كذلك في عبارات العزاء والمواساة الدائرة على ألسنة الناس في أوقات المصائب والبلايا: "نسينا كل شيء إلا الله، الذي لم ينسنا قط".

ومن هنا نستطيع أن نفهم بسهولة كيف أنّ هذا الاتجاه الديني كما خَدَم الكنيسة قد خَدَم نظامًا طائفيًّا بشعًا ضمّ بين جناحيه أكثر ألوان الفِرَق الدينية اختلافًا وتناقضًا، ابتداءً من نظام الزهد المتطرف الذي ابتدعته طائفة "الخصيان"[1] ونزع الخصوبة من الرجال وصولاً إلى أشدّ ألوان المجون الجنسي تطرفًا الذي ينشد الوصول إلى النشوة العرفانية عبر ممارسة طقوس جنسية معربدة غامضة، أو الركون إلى عيش البهجة الإنسانية البسيطة وبلوغ السكينة النفسية التي هزّت "تولستوي" - على سبيل المثال - من الأعماق، وجعلت منه بشكل من الأشكال رسولَ الفلاحين.

ومثلما يمكننا أن نفسّر هذا السلوك ونحن نطبّق مبادئ "السايكوباثولوجي"[2] على "تولستوي"، الذي كان سلوكه جزءًا لا يتجزأ من عبقريته، يمكننا أن نفهم هذا السلوك الديني المغرق في المجون والفساد من خلال فهم طبيعة شخصية "راسبوتين"[3] المتوحش، بدلاً من محاولة فهمها عبر دراسة هذه الطوائف وتعاليمها الدينية.

والحقيقة أن وحدة الأضداد داخل النفس الإنسانية الواحدة إنما هي ملمح مميّز لطبيعة هذه النفس البدائية. يضاف إلى ذلك أن الشخصية الروسية موسومة بافتقارها إلى الثنائية أو الجمع بين متناقضين، إذ يصعب عند الروسي أن يفصل فصلًا حادًّا بين عالم الأحلام وعالم الحقيقة،

---

(1) طائفة سرية انتشرت في الإمبراطورية الروسية، واشتُهرت بخِصاء الرجال وقطع أثداء النساء وفقًا لتعاليمهم الرافضة للشهوة الجنسية (المترجم).

(2) " السايكوباثولوجي (علم الأمراض النفسي): علمٌ يُعنى بشكل رئيسي بشرح أعراض الاضطرابات النفسية وأنواعها وأسبابها (المترجم).

(3) معالج روحاني روسي، يعد أحد أكثر الرجال تميزًا في التاريخ الروسي، كان شديد القرب والتأثير من القصر الملكي الروسي، وعُرف بسلوكه الشاذ وأفعاله الماجنة، مات مقتولًا سنة 1916 (المترجم).

كما يصعب عنده التمييز بين مملكة السماء ومملكة الأرض، فكلما كانت العلاقة بالسماء أقلّ تجريدية، كانت مملكة الأرض أقل امتلاءً بشعور الذنب. يتأكّد كلامي هذا بشكل أوضح على من لم يُولدوا على أرض روسية، لكنهم أمضوا سنوات طويلة داخلها، فتراهم منجذبين بشدّة إلى كل ما هو روسي، وهو ما يصدق على عائلتي تمامًا.

كان والدي يضمر محبة كبيرة لمن يُطلَق عليهم "عَوَام الناس" (*praßtój naród*)، ومهما ذَكَر سلوكهم بنوع من التوبيخ أو اللوم، كانت نبرة صوته لا تخلو من شيء من الاحترام، بل من الإجلال كذلك، وكنا نشعر بذلك. أما فيما يخصّ أمي فيتحتّم القول: إن الأمر كان أشبه بهجرة مواطن بروتستانتي إلى الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية.

وماذا عني أنا؟

في هذه المرحلة المبكّرة من حياتي نُزِعتْ من نفسي الروح الروسية تمامًا بتأثير من حبي الأول الكبير، ذلك أن صديقي كان رجلًا أجنبيًّا (وقد أدّت الظروف المحيطة في روسيا إلى وأدِ مواهبه وقدراته)، فوجَّه جميع اهتماماته وأمنياته إلى خارج البلاد؛ أو إلى (*sagranizu*)، وهي الكلمة الروسية المرادفة لكلمة "خارج البلاد".

لكني برغم ذلك أقول: إني عندما كنت أعود في زيارة، قادمة من سويسرا أو ألمانيا، وأصل إلى الحدود الروسية، ثم تقلّني عربات القطار الواسعة الثقيلة، ويناديني محصّل القطار وأنا نائمة في عربة القطار بـ "الحمامة الوديعة" أو "الأم الصغيرة"، وعندما كانت تداعب أنفي رائحة جلد الغنم الأشعث أو رائحة السجائر الروسية المميّزة، وعندما كان يطرق أذني رنين جرس المحطّة ثلاث مرات، وهي الإشارة القديمة

لانطلاق القطار، كل ذلك كان يوقظ في نفسي شعور سعادة لا يُضاهى بعودتي إلى وطني.

إلا أن الأمر لم يكن له علاقة بعودتي إلى بيت العائلة، ولا بشعور الحنين إلى الوطن وإلى ذكريات الطفولة هناك. الحقيقة أنني في هذه اللحظة لا أستطيع تحديد مشاعري على نحو دقيق، كل ما أعرفه أنها مشاعر بقيت راسخة عصيّة على التغير في سنوات شبابي الجميلة، عندما كنت مشغولة بأشياء أخرى بعيدة الصلة تمامًا عن الروح الروسية. ثم ما لبثت أن حوّلتُ عواطفي إلى صرف اهتمامي إلى العمل والدراسة فقط، وقد حدث هذا في سنة 1897 عندما قابلتُ "راينر ماريا ريلكه" للمرة الأولى. كانت رحلاتنا المشتركة تلهِبُ أشواقنا للسفر إلى هناك [إلى روسيا].

الحقيقة أنها كانت تجربة استثنائية لكلينا؛ فبالنسبة إلى ريلكه مثَّلتْ تجربة السفر إلى روسيا قفزة نوعية هائلة في مسار حياته الإبداعية، ووضعت بين يديه كل ما كان يبحث عنه من صورٍ ورموز شعرية في أثناء دراسته لحضارة روسيا ولغتها، أما عني فجسدت الرحلة متعة رؤية روسيا على أرض الواقع مجددًا. أطللتُ منها إطلالة بانورامية على هذا الشعب، فرأيت بؤس الناس ورضوخهم وآمالهم رؤيةً أوضح. أسَرَتْ هذه التجربة قلبي حتى إني لم أجرّب شيئًا مماثلًا لاحقًا في قوّة الانطباعات والذكريات، اللهم إلا بعض التجارب الشخصية.

أروع ما في هذه التجربة أنّ اللحظات نفسها والخبرات نفسها أعطت كل واحدٍ منا ما كان يحتاج إليه؛ إذ عثرَ "راينر" على نبع إلهامه الفني، وعثرتُ أنا على ذكريات حميمية كنت أحتاج إلى أن أخبرُها خبرة حقيقية، وهو ما كنت أتوق إليه بشدّة.

حقّقتْ هذه الرحلات أكثر ما كان كلانا يصبو إليه، وكان أمرًا عجيبًا بحق.

والعجيب هو أننا على مدار أسفارنا عبر الامتداد الشاسع لهذا البلد - ولا أخصُّ بالذكر فقط المناطق التي سافرنا إليها - ، وبمحاذاة الأنهار التي عبرناها، والبحرين الأبيض والأسود، وعلى حدود جبال الأورال والحدود الأوربية - لم نقابل إلا رجلًا واحدًا فقط، هو الرجل نفسه في كل مرة، وكأنما جاء من أقرب قرية إلينا.

كنا نقابل الرجل نفسه، سواء أكان رجلًا لديه أنف روسي عادي أم أنف تتري مميز. إلا أن هذه الوحدة التي رأيتها داخل التنوّع لم يكن مصدرها تعذّر تمييز وجوه البشر داخل مجموعات بشرية لا نعرف منها أحدًا، وإنما كان مصدرها انفتاح الروح الروسية المطلّة من وجوه من رأيناهم، كما لو كانت هذه الروح تخاطب كل ما هو إنساني وعميق ومشترك في أعماقنا. كان الأمر أشبه بمن يتعلّم شيئًا جديدًا عن نفسه مِن خلال شخص آخر يقابله ويقع في حبّه.

وكان لهذا الأمر تأثيره الحاسم في نفس ريلكه، ذلك المُنقّب الأبدي في أغوار النفس البشرية، فمنحته هذه التجربة ما كان يحتاج إليه من صورة ورموز صنعتْ منه بحق ما يمكن أن نسمّيه "مرتّل الرب".

ثمّ بدأت الصورة تتضح في ذهني في وقت لاحق على نحو أكبر: كان نزوع "ريلكه" القوي إلى هذا الاتجاه لونًا من ألوان الشفاء الداخلي وضربًا من ضروب المصالحة الباطنية بين المتناقضات السرّية التي تعصف بروحه. وهكذا بالمثل نفهم أيضًا ميلَه الجارف إلى عالم الشرق، برغم أنه ابن الثقافة الغربية الرفيعة، فنأى عن كل ما هو غربي، كما لو أنه وجد في

عالم الشرق، مثلما وجد في الحضارات الآسيوية، جذور الإنسانية الأصيلة بكل ما تحمله من مزايا وعيوب، الإنسانية التي تحدّد مسار الأشياء.

وكنا كثيرًا ما نسأل أنفسنا خلال السفر: لو أننا واصلنا الرحلة إلى بلاد آسيا، فهل ستزيح هذه الرحلة الستار عن الوجه الرائق للحضارة الروسية؟

ثم فكّرنا أن الارتحال إلى قلب آسيا ربما يأتي بنتيجة عكسية، بمعنى ألا تفتح لنا الرحلة بابًا جديدًا، بل أن تغلق في وجهنا بابًا مهمًّا. فمهما حاولنا الاقتراب من عالم الشرق فلن يظهر لنا إلا مثلما يَظْهر جانب صغير من سور الصين العظيم فلا نرى السور كلّه أبدًا، وأفضل الوسائل لمقاربة عالم الشرق هي الاستعانة بالمعرفة العلمية وطرائق البحث الأكاديمي، فعالمُ الشرق معجون بماء الحضارات الموغلة في القدم، التي أنتجتْ آثارًا مذهلة، ومن ثمَّ فهو يغلق أبوابَ الوصول إليه وإلى حكمته الأسطورية العتيقة أمام الغرباء الذين لم يُولدوا على أرض هذه الحضارة. أي يُغلِق بابه في وجهنا.

فمن وجهة نظرنا الغربية التي دأبتْ تفكيك أية حضارة إلى وحدات وعناصر صغيرة، سيبدو عالم الشرق، مقارنةً بعالمنا، مختلفًا أشدّ ما يكون الاختلاف، حتى إنه ليُخشى من ابتلاعه على يد حضارتنا، أقول ذلك برغم تفوّق الشرق علينا من حيث وحدته الخالية من التناقضات، وطابعه الفردي المتميّز على مستوى الثقافة والطبيعة والتعليم والجوهر.

إلا أن الأرض الروسية مختلفة عما سبق؛ حتى في أنأى البقاع في "سيبيريا" المواجِهة للغرب، حيث تبدو روسيا مُحاصَرةً بعمليات الغزو والمؤثرات الخارجية من هنا هناك.

أحسُّ أنّ هذا هو قَدَر روسيا المحتوم: أن تتقبل بصدر رحب اتساع مساحة أراضيها، وأن تدعم هذه الحقيقة من خلال استيعاب أشد العناصر غرابةً عليها وهضمها، أي أن تؤلِّف بين الأضداد في توليفة واحدة.

أحسُّ أيضًا أن عُمق الأراضي الروسية التي لا يسبر غورها ووحدة هذه الأراضي لم يعودا سلاحًا ماضيًا في يدها، لأنّها منتج غير مكتمل، بل ربما تصير هذه السمات على المدى البعيد خطوات متثاقلة بطيئة تتجه بها إلى "حياة البداوة" التامة؛ ترحال وتجوال أبديان من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق، حتى لا يضيِّع الإنسان الروسي شيئًا من إرثه الحضاري الثمين الذي يحمله، وكي يظلّ محتفظًا برشاقة قدمه الراقصة، ومحافظًا على متعته في الغناء حتى وهو يشدو بأكثر أغنياته الطافحة بالحزن تحسبًا (ربما!) لانهيار الحضارة الغربية الوشيك.

أما في أيامنا هذه وبعد قيام الثورة فيبدو أن هذا النوع من المواطنين الروس قد أُجبِرَ قسرًا على الدوران مع ماكينة التقدّم، وأُكْرِه رغم أنفه على تحقيق أهداف غريبة عن ثقافته.

وبينما فشلت هذه الأفكار في تحقيق أهدافها في العالم الغربي، الذي اعتبرها من مخلفات القرن الماضي، وجد الغربُ ضالّته في روسيا الغارقة في التخلّف، حيث يجري تأليب الفصائل المتطرّفة المتناحرة بعضها ضد بعض. ولم يكن الأمر يتصل بمحاولة تغيير شكل بنية ثقافية قائمة مستقرّة، بل بمسألة تقويض النموذج الحضاري المؤسّس للحضارة الروسية.

ومن هنا كان من الممكن إنشاء شكل ثقافي جديد بقوة السلاح، ولا يهم كونه خيرًا أو شرًّا، وذلك عبر استخدام الوسائل التكنولوجية

الحديثة. لذلك نرى أن ما يسري اليوم في دماء روسيا البلشفية مجرد أفكار باردة لا روح فيها مستوردة من منظومة الأفكار والنظريات الغربية، لكن البلاشفة يواصلون تطويرها حتى تزول عنها الصبغة الغربية، وتصطبغ بصبغةٍ أصيلة طازجة لونها في لون *شفق الفجر الأحمر*، وهو اللون الذي يبدو أن روسيا تدعو بلدان العالم كله إلى اعتناقه من دون مراعاة خصوصية قومية ولا تدبّر عقلاني.

لذا كان من الضروري، بل ربما كان الأمر الأشدّ ضرورة، والحال هكذا، أن نحاول التشبّث بأذيال روسيا القديمة قبل أن تعصف بها الثورة التي وضعت النموذج الاشتراكي موضع الاختبار والتجربة. أقول: كان ذلك ضروريًّا لأنه لم يكن بالإمكان فهم مستقبل روسيا بمعزل عن فهم ماضيها. فعبر هذه المقارنة وحدها يمكننا تلافي سوء الفهم الذي يقع فيه المسافرون إلى روسيا هذه الأيام، فتنتابهم الدهشة العارمة من تبدّل أحوال الروس، أعني من تحوّل الرجل الروسي البسيط، حسن النيّة فيما مضى، بغتةً إلى ماكينة جهنمية، لمجرد أنه يستخدم السوط الحديث بدلًا من الناجايكا (*nagaika*)[1].

وبينما كنا واقفيْن (ريلكه وأنا) على ضفة نهر الفولجا، نتجرّع مرارة الفراق، فكّرنا في شيء نعزي به قلبينا ليذهب كل واحد إلى حال سبيله، فقلنا: إن جئنا إلى هذه البقعة مجددًا، سواء عما قريب (من يعلم؟) أم في المستقبل البعيد، وسواء أجاءت بعدنا أجيال كثيرة أم لم تجئ، فمهما تبدلت الأزمنة وتناوبت علينا نوائب الدهر، فسيبقى ما رأيناه بأعيننا المغرورقة بالدموع، على حاله. لم نكن نعلم أن الصورة ستتبدّل، وأن نهر

(1) سوط قصير سميك مميّز تستخدمه شعوب القوزاق السلافية التي تقطن سهوب الجنوبية شرقيّ روسيا (المترجم).

الفولجا سيجري إجباره مع غيره من الأنهار على التدفق عبر سدود هائلة للاندفاع عبر الأراضي الروسية متدفقًا هادرًا، ولا يتوقف جريانه إلا ليصبَّ في مياه المحيط.

لكننا عرفنا وأدركنا أن ما حدث لم يغيّر شيئًا من الجزء الأروع من تجربتنا ومن عالمنا الداخلي. لقد أخذنا من روسيا ما هو أكبر من روسيا نفسها، ولا ضير أن نفترق.

روسيا القديمة

ها أنتِ تحتمين داخل جيب أمكِ
تكادين لا تعرفين شيئًا عن بؤسكِ
كم تبدو كل أفعالك كأفعال الصِّغار
على طرف النقيض من أفعال الكِبار
ما تزال بيوتك مخضبة بأزهى الألوان سطوعًا
وكأنك تلعبين بينها تتضوّرين جوعًا
أحمر، أخضر، أزرق، أبيض على خلفية ذهبية
تلك هي ألوانكِ الأساسية
لكن مَن ينعم النظر إليها
فلن يجرؤ أبدًا على السخرية منها
روسيا بناها طفل
عند قدمَي الرب

نهر فولجا

مهما كنتَ بعيدًا عني، فسأظلّ أنظرُ إليك
ومهما كنتَ بعيدًا عني، فستظلُّ مِلكًا لي
ستظلُّ حاضرًا مثل لحظة لا تتبدد أبدًا
وستظلُّ حاضرًا مثل لوحة محيطة بحياتي سرمدًا
ولو لم أكن قد استرحتُ يومًا على ضفتيك
لقلتُ إني أعرف مدى عمقكَ واتساعكَ
كما لو أن طوفانًا من الأحلام غمرني
وأنا راقدة على ضفّة عزلتكَ المهيبة

الفصل الخامس

ذكرياتي مع نيتشه وباول ريه

في إحدى أمسيات شهر مارس سنة 1882 في مدينة روما، وفي أثناء لقاء ضَمَّ مجموعة من الأصدقاء عند الكاتبة "مالفيدا فون مايزينبوج"[1]، سمعنا قرع الجرس، وسرعان ما دخلت خادمتها المخلصة "ترينا" مسرعة لتهمسَ في أذن "مالفيدا" بكلمة سريعة، ثم ما لبثت الأخيرة أن هُرعت إلى مكتبها لتقبض على حفنة نقود وتغادر بعدها الغرفة.

ولدى عودتها إلى الغرفة ثانية وبرغم الضحكة التي كانت تعلو فمها، لاحظنا أن الوشاح الأسود الحريري الذي كانت تطوّق به رأسها قد انسدل من فوق رأسها من فرط الحماسة. دخلت الغرفة مصطحبةً "باول ريه"، وهو صديق قديم كانت تحبّه حبَّ الأم لابنها - كان قادمًا من مونت كارلو في حالة يُرثى لها - ، وكان على عجلة من أمره ليردَّ إلى النادل المال الذي اقترضه منه بعد أن خسر كل ما يملك وهو يقامر.

بدأتْ معرفتنا بموقف مضحك مثير، ولم يفاجئني الأمر، حيث توطدت أسباب الصداقة بعدها على الفور، بل بالعكس، ساهم هذا الموقف في بروز "باول ريه" وسط الحاضرين، وكأنه صبي واقف في ركن التلميذ البليد.

---

(1) مالفيدا فون مايزينبوج (1816 - 1903)، كاتبة ألمانية كانت تنشر مذكراتها تحت اسم مستعار، ربطتها صداقة قوية بالفيلسوف الألماني فريدريش نيتشه وبالموسيقار ريتشارد فاجنر وبالكاتب الفرنسي رومان رولان (المترجم).



أيًا ما كان الأمر فقد انجذبتُ بشدّة إلى هيئته اللافتة وعينيه الثاقبتيْن، وكذلك إلى تعابير وجهه التي كانت تمزج بين خفّة الظِّل ورقّة القلب. في المساء نفسه، وفيما تلاه من أمسيّات واصلنا كلامنا بحماسة متقدة ونحن نقطع الطريق من منزل الكاتبة "مالفيدا" الكائن في "فيا ديلا بولفيريرا" لنكمل حديثنا في النُّزل الذي كنت أسكنه مع أمي. كانت تمشياتنا الطويلة عبر شوارع روما تحت نور القمر وإطلالة النجوم مدعاةً أكبر لمزيد من الاقتراب بعضنا من بعض، وهو ما حثّني على مواصلة التفكير لتدبير خطة متقنة تضمن لنا استمرار اللقاء حتى بعد سفر أمي، التي جاءت بي خصيصًا من سويسرا إلى الجنوب حرصًا على صحّتي.

الواقع أن "باول ريه" أساء التصرف منذ البداية حينما اقترح على أمي خطة مختلفة تمامًا عما في ذهني، أقصد خطة زواج، وهو ما أثار استيائي بشدّة، لأنه أفسد الترتيب الذي كنت أخطّط له لأعرضه على أمي.

بادئ ذي بدء كان عليَّ أن أشرح له ما المقصود بحياة عاطفية جنسية مستقلة، ولِمَ وضعتها شرطًا جوهريًّا لبلوغ الحرية المطلقة التي أنشدها. وهنا ينبغي لي الاعتراف دون مواربة أن حُلمًا بسيطًا راودني ذات ليلة، هو ما أقنعني بإمكانية تحقيق خُطّتي، برغم كونها خطة خالفتْ جميع الأعراف الاجتماعية السائدة آنذاك.

في الحُلم رأيت غرفة دراسة مريحة عامرة بالكتب والأزهار، بين غرفتي نوم بسيطتين، وأنا أذرع المكان ذهابًا وإيابًا، محاطة بزملاء عمل داخل مجموعة مغلقة تجمع أمزجتهم بين الهزل والجِد. برغم ذلك أقول: إن عشرتنا (أنا وباول ريه)، التي دامت قرابة خمس سنوات كانت أقرب إلى صورة الحُلم هاته. قال لي "ريه" ذات مرة: الاختلاف الوحيد بين الحُلم والواقع أني تعلّمت شيئًا فشيئًا التمييز بين الكتب والأزهار، بعد أن كنت

أتخيّل مجلدات الكتب الجامعية الثخينة بمثابة قواعد ارتكاز توضع عليها آنية الأزهار، وأني كنت أحيانًا أتعامل مع البشر بذات الطريقة المُربكة.

وفي النهاية، لم يكن أمامي إلا أن أناضل ضد أمي المسكينة التي أرادت استدعاء جميع أبنائها الذكور لمساعدتها في جَرِّي إلى بيت العائلة حيةً أو ميتة، ثم صُعِقت لما اكتشفت أن الكاتبة الألمانية "مالفيدا" كانت أكثر تحيزًا من أمي بدافع من حفاظها على التقاليد الدينية والعقيدة الإيمانية الراسخة. ومع ذلك تبيّن لي لاحقًا أن بعض اللوم واقع على "باول ريه" الذي هرع بحماسة بالغة إلى بيت "مالفيدا" ليخبرها بضرورة "أن نهرب من بعضنا البعض"، إذ كان في قرارة نفسه مقتنعًا بألا يتحايل على مبادئ "مالفيدا"، برغم أنه تحايل عليها بالفعل في أثناء تسكّعاتنا الليلية (التي كانت تعلم بأمرها أمّي).

ولشدّما كانت دهشتي لما اكتشفت إلى أي حدّ يمكن للمثالية أن تعوّق الحرية الفردية عن تحقيق نفسها، فالرجل المثالي يخشى من التعرّض لسوء الفهم مثلما يخشى من تكوين انطباع سيئ عنه، ومن ثمّ يذعن صاغرًا لأحكام الآخرين.

من محل إقامتي في روما كتبتُ رسالة ناضحة بالغضب واليأس إلى مُعلّمي الذي لم يُبدِ هو أيضًا رغبة في مساعدتي، كانت رسالتي ردًّا على خطاب أرسله إليَّ في وقت سابق.

في السطور التالية نصّ الرسالة التي بعثتُها إليه في "سان بطرسبيرج".

روما 13/ 26 مارس 1882

أعدتُّ قراءة خطابكَ خمس مرات، ولم أفهم فحواه. ما الخطأ الذي ارتكبتُه بحق الشيطان؟ تخيّلتُ أنكَ ستكيل لي عبارات المديح والثناء.

دعني أشرح لك كيف تعلّمتُ من دروسك جيدًا؛ أولًا أنا لم أقع فريسة للخيال، بل سعيتُ إلى تحويله إلى واقع، وثانيًا إن الواقع الذي أقصده يضمُّ أفرادًا وقع عليهم اختياركَ أنتَ مباشرة بفضل ما يتمتعون به من روح مرهفة وذهن متوقّد. لكنك بدلًا من المديح تزعم أن فكرتي برمتها لا تختلف عن خيالاتي السابقة، بل إنك مستاء لكوني وضعت الفكرة موضع التنفيذ، زاعمًا أني لا أستطيع إصدار أحكام على مَن هم أكبر مني سنًّا وأكثر مني حكمة، مثل "باول ريه" و "نيتشه" وغيرهما. إلا أنك مخطئ؛ فالمرء إما أن يلتقط ما هو جوهري في شخصية أي إنسان منذ الوهلة الأولى وإما ألا يلتقطه على الإطلاق (وأنا أقصد بالجوهري في شخصية "ريه" الجانب الإنساني فقط). الحقيقة أن "باول ريه" لم يحسم أمره تمامًا بعد، فما يزال حائر الذهن، لكني الآن بصدد إقناعه بفكرتي في أثناء تسكّعاتنا الليلية بين الثانية عشرة والثانية بعد منتصف الليل في شوارع روما المُقمِرة، بعد مغادرة صالون الكاتبة "مالفيدا فون مايزينبوج"، وهي بالمناسبة تعارض خطّتنا على طول الخط، وهو ما يؤلمني، لأني أكنُّ لها محبة عظيمة، برغم ما أدركتُه منذ مدة طويلة من حقيقة أننا فكريًا على طرفي نقيض، حتى عندما نجتمع على شيء. فهي ما تبرح تكرّر في أثناء كلامها عبارات من قبيل: "علينا ألا نفعل ذلك"، و "علينا أن نحاول كذا"، برغم أني لا أفهم في الحقيقة ما المقصود بـ "نحن" في كلامها، لا شك أنها تقصد المنتسبين إلى مذهب فلسفي أو فكري بعينه، لكني في حقيقة الأمر لا أعرف سوى الضمير "أنا".

لا أستطيع العيش وفق مثل أعلى بعينه، ولا أودّ أن أكون مثلًا أعلى لأحد ليحتذي بي، أريد أن أشكّل حياتي وفق طبيعتي، أيًّا ما كانت العواقب. ولا علاقة للموضوع هنا بمبدأ معيّن أتبناه، بل بشيء أكثر عمقًا وروعة، شيء يسكن أعماقي، يتوهّج بشعلة الحياة النابضة، هتاف صارخ يريد الانطلاق.

كتبتَ أيضًا في رسالتكَ السابقة أنكَ طالما رأيتَ تكريس نفسي للأهداف الروحية النبيلة لا يعدو أن يكون "مرحلة انتقالية". حسنًا، ما الذي تقصده بكلمة "مرحلة انتقالية"؟

فلو كان وراء هذه المرحلة الانتقالية غايات نهائية أخرى يبذل الإنسان لأجلها الغالي والنفيس، وأقصد تحديدًا "الحرية"، أؤكد لك أني أريد أن أبقى إلى الأبد داخل هذه المرحلة الانتقالية ولا أغادرها، لأنني لن أفرط في الحرية مقابل أي شيء.

لا يوجد مَن هو أكثر سعادةً مني على وجه الأرض في هذه اللحظة، فالمعركة الجديدة الورِعة المبهِجة على وشك النشوب، وهو أمر لا يقلقني البتة، بل بالعكس، ينبغي أن تبدأ المعركة الآن!

وسنرى لاحقًا هل ستتحول *"العراقيل العصيّة على التجاوز"* التي وضعها العالم أمامنا إلى خطوط مرسومة بالطباشير على الأرض أم لا! إن ما يقلقني حقًّا ألا تمنحني دعمك الروحي والنفسي في هذه المعركة. كتبتَ إليَّ بمزيد من مشاعر الانزعاج أنّ "نصيحتك" لن تفيدني كثيرًا.

"نصيحة!" إن حاجتي إليك تتجاوز كثيرًا نطاق "النصيحة"، أنا محتاجة إلى أن تُحسن الظنّ بي، أنا محتاجة إلى ثقتكَ، ولا أقصد بالثقة المعنى المبتذل الدائر في الأذهان، بل أقصد أن يبقى كل ما أفعله، وكل ما أمتنع عن فعله داخل إطار الدائرة التي "تجمعنا معًا" (هل لاحظتَ أني أستخدم ضمير الجماعة "نحن"، الذي أعرفه وأفهمه؟). كل ما يخصّني، وكل ما هو جزء مني كالرأس واليدين والقدمين، منذ اليوم الذي صِرتُ فيه ما أنا عليه الآن، إنما جاء بفضلكَ أنتَ.

فتاتك الصغيرة

في البداية حدث شيء في روما أعطانا اليد الطُّولَى في مسار الأحداث، وكان هذا الحدث هو وصول فريدريش نيتشه إلينا بعدما وصلته رسالة من صديقه "باول ريه" وصديقته "مالفيدا"، فجاء دون سابق إنذار من مدينة "ميسينا" ليحضرَ لقاءاتنا.

ثم وقعت المفاجأة الكبرى عندما عَلِمَ نيتشه بخطّتنا (باول ريه وأنا) فحَشَر نفسه كضلع ثالث في تحالفنا، بل إنه اقترح مكان الالتقاء الثلاثي مستقبلًا ليكون مدينة باريس حيث سيحضر محاضرات لبعض الزملاء (كنا قد اتفقنا في الأصل على أن نلتقي في مدينة فيينا)، وحيث تربط "باول ريه" أواصر صداقة قديمة بالكاتب "إيفان تورجينيف"، مثلما كانت تربطني به إبان وجودي في "سان بطرسبيرج".

"مالفيدا" نفسها هدأ روعها قليلًا لما علمت أننا سنكون تحت رعاية ابنتيها بالتبنّي "أولجا مونود" و "ناتالي هيرتسين"، اللتين كانتا تديران حلقة أدبية صغيرة تضمّ فتيات صغيرات يقرأن فيها مختارات أدبية جميلة، إلا

أن "مالفيدا" كانت تفضّل أن ترى السيدة "ريه" في صحبة ابنها "باول"، مثلما فضّلتْ أن ترى فريدريش نيتشه في صحبة الآنسة شقيقته.

كانت أوقاتنا مفعمة بالمرح والبراءة لأننا كنا جميعًا نحبُّ "مالفيدا" حبًّا جارفًا، فضلًا على أن نيتشه كان في حالة مزاجية رائقة متحمسة في أغلب الأوقات، متخليًا عن تحفّظه المعتاد أو طابعه الوقور المعهود فيه. ما أزال أتذكّرُ طابعه الوقور منذ أول مقابلة لنا في كنيسة سان بيتر في روما، حيث كان "باول ريه" منكبًّا بحماس وورعٍ على كتابة ورقة عمل، جالسًا على كرسي الاعتراف في مكانٍ جيّد الإضاءة.

وكانت أول كلمة تحية من نيتشه إليَّ: "من أيّ نجم سقطنا لنهبط هنا؟".

إلا أن هذه البداية المبشّرة ما لبثت أن أخذتْ منعطفًا جديدًا وضَعَ خطّتنا أنا وباول ريه في مأزقٍ لم نتوقّعه بسبب دخول شخص ثالث إلى العلاقة، وهذا ما زاد الأمور تعقيدًا. لكن نيتشه قدّم حلًّا بسيطًا للموقف، حيث سأل باول ريه الوساطة لطلب يدي للزواج، ففكّرنا كيف نحلّ الموقف من دون أن نعرّض علاقتنا نحن الثلاثة للخطر.

فهَّمْنا نيتشه أنني معارضة لفكرة الزواج من الأساس، وأن مورد رزقي الوحيد هو المعاش التقاعدي الذي تتقاضاه أمي، ولو تزوّجتُ فسيُقطَع عني المعاش بصفتي الابنة الوحيدة لضابط كبير في الجيش الروسي. عندما كنا بصدد مغادرة روما بدا أن الأمور قد حُسمتْ عند هذا الحد، إلا أن نيتشه بدأ يعاني الأيام الأخيرة قبل السفر وعكات صحية متوالية، عرفنا أن سببها المرض نفسه الذي اضطرّه فيما مضى إلى الاستقالة من منصبه الأكاديمي في جامعة بازل، أي نوبات الصداع النصفي العنيفة التي كانت تهشم رأسه.

وهو ما دفع باول ريه إلى البقاء بجوار صديقه، في حين رأت أمي - حسبما أتذكّر - أنه من الأفضل أن تسبقني، بحيث نلتقي في منتصف الطريق. التقينا في عدة محطات، على سبيل المثال "أورتا" الواقعة ناحية بحيرات الشمال الإيطالي، حيث سحرتنا جبال "ساكرو مونتو".

وكانت أمي تتبرّم بشدّة من الأوقات الطويلة التي كنت أقضيها في صحبة نيتشه فوق الجبل، لأننا كنا ننسى المرور عليها لاصطحابها في الوقت المحدد، وهو ما كان يغيظُ "باول ريه" بطبيعة الحال لأنه كان يقضي هذه المدة في تسلية أمّي!

بعدما غادرنا إيطاليا انطلق نيتشه إلى بازل لمقابلة صديقه "أوفيربيك"[1]، ثم سرعان ما رجع ليقابلنا في مدينة "لوتسيرن" السويسرية، لأنه ارتأى أن طلبَ يدي للزواج من خلال وساطة باول ريه لم يكن كافيًا في نظره، فقرّر أن يطرق معي الموضوع مباشرة وبصفة شخصية، وهو ما نفّذه بالفعل في منتزه "لوفينجارتين"، وقد رتّبَ جلسة تصوير لنا نحن الثلاثة برغم معارضة "باول ريه" الشديدة للتصوير بسبب نفوره المَرَضي طوال حياته من تصوير وجهه. بل إن نيتشه لم يكتف بالإصرار المفرط في الحماسة على إتمام جلسة التصوير، بل تبرّع بترتيب التفاصيل الدقيقة لجلسة التصوير، مثل اختيار العربة (التي كانت صغيرة للغاية!)، فضلًا على لمسة *الكيتش* المبتذلة المتمثّلة في إمساكي بالسَّوط... إلخ.

عاد نيتشه بعدها إلى بازل، في حين واصل باول ريه معنا الرحلة إلى زيوريخ، حيث عاد إلى ضيعة عائلته في غرب مملكة بروسيا"[2] في منطقة

---

(1) فرانتس أوفيربيك (1837 - 1905): لاهوتي وأستاذ جامعي ألماني، كان الصديق الصدوق لنيتشه حتى وفاته (المترجم).

(2) مملكة بروسيا: مملكة ألمانية استمرّت من سنة 1701 إلى 1918، حيث هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، وكانت تشكّل ثلثي الإمبراطورية الألمانية (المترجم).

"ستيبه"، وبقيتْ والدتي معي مدة أطول في زيوريخ عند بعض الأصدقاء الذين مكثتُ عندهم في ضيعة ريفية خلّابة حتى انطلقنا في رحلة ناحية الجنوب. فانطلقنا عبر هامبورج إلى برلين برفقة شقيقي "يوجين" الذي كان قريبًا لي في السنّ، وأرسله شقيقنا الأكبر، ممثل الأب، لمعاونة والدتنا.

وهنا بدأتِ المعارك الأخيرة؛ إلا أني تلقيتُ دعمًا حقيقيًّا من باول ريه الذي طالما ألهمتني الثقة التي زرعها في نفسي، وبدأتْ تنتقل إلى أمي تدريجيًّا، وانتهى الأمر إلى أن اصطحبني شقيقي إلى ضيعة آل "ريه"، وجاء "باول" لاستقبالنا، وهكذا تصافح "سارق الشَّرَف" و "حامي حِمى الشَّرَف" للمرة الأولى.

وكما هو مُخطط بقيت في بلدة "ستيبه" حتى أواخر الصيف - كانت بضعة أشهر لا أكثر - حتى بداية مهرجان "بارويت"[1]، حيث قابلتُ "مالفيدا" مجددًا في بيت آل فاجنر. وهناك استطعتُ مقابلة ريتشارد فاجنر في السنة الأخيرة قبل وفاته، وأُتيحت لي فرصة مشاهدة عرض مسرحية "بارتسيفال" بتذكرة "باول ريه" نفسه.

وفي الأمسيات التي كنا نقضيها في فيلا "فانفريد"[2]، التي كانت تتخلّل عروض مسرحية بارتسيفال استطعتُ تكوين فكرة جيّدة عن حياته العائلية برغم طوفان البشر الذي كان يتوافد على المنزل من شتى بقاع الأرض.

---

(1) مهرجان موسيقي يقام سنويًّا في مدينة بايرويت بألمانيا، حيث تُقدّم عروض أوبرا للمؤلف الموسيقي الألماني الشهير ريتشارد فاجنر، الذي كان راعي الفكرة والمروّج لها لعرض أعماله الخاصة، ولا سيما مسرحياته الأوبرالية الضخمة "خاتم النيبلونجين" و "بارتسيفال" (المترجم).

(2) الاسم الذي أطلقه ريتشارد فاجنر على فيلته في بايرويت (المترجم).

بالطبع كان ريتشارد فاجنر هو بؤرة اهتمام الجميع ومحطّ أنظارهم، لكنه لم يكن يبين وسط جموع الناس بسبب قِصَر قامته وضآلة جسده، برغم ذلك كان يظهر ظهورًا ساطعًا من وقت إلى آخر مثل دفقات نافورة، ناشرًا بهجة ساطعة على من حوله، على عكس مظهر كوزيما[1]، التي كانت فارعة الطول فتبدو بعيدة عن كل المحيطين بها، وتصنع مسافة بينها وبينهم. وبدافع من إبداء اللطف والمودة إزاء "مالفيدا" جاءت إليَّ هذه المرأة الجذابة المفرطة الأناقة لتراني شخصيًّا، وأتاحتْ لي فرصة الحديث إليها حديثًا طويلًا مستفيضًا. في الشتاء التالي كان السيد هاينريش فون شتاين، وهو مُربّي الصبي ذي الثلاثة عشر عامًا زيجفريد (ابن فاجنر) وكنت قد تعرفتُ به في أثناء إقامتي في بايرويت، واحدًا من أوائل المنضمين إلى حلقة برلين وأشدّهم إخلاصًا، وهي الدائرة التي كانت تضمّني إلى جانب باول ريه وآخرين. ومن بين دائرة أصدقاء فاجنر المقرّبة توطدت علاقتي بالرسّام الروسي يوكوفسكي الذي ارتبط اسمه بلوحة زيتية هائلة تخطف الأبصار مُعلقة في أحد أركان فيلا "فانفريد"، وكأنها لوحة العائلة المقدّسة: زيجفريد الابن هو المُخلِّص، *دانييلا*[2] وكأنها أمّ الإله، وإلى جانبها الشقيقات الصغيرات الجميلات وكأنهنّ ملائكة الرحمة.

---

(1) رفيقة فاجنر، أو بالأحرى عشيقته لأنه لم يتزوجها رسميًّا برغم إنجاب أطفال منها، وقد وقع نيتشه في غرامها أيضًا إبان إقامته في منزل فاجنر (راجع: فاجنر في بايرويت لنيتشه، ت: قحطان جاسم) (المترجم).

(2) بعد بحث طويل توصلتُ إلى أن الشخصية المقصودة هي "دانييلا فون بيلوف"، ربيبة ريتشارد فاجنر (ابنة امرأته كوزيما)، وكانت عازفة بيانو بارعة وضلعًا بارزًا في فرقته الموسيقية، وعُرف عنها التشدّد للعرق الآري (مثل شقيقة نيتشه)، ثم صارت عضوة في الحزب النازي الألماني حتى وفاتها في سنة 1940 (المترجم).

برغم ذلك لا أجد في نفسي الجرأة لأنبس بكلمة واحدة بشأن فعاليات مهرجان بايرويت الموسيقي المهيب، بل أزعم أني لم أكن لأستحق الوجود هناك من الأساس لافتقاري إلى أذن موسيقية قادرة على تذوّق موسيقى المهرجان ولكوني غير جديرة لأفهمها.

ولو كان في مقدوري مقارنة نفسي بأحد لقارنتُ نفسي بخادمة "مالفيدا" المطيعة، "ترينا" التي وجدتْ نفسها محط سخرية الجميع، بعد أن تنبأ ريتشارد فاجنر بأن يحضر المهرجان شخصٌ جاهل موسيقيًّا تمامًا، ولكن ستُفتح أذناه ليستقبل الموسيقى، وسيكون الأمر أشبه بهبوط وحي حقيقي، وهذا هو السبب في إرسالها لحضور المهرجان أكثر من مرة.

برغم مشاعر السعادة والامتنان فقد باءت محاولة "إصلاح أذنيها" بالفشل الذريع، لأن الخادمة "ترينا" لم تستطع كتمان خيبة أملها في عرض أوبرا "بارتسيفال" مرة أخرى، بدلًا من عرض مسرحية جديدة في كل مرة.

وبعد مهرجان بايرويت خطّطتُ أنا ونيتشه لقضاء بضعة أسابيع معًا في مدينة "تورينجين" - تحديدًا بلدة "تاوتينبورج" - ، ثمّ صادفَ أنّ مالك العقار الذي نزلتُ فيه، وكان كاهن البلدة أيضًا، صادف أنه كان تلميذًا سابقًا لأستاذي في زيوريخ، د. ألويس بيدرمان. نشبتْ بيني وبين نيتشه في تلك المدة بعض الخلافات التي كان مردّها شائعات مغرضة لم أفهم سببها حتى هذه اللحظة، لأنها كانت شائعات مرسلة لا أساس لها من الصحة، إلا أننا سرعان ما سوّينا تلك الخلافات ليحل تعايش هادئ خصب لا يعكّر صفوه طرفٌ دخيل.

في تلك المدة استطعتُ التعمّق في فكر نيتشه وفلسفته أكثر مما فعلت في مدة وجودي في روما أو في أثناء أسفاري. لم أكن قد قرأتُ شيئًا من أعمال نيتشه إلا كتاب "العلم المرح" الذي كان قد أنهاه للتو، وتلا علينا (أقصد في حضور باول) فقرات منه في أثناء وجودنا في روما. خلال هذا النوع من المحادثات كان نيتشه وباول ريه يخطف كل منهما الكلمات من لسان صاحبه. كان يجمعهما طريق فكري وروحي واحد، لا سيما بعد قطيعة نيتشه مع فاجنر.

حيث حبَّذ باول ريه ميل نيتشه إلى الكتابة بأسلوب الشذرات - على خلفية مرضِه وطريقة حياته - ، وكان نيتشه يحمل على الدوام في جيب معطفه نسخة من أعمال لاروشفوكو[1] ولا برويير[2]، وبقي أسلوبه في الكتابة على حاله، منذ تأليف عمله الأول "عن الغرور".

في حالة نيتشه يمكننا أن نرى ما الذي انتقلَ به من كتابة الشذرات والحِكَم إلى كتابة عمل مثل "هكذا تكلّم زرادشت"؛ كانت الحركة المحمومة في نفس نيتشه الباحث عن الله، القادم من عباءة الدين الرسمي إلى التبشير بديانة جديدة.

في واحدة من الرسائل التي بعثتها من محل إقامتي في "تاوتينبورج" إلى باول ريه بتاريخ 18 أغسطس قلتُ: *"حالما قابلتُ نيتشه بعثتُ برسالة إلى "مالفيدا" أخبرتها بأن نيتشه رجل ذو ميول دينية"*.

وهو ما تشكّكتْ فيه مافيدا بشدّة، إلا أني اليوم أودّ وضع خطّين أسفل هذه الكلمة.

---

(1) فرانسوا لاروشفوكو (1613 - 1680): كاتب شذرات ومذكرات فرنسي، أثرت أعماله تأثيرًا قويًا في أسلوب نيتشه (المترجم).

(2) جان دي لا برويير (1645 - 1696): أديب وكاتب فرنسي اقترب من أسلوب لاروشفوكو في مقاربة طبائع البشر بأسلوب شذري (المترجم).

أراهن أننا سنعيش لنرى نيتشه وقد تحوّل إلى مؤسس ديانة جديدة، تدعو الأبطال ليكونوا من تابعيها. كم كنا نفكّر تفكيرًا واحدًا ونشعرُ شعورًا واحدًا بهذه الفكرة، بل إن كل واحد يكاد يأخذ الكلمة من على طرف لسان صاحبه. تباحثنا معًا حول هذه المسألة، أي مسألة إرادة القوة، لمدة ثلاثة أسابيع حتى قتلناها بحثًا، أغرب ما في الأمر أن نيتشه صار في هذا اليوم قادرًا على الكلام لمدة عشر ساعات متواصلة. العجيب أيضًا أنّ محادثاتنا كادت تقذف بنا إلى قعر هاوية سحيقة، إلى مثل تلك الأماكن التي تصيبك بالدوار عندما تتسلّقها وتحدّق إلى الهاوية.

لقد اخترنا (نيتشه وأنا) أن نكون زوجين من الماعز الجبلي[1]، ولو حدث أن استمع أحد إلى كلامنا لقال: إنها محادثة بين زوجين من الشياطين. لم يكن هناك بدّ من الافتتان بشخصية نيتشه وكلامه معي، وهي جوانب لم أرَ أثرًا منها في أحاديثه مع باول ريه.

كانت في جعبتي ذكريات ومشاعر نصف واعية مصدرها الجزء الأكثر براءة والأشد حميمية واستعصاءً على التدمير من طفولتي، وربما كان هذا تحديدًا هو السبب الذي حال بيني وبين أن أتحوّل إلى تلميذة لنيتشه أو أن أكون واحدة من مريديه. كان يساورني دومًا شعور التردد من أن أسلك طريقه، وكانت تحدوني رغبة مُلِحّة في الهرب من طريقه لأكوّن لنفسي صورة واضحة، وهكذا سار الافتتان بنيتشه والإعراض عنه في طريقٍ واحد، جنبًا إلى جنب.

---

(1) الماعز الجبلي معروف بقدرته الاستثنائية على تسلق الجبال وإن كان الجبل أو الحائط الصخري عموديًا (المترجم).

بعد عودتي في خريف تلك السنة إلى بلدة "ستيبه"، قابلنا نيتشه مرة ثانية لمدة ثلاثة أسابيع (لست على ثقة من المدّة!)، في مدينة لايبزيج في شهر أكتوبر. لم يتصوّر أيّ مِنا أنها ستكون المقابلة الأخيرة. إلا أن الأمور لم تسر كما تشتهي أنفسنا برغم أننا عقدنا نيّة صادقة في أن نبقى نحن الثلاثة معًا في المستقبل.

ولئن سألتُ نفسي ما الذي غيّر موقفي الداخلي تجاه نيتشه تغييرًا سلبيًا، لقلتُ: إنها تلميحاته المتزايدة بأن باول ريه ليس الرجل المناسب لي، فضلًا على دهشتي من ظنّه أن طريقته تلك ستؤتي ثمارها معي.

وبعد مغادرتي مدينة لايبزيج استعرتْ حملة شعواء ضدي، أخذت شكل اتهامات ذات مضمون بغيض، ولم أعلم عنها شيئًا إلا من خلال خطاب قصير. والحقيقة أن ما جرى بعدها كان مناقضًا تمامًا لطبيعة نيتشه ومروءته، حتى إني لا أستطيع أن أعزو سلوكه إلا إلى مؤثرات خارجية أقوى منه، عندما بدأ ينشر عني وعن باول إشاعات مغرضة، هو نفسه كان يعلم أنها عارية من الصحة. والحقيقة أنَّ من شدّ أزري في تلك المرحلة البغيضة الطافحة بالعداوة كان باول ريه، وهو ما فهمته بعدها بسبع سنوات، فلم تصلني أيّ من رسائل نيتشه التي كانت تنضح بشتائم مقذعة، لم أفهم سببها قط. ليس هذا فقط؛ بل إن باول ريه حجب عني جميع الأخبار المتصلة بتحريض عائلة نيتشه ضدي إلى درجة الكراهية، وقد كان بلا شكّ تصرفًا مَرضيًّا غيورًا من أمّ نيتشه التي أرادت أن يخلو لها وجه ابنها.

بعد مرور سنوات طويلة على ما جرى أَحَسَّ نيتشه بتأنيب الضمير بسبب حملة الشائعات التي أطلقها ضدي، فقد حكى لنا السيد هاينريش فون شتاين، وكان صديقًا مقربًا منا، الحكاية التالية التي سمعها أثناء

زيارته لنيتشه في سالز ماريا (بعد الحصول على موافقتنا أولًا). حاول شتاين أن يفاتح نيتشه في موضوع تنقية الأجواء بعد سوء التفاهم الذي وقع بيننا نحن الثلاثة، إلا أن نيتشه أطرق برأسه وقال: "*إن ما اقترفته في حقها جُرم لا يُغتفر أبدًا*".

بعدها بدأت أحذو حذو باول ريه في التعامل مع الموضوع، فنبذت الحكاية كلها وراء ظهري، وأدرتُ وجهي عن شائعات عائلة نيتشه المغرضة، مثلما طويتُ صفحة أعماله كلها بعد وفاته[1].

ألّفتُ كتابي "نيتشه من خلال أعماله" بتجرّد وحيادية، لأني كنت أعلم أنَّ لمعان نجمه وانتشار أعماله سيؤديان بالضرورة إلى اعتناق كثير من الشباب لأفكاره ومبادئه من دون فهمها على الوجه الصحيح، بل أقول: إني لم أفهم أعمال نيتشه حق فهمها إلا بعد أن قابلته وجهًا لوجه وتعرفته عن قرب. لم يكن يهمّني إلا فهم نيتشه من خلال أفكاره الموضوعية المبثوثة في كتبه. وهكذا بقيت الصورة التي كوّنتها عنه - بعد الاقتراب الشخصي منه - ثابتة لا تتغيّر.

في تلك الأثناء استقرّ بنا المقام (باول ريه وأنا) في مدينة برلين، وتأجّلت خطتنا الأولى في الانتقال إلى باريس بسبب مرض إيفان تورجينيف ثم وفاته. وهناك تحقّقت صورة المجتمع الذي كنا نحلُم بالعيش فيه على أكمل وجه في شكل حلقة ثقافية قوامها الباحثون الشباب في مجال العلوم الإنسانية والمدرسون الجامعيون. ومع مرور السنوات نَمتِ الدائرة نموًّا سريعًا حتى تحوّل بعض المترددين إليها إلى أعضاء مواظبين. عُرف باول ريه في هذه الدائرة باسم "خادم الشرف"، وعُرفتُ أنا باسم "صاحبة السعادة" كما كان مكتوبًا في جواز سفري الروسي جريًا على العادة الروسية بصفتي الابنة الوحيدة لأحد كبار الضباط الروس.

---

(1) مات نيتشه في سنة 1900، وتوفيت لو سالومي سنة 1937 (المترجم).

وكان بعض الأصدقاء يصحبوننا في عطلات الجامعة عندما نغادر برلين في فصل الصيف من كل سنة. أتذكّر فرحتي الشديدة عندما أمضيتُ أحد فصول الصيف في بلدة "سيليرينا" في "إنجادين" العليا في سويسرا بين عمال المطاحن، ولم نسافر (أنا وباول ريه) إلى الجنوب إلا مع بدء تساقط الثلوج بشدّة في أواخر فصل الخريف. في تلك المدة لم تكن ثمة قطارات تمرّ من مدينة "لاندكارت" السويسرية، فأقلتنا عربة نقل الخطابات والطرود التي كانت تحل محل الحافلات في فصل الشتاء، ولم يكن سوانا في العربة وقتها. وهكذا قطعنا طريقنا بهدوء وبطء (مثلما يفعل اليوم أصحاب السيارات الخاصة) إلى "ميران بوتسين"، فكنا نتوقّف أينما شئنا لنستمتع بأشعة الشمس وضوء القمر.

وبرغم أننا قطعنا مسافة طويلة كان المال كافيًا للرحلة وزيادة. كان في حوزتي 250 ماركًا اقتطعتها من معاش أمي، ووضع باول ريه مبلغًا مماثلًا في الصندوق المشترك الذي أنشأناه معًا.

وحينما كان يضيق بنا الحال كنا ندّخر ونقتصد في الإنفاق، وهو ما أسعَدَنا بعد أن وصلتني رسائل حماسية من جيورج، شقيق باول والقائم على إدارة ثروته، تُبلِغنا مدى سعادته بترشيد شقيقه باول في نفقاته، وأنه لم يعد يبذّر أمواله كان في السابق.

في إحدى المرات أردنا قضاء جزء من فصل الشتاء في فيينا، حيث كان شقيقي يوجين يواصل دراساته العليا على يد البروفيسور نوتهانجيل، إلا أن خطتنا فشلت لأسباب رأيناها مضحكة: فبدلًا من الصدّ والشكّ الذي كنا نلقاه من مؤجِّري الشقق في برلين، استقبَلَنا أصحاب الشقق في فيينا بترحاب واضح بسبب ما أسموه "علاقة الحبّ الصادق التي لا يرقى إليها الشكّ"، وهي العلاقة التي كانت صديقتنا مالفيدا تخشى من

أن تتحوّل من مظهر طيِّب إلى مظهر خبيث. واستجابةً لنصيحة باول ريه الحكيمة (في هذه الظروف يكون خادم الشرف من الرجال أكثر حكمة من كل النساء)، كنا نسكن في شقق مملوكة لدائرة ضيقة من المعارف والمقرّبين داخل برلين، لا في بيوت العائلات ولا دوائر المجتمع البوهيمي آنذاك، وهكذا كان اهتمامي بالأدب الجميل غطاءً جميلًا على حياتي الشخصية.

في هذه المدة، وتحديدًا في بلدة "جريس - ميرانو" الإيطالية كتبتُ أول أعمالي، وكان الدافع وراء الكتابة هو بحثي عن وسيلة أهرب بها من رغبة أسرتي في إعادتي إلى مسقط رأسي في روسيا، حيث أخبرني بعض الأصدقاء أني بمقدوري الحصول على تأشيرة إقامة لو ألّفتُ كتابًا، وكان هذا أعزّ ما يُطلب، حتى لو كان تأليف الكتاب مقرونًا بحذف اسم عائلتي من الغلاف. وهكذا استقرّ عزمي على اتخاذ اسم مستعار، وهو الاسم الأول لصديق الصبا الهولندي الأصل مقرونًا بالاسم الذي اختاره لي (بدلًا من اسمي الروسي الذي كان يجد صعوبة في نطقه).

الطريف أن هذا الكتاب الذي جعلتُ عنوانه - الكفاح في سبيل الله - لمؤلفته (هنري لو) حظي بأفضل المراجعات الأدبية التي حظيت بها أعمالي على صفحات الجرائد على الإطلاق، لعل أهمّها ما كتبه الأخوان هاينريش ويوليوس هارت[1]، اللذان تعرفتُ بهما من كثب لاحقًا، وكانت مراجعتهما مبعث سخريتي لاحقًا لأني كنتُ أعرف السبب الحقيقي وراء الاحتفاء البالغ بكتابي، الذي لم يكن أكثر من مجرد مشاهد مُلفقة من مذكراتي في سان بطرسبيرج، وعندما لم أجد ذلك كافيًا لملء

(1) كاتبان ينتميان إلى الحركة الطبيعية (المترجم).

صفحات الكتاب، لجأتُ إلى رواية قديمة غير مكتملة، فحوّلتها إلى نصوص نثرية[1].

ضمّت الدائرة المحيطة بنا ممثّلين من التخصصات كافة؛ علماء طبيعة، ومستشرقين ومؤرّخين وعددًا لا يُستهان به من الفلاسفة. كان محور اهتمام الدائرة في البداية هو "لودفيج هيللر"، الرجل الذي خرج على الناس بعد مدة طويلة من العمل الشاق والعزلة في أحضان الغابة السوداء، متأبطًا مخطوط كتاب ضخم يضمّ مقالات خاصة حول انتصاراته وانكساراته الميتافيزيقية في منتصف العمر يحمل عنوان (كل شيء عن كل شيء: ما وراء المنطق، وما وراء النفس، وما وراء الطبيعة)، وبعد طباعة العمل قفز الرجل طواعية إلى المياه منتحرًا وهو في طريقه إلى إحدى الدول الإسكندنافية، وهو الانتحار الذي يمكن أن نعزوه إلى سبب صوفي محض. وكان من بين ملامح ذلك العصر أنْ كان للفلسفة تأثيرٌ محفِّز ومثير للقلق في آن واحد. فنظريات الكانطية الجديدة[2] وأجنحة اليسار الهيجلي واليمين الهيجلي[3] خبا بريقها عندما بدأت تصطدم بشكل لا تخطئه العين مع روح ما يُسمّونه "عصر الداروينية" ابنة القرن التاسع

---

(1) المقصود أن الكاتبين كانا من أنصار المذهب الطبيعي المناهض للرومانسية، حيث يحاول الكاتب التعبير عن الواقع بأكثر طريقة موضوعية، فيترك للأشياء والوقائع نفسها عملية السرد، وكان كتاب "سالومي" منسجمًا مع نزعتهما، ومن هنا جاء الاحتفاء بالكتاب (المترجم).

(2) الكانطية الجديدة حركة فلسفية نشأت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في ألمانيا تطويرًا لأفكار إيمانويل كانط، تمثّلت في أن الفلسفة يجب أن توجّه عنايتها إلى التفكير النقدي في الظروف التي تجعل النشاط المعرفي للإنسان صالحًا، وهي ترفض أي نوع من أنواع الميتافيزيقا (المترجم).

(3) الهيجليون هم أتباع الفيلسوف الألماني المثالي جيورج هيجل، وبعد موته انقسم أتباعه إلى فئتين: اليسار الهيجلي وهم كارل ماركس وفويرباخ، وهم من انتقدوا تصوّرات هيجل المثالية وجعلوا الفلسفة مادية تمامًا، أما اليمين الهيجلي فأبقوا على كثير من أفكار هيجل (المترجم).

عشر. وفي غمرة الرزانة والموضوعية المسيطرة على أساليب التفكير، توغّلت النزعة المزاجية المتشائمة توغلًا لافتًا بين الكُتاب والمفكّرين، سواء توارتْ في الأغوار العميقة لأفكارهم أم ظهرتْ ظهورًا واضحًا ونالت الاعتراف.

وقد جاءت هذه النزعة كردٍّ فعل مثالي على محاولات "استئصال فكرة الألوهية" من العالم، فذُبحت القرابين ابتغاء الوصول إلى الحقيقة. بل ربما نستطيع أن نصف هذا العصر بأنه عصر البطولة الفلسفية، ولم ينتهِ هذا العصر إلا عندما اقتصرَ طلب الحقيقة عند الفلاسفة على مجالات بحثية متواضعة، لا تخرج عن ترديد الكلمات الطنّانة الخالية من المعنى. بل إن الطبيعة البشرية نفسها صارت موضوعًا للبحث العلمي، وعرضة للتمحيص العلمي.

فبعد حَنْي الرأس أمام "الحقيقة" بزغ فجر عصر جديد طافح بإذلال الإنسانية، عصر ملمحه الأساسي هو الاعتراف بدونية الإنسان. بل حتى داخل دائرتنا المحدودة - التي طرأ على عدد أفرادها الزيادة والنقصان على مدار السنين - لم يكن الجميع يعرفون مجموعة شذرات نيتشه التي منحتْ حقل علم النفس شهرته العالمية. برغم ذلك بقي نيتشه بيننا متلفعًا بغلالة حاجِبة، مثل ظلّ لا مرئي.

ألم يكن نيتشه هو الذي هزّ أرواح البشر الذين أعطتهم المعرفة الذهنية ما أعطتْ وأخذتْ منهم ما أخذت؟

ألم يكن نبوغ نيتشه كامنًا في جزالة تعبيره اللغوي؟ ألم تنصهر قوة التعبير الشعري وقوة المعرفة الذهنية عنده في بوتقة واحدة لتُخرج لنا ثمرة مدهشة، فكانت الصراعات الروحية التي مزّقت روحه وصعوبات حياته دافعًا لأن يبذل قصارى جهده فيكتب ما كتبه؟

بغضّ النظر عن الأثر الهائل الذي أحدثه نيتشه في التجربة الروحية والإنسانية لعصره، إلا أن نيتشه كان يقف على طرف النقيض من أصدقائنا.

برغم ذلك، كنت أرى أنه مهما فرّقتْ بينهم مسائل جوهرية كانوا يتفقون على قضية أساسية، ألا وهي الإعلاء من شأن الموضوعية والسعي إلى الفصل الدقيق بين الانفعالات الذاتية والموضوعية العلمية، وتنحية حياتهم الشخصية جانبًا عما يحاولون إنجازه على الصعيد العلمي.

على صعيد مقابل كانت ظروف نيتشه الشخصية وبؤس أحواله بمثابة فُرن انصهرتْ فيه إرادة المعرفة عنده لتتبلور في شكل متقد بالحماسة، وكان هذا الشكل من الحماسة جوهر أعمال نيتشه. فشاعرية لغة أعماله كانت أعظم قيمة وأجلّ شأنًا من الحقائق المتضمنة فيها، وهي الحقائق التي كان ما يبرح يغيّرها باستمرار ويعدّلها بخضوع رقيق أنثوي وكأنه يقودها اتجاه شيء معيّن، واستمرّ الأمر هكذا حتى وصلَ إلى التبشير بديانة جديدة قوامها تعاليم زرادشت والإنسان الأعلى والعَوْد الأبدي، حيث انقسمَ إلى الكيان الذي يعاني كل شيء، ويهيمن على كل شيء، فوصل إلى النقطة التي يمكن أن نطلق عليها "*شعر وحقيقة*"[1].

عند هذه النقطة وصل الباحث (نيتشه) إلى حدوده القصوى، فتخلّى عن ذاته وأزاح الستار، ذلك الستار الذي كان يلون معاناته وأشواقه، فأزاحه مرة واحدة إلى الأبد بحيث لا يعود بالإمكان أن يُرفع ثانية، فاكتسبَ حينذاك البصيرة.

---

(1) في الأصل *Wahrheit und Dichtung*، وردتْ بين قوسين، وفي التعبير إشارة واضحة لسيرة الشاعر الألماني الأكبر جوته الذاتية "شعر وحقيقة" (المترجم).

أثلج صدري هذا التناقض بين طبيعة نيتشه وطبيعة بقية أصدقائنا؛ ففي هذه الدائرة وجدتُ المناخ الصحي الذي كنت أتوق إليه، وفي هذه الدائرة ظلَّ باول ريه هو توأمي الفكري والروحي، حتى برغم ما كان يشوب علاقتنا أحيانًا من توتّر بسبب ضيق أفقه ويقظة ضميره المفاجئة، عندما أميل فكريًا إلى أعضاء آخرين من بين أعضاء دائرة أصدقائنا (مثل فرديناند تونيز وهيرمان إبيجهاوس) أكثر مما أميل إليه.

لم أخطّط لأن تكون علاقتي بباول ريه مجرد علاقة عابرة، بل لأن تمتدَّ إلى الأبد، وربما يعود الفضل في إيمان كلينا بالقدرة على تحقيق ذلك وعدم خشيتنا ألا تُفَـرِّق بيننا الخلافات الشائكة غير القابلة للتجاوز إلى طبيعة باول ريه نفسه، وهي الطبيعة التي جعلته، من بين الآلاف، رفيق حياة من طراز فريد.

كان باول يتحلّى بصفات استثنائية عديدة، رأيتها في سنوات صباي الغرّة الساذجة، طبيعية ومنطقية، وعلى الأخصّ طيبة قلبه المتناهية. وكان من المستحيل أن أحدس منذ الوهلة الأولى أن طيبة قلبه راجعة بالأساس إلى كره مكتوم لذاته. نعم كان باول يكره نفسه، وهذا ما حدَاه على أن يُفرغ مشاعره الطيّبة على شخص آخر كنوع من أنواع الخلاص المنشود الذي يشيع في قلبه السعادة.

ثمّ طرأ تحول حاد على طبيعة باول؛ فانقلبتْ شخصيته من شاب سوداوي المزاج متشائم لا تبرح تراوده أفكار الانتحار إلى إنسان مرحٍ واثقٍ بنفسه. كانت أسارير وجهه متهللة بروح الدعابة، وما تبقّى فيِ نفسه من روح التشاؤم تجلَّى بوضوح في محاولته للعثور على شيء مسلٍّ وسط ركام خيبات الحياة اليومية وإخفاقاتها التي تضايق غيره من البشر، فكان يبتهج لو وجد هذه الإخفاقات والخيبات أقل إزعاجًا مما توقّع.

وهكذا بقيت حالة "العصاب"[1] التي كان مصابًا بها خافية عليَّ مدة طويلة برغم انفتاحه الشديد في الاعتراف بكل عيوبه الدفينة.

ولكني في مرحلة متأخّرة، وعندما تنبّهتُ لسقوط باول مجددًا في دوامة إدمان القمار، شرعتُ في الربط بين صورة المقامر التي رأيته عليها عشية أول لقاء لنا في روما، وبين الصورة التي بدأتُ أفهمها وأعيها الآن. وحتى هذه اللحظة أشعرُ بحزن عميق كلما فكّرتُ كم كان عِلم النفس الفرويدي سيساعد باول ريه على التعافي من مرضه النفسي لو أنه انتشر قبل عدة عقود. ولا أقول: إن علم النفس الفرويدي كان سيساعده على العودة إلى ذاته مرة أخرى، بل كان سيخدمه في تطوير قدراته الفكرية، لما كان يتّسم به باول من فهم عميق للنفس البشرية.

لم يُفترض أن تُغيّر خِطبتي[2] شيئًا من طبيعة علاقتي بباول ريه، إذ لم يجد زوجي غضاضة من استمرار علاقة الصداقة باعتبارها حقيقة واضحة وضوح الشمس. ثم إن باول تصرف من منطلق أن خطبتي إما أن تتصادم بعلاقتنا وإما أن تنسجم معها.

مشكلة باول هي عدم إيمانه بأن أحدًا ما في هذه الدنيا سيحبّه حبًّا صادقًا، ولم يتمكن من نسيان حقيقة أني رفضت عرضه بطلب يدي للزواج لما كنا في روما. وبرغم صدق أحاديثنا وصراحتها نشب بيننا سوء تفاهم حاد (كان باول ريه قد أشارَ عليَّ بألا أرى خطيبي ولا أتكلّم معه خلال الفترة الانتقالية، ولو لمدة محددة).

(1) العصاب: اضطراب نفسي يتميز بشدة الاستثارة والانفعالية، والقلق الشديد وسيطرة مشاعر الذنب، والشعور بالعجز في التعامل مع المواقف الاجتماعية (المترجم).

(2) المقصود خطبتها للمستشرق الألماني ف. ك. أندرياس، وسيرد ذكره بالتفصيل لاحقًا (المترجم).

في تلك الأثناء كان باول قد بدأ يدرس الطب، وانتقل للعيش في شقّة منفردة، لأن دروس التشريح كانت تبدأ في ساعة مبكّرة للغاية (أذكر أننا تناقشنا بشأن إمكانية دراسة الطب معه، إلا أننا ضحكنا بعد تأمل طويل من فكرة أن الدراسة المشتركة غير ضرورية بالنسبة إلى اثنين سيعيشان معًا إلى الأبد).

بقيتِ الليلة الأخيرة السابقة لافتراقنا مشتعلةً في ذاكرتي على نحو لم تخبُ جذوته على مدار السنين. كان باول قد غادر شقتي في وقت متأخر، لكنه ما لبث أن عاد بعد بضع دقائق بسبب هطول الأمطار بشدّة في الخارج، ثم سرعان ما غادر مجددًا ليعود بعدها بلحظات بذريعة نسيان كتاب. وعندما انصرف للمرة الأخيرة كان الفجر قد طلع.

صُعِقت لما أطللتُ من النافذة: كانت النجوم الباهتة تتلألأ وسط سماء رائقة وشوارع جافّة لا أثر فيها لمياه المطر. عندما استدرت من النافذة رأيت على ضوء المصباح صورة لي وأنا طفلة، كانت في حوزة باول، وقد كُتِب على قصاصة ورق مطوية حول الصورة الكلمة التالية: "لا تبحثي عني رأفةً بحالي".

لا شكّ أن اختفاء باول ريه من مسرح الأحداث قد أدخل السعادة على قلب زوجي، وإنْ لزِمَ الصمت ناحية الموضوع تمامًا، ولا شكّ أيضًا أني بقيتُ لسنوات طويلة مسكونة بحزن عميق أَسَفًا على حدوث شيء لم أفكّر قط في أنه سيحدث.

في الأيام التي كنت أستيقظ فيها منقبضة الصدر، كنت أدركُ أن حُلمًا ما قد مارس دوره لمحو أثر ما حدث. ومن بين أشدّ الأحلام غرابة حُلم وجودي في حفل يضمّ بعض الأصدقاء، الذين راحوا ينادونني للانضمام إليهم لأن باول ريه بينهم.

بدأت أفتّش عن باول وسطهم فلم أجده. قصدت غرفة الملابس التي يحتفظون فيها بمعاطفهم، فوقع بصري على رجل بِكرشٍ كبيرة، جالسًا متخفيًا وراء المعاطف المعلّقة ويداه مطويتان على حجره، كنت عاجزة عن التعرّف به من فرط سَمَانته، وكانت عيناه شبه مغمضتيْن من كثرة الشحوم حولهما كما لو أن قناع الموت المصنوع من اللحم يغطّي ملامحه، قال بنبرة ملؤها الرضا: "لن يعثر عليَّ أحد وأنا بهذا الشكل.. أليس كذلك؟".

أنهى باول ريه دراسته في كلية الطب، ثم سافر إلى بلدة "سيليرينا" جنوب "إنجادين" ليعمل طبيبًا في خدمة الفقراء. وهناك في "سيليرينا" سقط من فوق أحد المنحدرات الجبلية ليلقى حتفه.

الفصل السادس
بين الناس

كيما أوجز في عجالة قِيمةَ روسيا بالنسبة إليَّ، سواء في الماضي أم الحاضر، قررتُ إغفال ذكر السنوات التي خالطتُ فيها البشر أو السنوات التي طفتُ فيها بلدانًا كثيرة. يعود سبب ذلك جزئيًّا إلى أن تنوّع تجارب الاختلاط بالناس وسرد انطباعاتي الشخصية عنهم، سيفسد متعة الحكي.

في هذه الأحوال يجد الإنسان نفسه ملزمًا على الدوام بأن يختار: إما أن يوغل ليلمس لبّ القضية ملامسة عميقة شاملة، وإما أن ينزلق ليقع في خطر التأكيدات المتسرّعة أو الانطباعات العشوائية، فيتورّط في مناقشة سفاسف الأمور، وهو ما يشكّل أساس معظم ما نصدره من أحكام. فما دام الأمر متصلًا بإنسان اقتربنا منه بالفعل، يكفينا أن نقدّم شهادة محايدة عنه.

ولكن السؤال: ما الذي يعنيه حقًّا الاقتراب من إنسان؟

الاقتراب من إنسان معناه: حدوث لقاءٍ ينقلنا إلى بقعة لم يدُر بخلدنا قط أننا ذاهبون إليها، شيء أشبه بموعد غرامي خارج حدود العالم الذي رسمه عقلنا. وما يستمرّ من تجربة الاقتراب لا يمكن التعبير عنه إلا تعبيرًا مجازيًّا باستخدام الشعر، لأنَّ كل ما يُحسّه الإنسان بالتجربة ينطوي في جوهره على شيء من الشاعرية.

ومن هنا ليس في جعبتي الكثير لأقولَه عن السنوات العشر التالية لزواجي برغم أنها كانت سنوات حافلة، خالطتُ فيها شتّى صنوف البشر. شاءت إرادة القَدَر أن أقابل كثيرًا من البشر، وبدأت أفهم كثيرًا عن حياتهم وأفعالهم، لكن طبعي الميّال إلى العزلة جعلني أنتقل من صداقة فرد إلى فرد مثلما ينتقل المرء من حوار إلى حوار. احتفظنا مدة من الوقت بشقّة العزوبة التي كان يسكنها زوجي في حي "تمبيلهوف" في برلين، ثم انتقلنا بعدها إلى منزل يقع وسط بستان من أشجار الدردار. كانت في نيّة صاحب المنزل تزويد المنزل بديكور داخلي فخم، ثم طرأت بعض الصعوبات التي حالت دون تنفيذ خطّته، فاستطعنا استئجار المنزل بثمنٍ بخس.

عشنا أغلب الوقت تقريبًا في الطابق العلوي. كانت غرف المنزل من الاتساع والرحابة ما ذكّرني بمنزل والدَي وصالة مدرسة الرقص، وكان المنزل يضمُّ مكتبة عامرة، وغرفتيْن لهما جدران مكسوّة بألواح خشبية تُطلان على شرفة واسعة، فضلًا على خزانات حائطية مُدمجة هائلة العُمق حتى إننا لم نحتج إلا إلى إضافة بعض القطع من الأثاث إلى الموجود بالفعل في المنزل.

وهكذا استقرّ بنا المقام في الجزء الجنوبي من المدينة، حيث وسيلة الانتقال الوحيدة إلى مدينة برلين هي عربات "كريمزير"[1] - كانت

---

(1) يُطلق عليها أيضًا شاربون (في الترجمة الفرنسية والإنجليزية)، وتعني حرفيًا عربات واسعة بمقاعد خشبية طولية على كلا الجانبين، وهو نوع من المركبات التي تجرّها الخيول وتكون عادة مكشوفة، وكانت وسيلة انتقال شائعة في أوروبا في الضواحي النائية في مطلع القرن الماضي (المترجم).

مزودة بزلاجات للجليد في فصل الشتاء - ، تكلفتها "جروشِن"[1] واحد فقط. إلا أنّ معظم من تعرفنا بهم كانوا من سكان الضواحي الجنوبية أيضًا، مثل الكاتب "جيرهارت هاوبتمان" في ضاحية "إركنر" وزوجته ماري وأولاده الثلاثة إيفو، وإيكه وكلاوس، وكذلك أرني جاربورج[2] والشقراء الجميلة هولدِه جاربورج.

أما منطقة فريدريش شاجين فقد سكنها كل من برونو فيلي، وفيلهلم بولش والأخوان هارت، وسرعان ما انتقلت مجموعة ثانية من الكُتاب لتسكن إلى جوارهم، من بينهم أولا هانسون مارهولم، وأوجست ستريندبيرج وغيرهما مِن كنا نلتقيهم في حانة *Schwarzes Ferkel* (الخنزير الأسود) في برلين. ما زلتُ أذكر أول لقاء جمع بيننا في الشرفة المُحاطة بالورود، ومن ورائها غرفة الطعام؛ كنت أنظرُ إلى ماكس هالبي بجسده الضامر وإلى جانبه عروسه اليافعة التي بدت وكأنها مريضة نفسيًّا، وإلى المائدة أرنو هولز، ووالتر ليستيكو، وجون هنري ماكاي، والشاعر الألماني ريتشارد ديهميل الذي كان ما يزال مُبغِـضًا لاسمه وغيرهم.

أَلَّـفـتْ مسرحية "قبل طلوع الشمس" بين قلوب الجميع؛ إذ كانت مسرحية جيرهيرت هاوبتمان الأولى بمثابة شرارة انطلاق المذهب الطبيعي الذي أثار استياء العصر آنذاك، وهي انطلاقة استطاعت الانتصار للاتجاه الأدبي الجديد المُقتصِد في النزعة الغنائية، وإن لم يخلُ من

---

(1) جروشن وصف عام للعملات المعدنية، في الأصل كلمة ألمانية تعني "كبير"، الجروشن (المفرد والجمع) حلَّ محل اسم الشيللينج كاسم شائع لعملة تساوي 12 بفينتج)جزء من المارك الألماني المُبدل باليورو لاحقًا)، حرّفها الأتراك إلى "غروش"، وأخذ عنهم المصريون لفظ "قروش" (المترجم).

(2) كاتب من النرويج (المترجم).

لمسة تعليمية مميّزة فضلًا على ما احتوته من مظاهر الفظاظة التي تستفزُّ أخلاق المواطن البرجوازي.

قبل زواجي تعمَّد باول ريه أن يبعدني عن دائرة المثقفين البوهيميين، فلم نكن نخالط إلا الأكاديميين، لكن الأمور تغيّرتْ بعد الزواج. فلم أكن يومًا مهتمةً بما يهتمون به من الأدب (كان الروس يثيرون اهتمامي في مجالات أخرى غير الأدب). الحقيقة أني كنتُ أجْهَلُ مِن دابة في عالم الأدب، ولم أكن أعرف في هذه المرحلة المبكّرة ضدّ أي شيء تحديدًا تُشنُّ هذه الحرب الفكرية، لكن ما كان يحرّك مشاعري آنذاك هو الجانب الإنساني وحده: السعادة، وحماسة الشباب والثقة بالنفس الساعية إلى تدشين روح جديدة حتى وهم يقاربون أشدّ الموضوعات سوداوية وكآبة.

أفل نجم الجيل القديم من الكُتاب، كما نرى في حالة "فونتانه"[1]، واستسلم "فرتيس ماوتنر"[2] للأمر الراهن، وهو الكاتب الذي جمعتني به أحاديث طويلة منذ أن انتقلتُ من تمبلهوف إلى شمارجندورف، فكنا نتمشّى عبر طريق غابات قصير ينتهي إلى منزله الواقع في ناحية جرونفالد. كانت شهرة هنريك إبسن داخل ألمانيا عاملًا مهمًّا للتعرّف بعوالم الأدب، حيث عرّفني زوجي بأعمال إبسن غير المترجمة، فكان يقرؤها أمامي بصوتٍ عالٍ بالألمانية.

---

(1) المقصود تيودور فونتانه، وهو واحد من أهم روائيّي الأدب الواقعي الألماني، توفي سنة 1898 (المترجم).

(2) المقصود فريتس ماوتنر، كاتب وصحفي نمساوي، مات سنة 1923، كان من دعاة الشك الفلسفي المستمد من نقد المعرفة الإنسانية وفلسفة اللغة، واستلهمَ منه الفيلسوف النمساوي لودفيج فيتجينشتاين أفكارًا كثيرًا (المترجم).

ظهرتْ حركتان من حركات المسرح الحرّ، صمدتْ إحداهما، وهي تلك التي أسّسها أوتو براهم وتولى زمام المبادرة فيها بشكل متزايد بالتعاون مع هنريك إبسن وجيرهيرت هاوبتمان. وقد ربطتني أواصر صداقة طويلة ممتدة الأجل بماكسيميليان هاردن؛ المؤسس المشارك لحركة المسرح الحرّ (امتدت الصداقة حتى نشوب الحرب العالمية الأولى).

أيضًا تصادقتُ مع د. كارل هاوبتمان، الذي كان يحاول آنذاك أن يحفر اسمًا بارزًا في عالم الفلسفة، لكنه أبدى حماسة قوية لفن الدراما المسرحية، وقدَّم أوتو هارتليبين[1] ورفيقته "موبشن"[2] مساعدة قوية عبر إسهاماتهما المسرحية. وهكذا تخلّى كثير من الشباب عن طموحاتهم الأكاديمية لمصلحة أهدافهم الأدبية والسياسية. ما أزال أذكر إلى اليوم الأمسيات التي كنت أقضيها في نقاشات طويلة مع يوجين كوهنمان[3]، الذي بدا لي من كلامه آنذاك نفوره من مواصلة طريقه في السلك الجامعي. من بين أفراد الدائرة القريبة مني أخصُّ بالذكر جيورج ليدبور[4] لأهميته بالنسبة إليَّ على المستوى الإنساني، ولتكن السطور التالية تحيّة واجبة له.

في تلك الأثناء كنا نسكن شقّة إضافية ثانية في شمارجيندورف، وهي ضاحية واقعة على أطراف الغابة، وكانت شقة صغيرة للغاية بحيث لم نكن نحتاج إلى فرشها بكثير من الأثاث.

---

(1) المقصود أوتو هارتليبين، المتوفى سنة 1905، كاتب مسرحي ألماني نالت أعماله ذيوعًا هائلًا في ألمانيا في أواخر القرن التاسع عشر (المترجم).

(2) اسم التدليل الذي كان يُطلقه الكاتب هارتليبين على عشيقته "سيلما هسّه" (المترجم).

(3) المقصود يوجين كوهنمان، المتوفى سنة 1946، فيلسوف وأستاذ ألماني في علم الأدب، ألَّفَ لاحقًا أعمالًا مهمة عن تأريخ الأدب الألماني والروسي (المترجم).

(4) صحفي وسياسي ألماني توفي سنة 1947 (المترجم).

ثم حدث أن سافرتُ إلى باريس في سنة 1894، وهي السنة التي شهدت تحوّلات مهمة على المشهد الأدبي، وكانت سنة اغتيال "كارنو"[1]، وانخرط الناس من كل التيارات والمذاهب في مجال السياسة، وأتيحت لي فرصة الاستماع إلى خُطَب "ألكسندر ميرلان" و "جان جوريس" داخل الجمعية الوطنية [البرلمان الفرنسي]. وعلى غرار حركة المسرح الحرّ الألمانية، نشأت في فرنسا مؤسسة *Théâtre Libre* (المسرح الحرّ) على يد الممثل والمخرج المسرحي الفرنسي "أندريه أنطوان"، إضافة إلى شركة *Théâtre de l'Œuvre* التي أسَّسها المخرج والممثل الفرنسي لوجن بو.

استطاع المخرج أندريه أنطوان أن يلتقطَ فتاة مسكينة نحيلة الجسد من الشارع لتؤدي دور البطولة في مسرحية هاوبتمان "هانيللا"، وقد شاركتها في بطولتها الممثلة "باولا كونراد" (زوجة الممثل المسرحيّ شلينتر)، استطاعت الفتاة أن تؤدي ببراعة فائقة لفتتْ إليها الأنظار (إلا أن اللغة الفرنسية كانت تشوّه لغة هاوبتمان الشاعرية عندما كانت البطلة هانيللا تقول مثلًا بالفرنسية: *je sens le parfum de lilas*، بدلًا من نطقها في كلمة واحدة: أريج الليلك = *Fliederduft*).

أما أكثر تمثيل مسَّني لشخصية "هانيللا" فكان عرضًا مسرحيًّا شاهدته في روسيا، وكان تأثيره العميق في نفسي راجعًا بالأساس إلى طريقة الأداء البيزنطية الساذجة لتصوير الجنّة والمسيح المُخلّص.

في باريس وجدتني أمام المجتمع الأدبي النابض بالحياة نفسه، ووجدتني أمام التيارات التي كان يعارضها الجيل السابق من الأدباء منتظرًا اندثارها. وفي مقرّ دار النشر الجديدة التي أسسها الناشر الألماني

---

(1) سادي كارنو، سياسي فرنسي صار الرئيس للجمهورية الفرنسية الثالثة حتى اغتياله على يد فوضويّ إيطالي (المترجم).

ألبرت لانجين مع الدانماركي ويلي غريتور تعرفتُ بالأديب النرويجي كنوت هامسون، الذي بدت لي هيئته آنذاك مثل إله من الآلهة الأوليمب. وكانت الجالية الإسكندنافية ممثلة بقوة داخل فرنسا، حتى قبل أن يصير ألبرت لانجين جزءًا منها من خلال الزواج من عائلة بيورنسون [1].

في البداية عشت مع صديقة دانماركية تدعى تيريز كروجر. ما أزال أحتفظُ بذكريات حيّة تخصّ صديقي هيرمان بانج[2]، الذي كان يعيش في سان جيرمان، وكان رجلًا مفعمًا بالنشاط برغم اعتلال صحّته الدائم. ما أزال أذكر إحدى محادثاتي معه. كان يرتعش وهو يحكي كيف كانت تأخذه رجفة قوية عندما يبدأ تأليف عمل أدبي جديد، فكان يهرع إلى النافذة ليطلَّ منها، باحثًا عن أي شيء يصرف انتباهه عن مواصلة الكتابة.

بل إنه في مقدوركَ أن ترى بعينيك تأثير عملية الخلق الفني في أعصابه عندما تنتقل مادة الإبداع من أعمق طبقات وعيه المكبوب لتطفو على السطح، مثلما ترى مشاعر الخوف التي تسيطر عليه في أثناء انتقال مادة الإبداع هاته. وبرغم علمي بآلام الظَّهر المزمنة التي كان يعانيها هيرمان، لم أقابله مرّة إلا كان مسكونًا بفكرة قدرته على تحويل مخاوفه وهواجسه النفسية إلى لون من ألوان النشاط البدني. وسيسهل على أي شخص يعرف مدى ارتباط روايات بانج بذكرياته الشخصية (كرواية البيت الأبيض والبيت الرمادي)، أن يدرك على الفور كـمَّ الأهوال النفسية التي صاحبتْ تأليف هذه الروايات.

---

(1) المقصود بيورنستيارنه بيورنسون، المتوفى سنة 1910، وهو كاتب وشاعر وروائي نرويجي، من أعلام الأدب النرويجي المعاصر، نال جائزة نوبل سنة 1903 (المترجم).
(2) كاتب دانماركي توفي سنة 1912، رائد في الكتابة الانطباعية (المترجم).

ثمة مخلوق صغير كان يرافقني أينما ذهبت؛ جرو "بوديل" لطيف، أقرب إلى "بوبي" صغير نسيتُ من أين أتى. عندما كنت أعود إلى غرفتي في أوقات متأخرة من الليل، كنت أراه واقفًا على قائمتيه داخل السلّة الصغيرة التي ينام فيها، يرمقني بنظرات ثاقبة متشككة وكأنه يسألني أين ذهبتُ وماذا كنت أفعل من دونه.

أما نهارًا فكان يتسبّب في إزعاجي بسبب ولعه "بالعادة القديمة"، أقصد عادة "من شابه أباه فما ظلم". عندما كنا نخرج إلى الشوارع التي كانت مأهولة آنذاك بالعربات التي تجرّها الخيول بدلًا من سيارات اليوم، كان يفلت مني، محتفظًا داخل فمه الصغير جدًّا، والمفتوح بتفاحة كبيرة، محاولًا التفتيش عن ركن منزوٍ ليأكلها بعيدًا عن الأنظار، فلم يكن أمامي إلا الاندفاع وراءه، ثم يتبعني بعض المارّة الذين كانوا يركضون وراءه: "ها هو ذا.."، ويحاولون الإمساك به، وهو يستبدّ به الهلع خوفًا على غنيمته.

وفي باريس أمضيتُ مع الكاتب فرانك فيديكيند[1] أوقاتًا أكثر مما أمضيتُ مع غيره، وكان ذلك في أواخر إقامتي، لأنه في بداية تعارفنا في بيت الكونتيسة المجرية "نيميسي" *Nemethy*، ثم ذهابنا إلى مطعم حساء البصل الواقع ناحية "*Les Halles*"، نشأ سوء تفاهم كان هو السبب وراءه مثلما حكى هو لاحقًا دون أن يعفي نفسه من الذنب فيما حدث (وظّفتُ هذا المشهد لاحقًا في إحدى قصصي القصيرة).

كان فيديكند يجلس بانتظام في أحد المقاهي الموجودة بالحي اللاتيني، إلى طاولة رخامية صغيرة مواجهة لباب المقهى، منغمسًا في خربشة قصائد جديدة، كانت قوام ديوانه الشعري القادم "أغاني المشنقة"، من بينها مرثية تقول أبياتها:

---

(1) كاتب مسرحي ألماني شهير، توفي سنة 1918 في ميونيخ (المترجم).

"صحيح أني قتلتُ عمّتي، لكنها كانت عجوزًا واهنة، أما أنتم أيها القضاة المتعطشون للدماء فتسلبونني شبابي".

كانت يد فيديكند أشبه بيد جزار حقيقي، برغم ذلك كان يتمتع برقّة طباع، تكاد تكون مفرطة. من دون مأوى ولا مورد رزق كنتَ ترى فيديكند جالسًا وسط العاملات الفقيرات[1] (كانت هذه التسمية قد اختفت بالفعل)، مؤملًا أن تصحبه إحداهنَّ إلى شقتها - بعد أن يغلق المقهى أبوابه وتمتلئ محفظتها بما يكفي من المال - ، فتأويه وتطعمه وتسقيه وتشمله بشيء من الرعاية والاهتمام. لكن فرانك فيديكند كان يتردّد إلى أماكن أخرى. أذكر أنه صحبني ذات مرّة - بزهو وسعادة من جانبي - إلى أفقر حجرة في أفقر حي بباريس، حيث أمضينا المساء كله هناك في غرفة امرأة ستينية، عرفتُ أنها أرملة جورج هيرفيج[2]، وكانت تعاني داء الاستسقاء، فجلبَ لها في هذه الليلة وجبة اختارها بعناية.

ولو اختار أحدٌ زيارة النوادي الليلية في الحي اللاتيني في صحبة صحافي واحد أو اثنين فسبب ذلك هو الاهتمام برؤية بنات الهوى، على أنّ هذا الاهتمام راجع إلى سببين؛ أولهما ما تتمتع به بنات الهوى من صراحة ومكاشفة فرضتها عليهنَّ طبيعة المهنة التي لا تقتصر على الملامسة الجسدية وحسب، بل أتاحتْ لهنَّ الاقتراب والاقتران بكل ما هو بشري، والتخلّص من عقدة احتقار الذات، والشعور بالخزي، وخشية افتضاح أمرهنّ.

---

(1) وردت في الأصل *grisette*، تشير الكلمة إلى امرأة من الطبقة العاملة الفرنسية من أواخر القرن السابع عشر، وظلت شائعة الاستخدام بعدها، ويشير الوصف إلى النسيج الرمادي الرخيص لفساتين هؤلاء النساء في الأصل، ثمّ تبدّلت الدلالة ليشمل الوصف الفتاة العاملة المغازِلة (المترجم).

(2) كاتب وشاعر ومترجم ألماني، توفي سنة 1875 (المترجم).

أما السبب الثاني فهو أن السواد الأعظم منهنَّ كن يقدّمن - عبر أفعالهن وسلوكهنّ - صورة حية وكاشفة حول التقاليد السائدة في ثقافة كل واحدة من أعلاها إلى أدناها، وهو ما صنع من تجربة الحديث العابر مع بنات الطبقات الدنيا تجربة ثرية مهمّة.

ويصدق الأمر بالمثل على بنات الطبقات العليا، فإزجاء المعاملة الرقيقة للمرأة هو أكثر ما يمنحها شعورًا بالأمان، حتى لو تعرّض لها أحد بالمضايقة في أثناء عودتها إلى منزلها ليلًا على سبيل المثال فربما يخجل الرجل الباريسي من مساعدتها. على أي حال ليس ثمة ما يغري في معرفة الكثير عن الآخرين. وهذا هو نقيض الانطباع الذي تولّد عندي لما كنتُ في روسيا.

بعد برلين، كانت باريس هي أول عاصمة عالمية أعيش فيها مدة طويلة، وكانت كل تجربة مررتُ بها في باريس تختلف اختلافًا واضحًا عما سواها من تجارب اكتسبتُها من قبل. ففي غمرة سحرها الممتلئ نضجًا كانت باريس تبدو في عيني مثل معشوقة تواصل وضع المساحيق ووضع مزيد من الحُلي، وكأنها برغم انطفاء جذوة الشباب، كانت ملفوفة بزينة أبدية لا ينال منها الصدأ ولا تقرضها العثّة.

في إحدى زياراتي المتكررة لمتحف اللوفر تصادف أن قابلت امرأة أحبُّ أن أروي حكايتها هنا. كانت سيدة عجوزًا من إقليم الإلزاس، اسمها مدام "تسفيلينج"، تنفق على ابنها الوحيد المصاب بداء السُّلّ من بيع الزهور. وفي إحدى الأمسيات قررتُ المرور بشقّتها الصغيرة لتفقّد أحوالها هي وابنها، لكنني في الطريق وجدتُها مغشيًّا عليها وممدّدة في وسط الشارع وإلى جوارها سلّة كبيرة مملوءة عن آخرها بأزهار ربيعية طازجة

مجلوبة للتوّ من سوق "لي هال"[1]، فقررت على الفور الوقوف مكانها لبيع الأزهار.

في تلك اللحظة كانت إلى جواري صوفي فراين فون بيلوف التي تحمّستْ للفكرة، فارتدينا على الفور ملابس "إلزاسية" مثل ملابس السيدة "تسفيللينج"، وبقينا حتى الثانية والنصف فجرًا نبيع الزهور للرجال المتردّدين إلى المقاهي المنتشرة في الحي اللاتيني، وكانت حصيلة البيع سخية. وهنا اكتشفت كم تعامَلَ الرجال تعاملًا لطيفًا مع الظهور المفاجئ لبائعتي الورد الشابتيْن الطويلتيْن (كانت صوفي أطول مني قليلًا)، وذلك على عكس البائعات الفرنسيات القصيرات الجميلات، وكيف كانوا يطرحون علينا أسئلة لا تخلو من لطفٍ جمّ.

وفي صباح اليوم التالي عرفنا من بعض الأصدقاء الصحفيين أن الحظّ حالفنا لأننا لم نقض الليلة في قسم الشرطة بسبب بيع الزهور من دون الحصول على رخصة مزاولة مهنة رسمية.

من بين أعضاء الجالية الروسية عقدتُ صداقة مع مهاجر روسي وطبيب شاب اتهم بالتورط في اغتيال القيصر "ألكسندر الثاني"، وأرسِلَ إلى سيبيريا ليقضي هناك عقوبة أشغال شاقة مدّتها أربع سنوات، ثم لاذ بالفرار لاحقًا إلى باريس.

كان سافيلي قوي البنية كالثور (كان قادرًا على انتزاع المسامير من الحائط بأسنانه)، وقَدَّمني إلى أعضاء الجالية الروسية. وبعدها بستة أشهر، اشتدّتْ حرارة الصيف اللاهبة، فأسرعنا في السفر إلى سويسرا في رحلة رخيصة بالقطار. تسلقنا أحد الجبال الصغيرة، وهناك وجدنا

(1) سوق شعبي في باريس كان مخصصًا لبيع الطعام الطازج من خضراوات وفاكهة ولحوم (المترجم).

كوخًا صغيرًا مُطلًّا على المروج الواسعة نزلنا فيه، وكنا نقتات الحليب والجبن والخبز والتوت البري. ونادرًا ما كنا نرجع إلى مدينة زيوريخ، وتحديدًا حينما نتحرّق شوقًا إلى قليل من الرفاهية في مطعم سويسري فاخر، ونضطرّ إلى أن ندفع مقدمًا ثمن الوجبات (وهناك صادفتُ الكاتب فيلهيلم بولش، مثلما قابلتُ مصادفة في باريس الكاتب هارتليبين ورفيقته موبشن).

وهنا تحضرني نادرة طريفة لم تغادر ذاكرتي قط منذ أيام إقامتي وسط المروج؛ في أحد الأيام كنا نمشي حفاة الأقدام - كما اعتدنا أن نمشي دومًا فوق المروج الناعمة - حتى وصلنا بغتة إلى منحدرٍ يفضي إلى حقل من التوت الأسود الزاحف. كان الظلام قد هبط تدريجيًّا ولم نعد نعرف أي طريق نسلك للخروج من هذا الحقل، وهكذا مشينا نخبط خبط عشواء، ومع كل خطوة نخطوها، ومع كل وقفة نقفها، كان صوتنا يعلو بالصراخ من فرط الألم، وبعد مدة رجعنا إلى المروج الناعمة والدموعُ الغزيرة تغرق أقدامنا.

في أثناء وجودي داخل حقل التوت الأسود انقدحت بذهني فكرة مفاجئة، شيء مثل صورة بدائية عتيقة أو ربما ذكرى، انتابني شعور إنسان سقطَ من جنّة عدن إلى جحيم الحياة.

لحظة ثانية طافتْ بذهني. بينما كنا نجفّف العرق من فوق وجوهنا ونزيل الدماء من أقدامنا نسينا كل الآلام التي ألمّتْ بنا عندما قال سافيلي: "ربما يجدر بنا أن نطلب الصفح من التوت البري وأشواكه، وليس العكس، لأننا نحن من وطئناه بأقدامنا بدلًا من أن نقبّله بشفاهنا".

استفزّني شيء بداخلي، ودفعني لأقول بثقة:

"نعم، أليس سوء التفاهم هذا هو مصدر الشرّ في الدنيا؟".

لبثت لحظات الضحك والغضب تموج بعضها في بعض لتهيئنا لمغامرة جديدة مع التوت البري الحقيقي، أقصد أقدارنا في الحياة. بعد بضعة أسابيع عُدنا مجددًا إلى دوامة المدينة الجميلة، وقد اصطبغتْ بشرتنا بسُمرة مُحببة، وإن كان ذلك غريبًا على عادة هذه الأيام. ومنذ عودتنا حتى أواخر الخريف عقدتُ صداقات عديدة ومررت بتجارب كثيرة لم أكن لأفوّتها، واستمرّ الأمر هكذا حتى أزف وقت الرحيل؛ عندما هتفَ بي هاتف في إحدى الليالي، فأدركت من فوري أن الرحيل قد صار محتومًا. أنعمتُ التفكير في هذه المسألة لكني لم أصل إلى نتيجة تدلّني متى حدث ذلك، في البداية فرحتُ فرحًا شديدًا بكل ما كان يحيط بي، وبأني كنت منشرحة الصدر لاستقبالها، ثم تبدّدت هذه الفرحة ليحلّ محلها ضيف ثقيل لجوج، لم يُدْعَ إلى حفل حياتي من الأساس.

الحقيقة أني لم أكن لأتذكّر ليلة عودتي إلى ألمانيا لولا رسالة غير مهمّة (مكتوبة في شمارجندورف في 22 أكتوبر 1894)، وصلتني مؤخرًا من صديقة، كانت قد احتفظتْ بها وبعثتْ بها إليَّ:

"انقضت ثلاثة أسابيع أو أكثر منذ أن غادرت باريس. كان رحيلًا مباغتًا لي وللجميع، غادرتُ سرًّا وبدون كلمة وداع. ومثلما غادرتُ سرًّا وصلتُ إلى ألمانيا سرًّا من دون سابق إنذار، وفي وقت متأخر من الليل. تركت أمتعتي في المحطة، وخرجت، لأمشي في الطريق الهادئ عبر الحقول المظلمة في القرية. كانت تمشية جميلة وغريبة. وبرغم أني لم أكن أرى شيئًا تقريبًا شعرتُ بفصل الخريف في ملمس الأوراق المتساقطة والرياح العاصفة، وكنت سعيدة. كان الوقت ما يزال صيفًا في باريس. كانت القرية كلها تغطّ في نوم عميق، ولم يكن يضيء البقعة سوى مصباح في غرفة زوجي، الذي اعتاد استخدامه لرؤية الكتب المرصوصة أمامه. استطعتُ من موقعي وسط الشارع تمييز رأسه بوضوح. كان الباب

موارَبًا كالعادة، دخلتُ بهدوء شديد. أطلقتْ كلبتنا "لوتي" نباحًا عاليًا من مكانها في غرفة المعيشة، كانت تعرف وقع خطواتي جيدًا. بالمناسبة لاحظتُ أن "لوتي" تحوّلت إلى وحش حقيقي وزنًا وحجمًا، ولا أظن أنها تثير إعجاب أحد سوانا.

لم يغمض لنا جفن تلك الليلة، هبطتُ إلى المطبخ وأشعلت بعض الحطب ونظّفت المصباح المغمور بالتراب، ثم تسللتُ إلى الغابة. كان ضباب الفجر ما يزال عالقًا فوق الأشجار العالية، ولمحتُ غزالًا يمرق بسرعة بين أشجار الصنوبر، خلعتُ حذائي وجوربي (وهو ما لم أكن لأفعله في فرنسا)، فغمرتني سعادة بالغة".

في تلك السنوات كانت الصديقة الوحيدة المقرّبة إليَّ هي "فريدا فراين فون بيلوف"، التي كنت قد تعرفتُ بها في تيمبيلهوف. إلا أن الموت خطفها مبكرًا في سنة 1908، وهي على أعتاب الخمسين. إبان مقامي في باريس كانت "فريدا" قد وصلت قادمة من "محمية شرق إفريقيا الألمانية"[1] لتقيم عندي، حيث كانت تنتظرها شقيقتها "صوفي بيلوف"، التي ساعدتني في بيع الزهور لمصلحة مدام "تسفيللينج".

وفي السنة التالية جاءت إلى روسيا لزيارة أمّي ورؤية أشقائي، ولا سيما أخي يوجين الذي ربطته بها صداقة عميقة. كان ثلاثة من أشقائها قد لقوا حتفهم إثر حادثة مأساوية، حيث مات شقيقاها الأصغران وأختها مارغريت فون بيلوف، التي كانت معروفة ككاتبة، إثر سقوطهم أسفل الجليد في أثناء محاولة لإنقاذ صبي غارق. كانت فريدا سوداوية المزاج

(1) *Deutsch - Ostafrika*: مستعمرة كانت تابعة للإمبراطورية الألمانية في شرق إفريقيا ضمّتْ تنجانيقا ورواندا وبوروندي الحديثة، أُسست سنة 1885 وانتهتْ بعد خسارة ألمانيا الحرب العالمية الأولى (المترجم).

برغم ما كانت تتحلّى به من روح قتالية "رجولية" لخوض غمار الحياة، وهي الإرادة التي دفعَتْها إلى السفر إلى محمية شرق إفريقيا في ريعان شبابها مدة الانتصارات المدوّية التي حققها "كارل بيترز"[1] آنذاك. وكان يحلو لها أن تعزو هذا المزيج العجيب بين الطاقة المتوثّبة والفتور إلى انحدارها من سلالة عتيقة نالت منها خطوب الدهر، وانتهى بها المشوار إلى التسليم والتضحية بالذات.

ثم إننا قضينا معًا بضعة أشهر في مدينة فيينا - تحديدًا سنة 1895 - عندما سافرتُ إلى هناك للمرة الأولى قادمة من سان بطرسبيرج، ولما كنا أعضاء في حلقة برلين الأدبية، كنا على معرفة بحلقة فيينا كذلك. ففي أثناء إقامتي بباريس تبادلتُ بعض الرسائل أنا والكاتب النمساوي أرتور شنيتسلر، وكان عندي في مرتبة خاصة لا يدانيه فيها أحدٌ من أقرانه من الأدباء.

كانت مسرحيته "مغازلة" *Liebelei* قد لاقت استحسانًا هائلًا، شكَّل حوله جماعة أدبية ضمَّتْ ريتشارد بيرهوفمان، وهوجو فون هوفمانشتال (الذي كان ما يزال شابًا غضًّا في بزّته العسكرية) وفيليكس سالتن وآخرين. وبعيدًا عن الزيارات الشخصية اعتدنا أن نلقاهم كل مساء تقريبًا على المقاهي، على سبيل المثال مقهى *Grien - Steidl*، وهذا ما أتاح لنا فرصة التعرف بالملامح المميزة لوجه الحياة الثقافية في فيينا.

في تلك المدة كنت أسكن قريبًا من كاتدرائية القديس "شتيفان"، وتحديدًا في فندق ممتاز داخل شقة فندقية ذات غرفتين صغيرتين للغاية، لكنهما مؤثّثتان بأثاثٍ فاخر.

---

(1) مستكشف وسياسي ومؤلف، وكان الحاكم الاستعماري الألماني وأحد الداعمين الرئيسيين لإنشاء المستعمرة الألمانية في شرق إفريقيا (المترجم).

وقد رسمَ كتاب "بيتر ألتينبيرج" الأول الذي جعل عنوانه "من وجهة نظري"، صورة للأوقات التي أمضيتها هناك والمحادثات التي جرت بيننا. ولو حاولتُ عقد مقارنة بين أجواء مدينة فيينا وأجواء غيرها من العواصم الكبرى، لقلت: إن فيينا مدينة تجمع بين النزعة الفكرية/ الروحية والنزعة الإيروتيكية في آن واحد.

ففي أماكن أخرى قد يُلاحظ أنّ الحد الفاصل بين الإنسان المقبل على متع الحياة وبين رجل العلم المنطوي أو الباحث الأكاديمي، مرسوم بدقّة وحزم، أما في مدينة فيينا فالفارق بين كلا الرجلين مُشرَّب بروح شهية جذابة، قادرة على الارتقاء بصورة البنت الحُلوة - بوصفها بنتًا حلوة فقط - إلى مرتبة عالية مفعمة بروح الإيروتيكيا الذكية الساحرة، التي من شأنها أن تخفّف قليلًا من حدّة أشدّ المهن إغراقًا في الجدية والطموح.

وهذه الميزة الفريدة هي ما تفسح الطريق لتكوين صداقات متينة بين الكُتاب الرجال برغم ما يتخلّل علاقاتهم في العادة من شوائب الغيرة على مستوى التنافس على النساء وعلى مستوى الطموح المهني، وهو ما رأيته شكلًا متفردًا ولافتًا من أشكال الصداقة.

كان الكاتب أرتور شنيتسلر منسجمًا داخل هذا الإطار تمام الانسجام، وربما يكون هذا هو الجانب الأشدّ إشراقًا في حياته التي كانت مصبوغة بمسحة كآبة خفيفة. وأقول أيضًا: ربما لو لم تمزّقه الصراعات النفسية الداخلية، لاستطاع أن يحقّق درجة الاكتمال الروحي المنشودة، لو أن السحر الروحي/ الفكري لمدينة فيينا مسَّ روحه، سواء على صعيد الحب أو على صعيد الطموح الأدبي.

أما الكاتب بيتر ألتينبيرج فقد لَزم مسافة من الكتابة السائدة، وإن لم ينطبق ذلك على مستوى صداقاته مع الآخرين. فلو جلستَ معه فلن

تعرف أكنت تجلس إلى كاتب أم كاتبة، بل ستشعر أنك جالس إلى جوار مخلوق من مملكة ثالثة. يؤثر عنه مقولة مشهورة:" ***mon verre est petit, mais je bois dans mon verre***"[1]، وهي تُعد حُكماً صائبًا. ذلك أن الجديد والجذاب في نصوص بيتر ألتينبيرج أنها قائمة على الطريقة الغامضة التي يسعى بها إلى وقف التطور الداخلي لروح الكاتب عنده، فيصنع من الروح المحبوسة في مملكة الطفولة فرادة أدبية/ شاعرية تميّزه عن غيره، وهو ما نراه متجليًا بوضوح في شخصيته أيضًا.

وفي مرحلة لاحقة اعتدتُ المرور بالكاتبة ماري فون إبنِر إيشينباخ[2] لدى زيارة فيينا، وقد تعرفتُ بها للمرة الأولى بفضل الكاتب فريتس ماوتنر. ثم رأيتها آخر مرة في سنة 1913، وذلك قبل سنوات قليلة من وفاتها التي علمتُ بنبئها من ابنة أختها، الكونتيسة "كينسكي".

لن أنسى ما حييتُ الساعات التي قضيتها برفقتها، ولن أنسى السكينة التي غشيتني في حضرتها، ولن أنسى أبدًا، لا أعرف ما الكلمة المناسبة، لِنُسمِّها الفَرادة التي كانت تنبعث من أعماق روحها. عندما تنظر إليها ستلحظ أنها كانت تتعمّد أن تُصَغِّر من وجودها، وكأن عينيها الرماديتين الثاقبتيْن العالمتين بكل شيء تتواريان خجلًا وتواضعًا كي لا يعرف أحد ما تريانه وكأنه سرّ مكنون، وهو السرّ الذي كانت تفضحه نبرة صوتها، والكلمة والنظرة والإيماءة.

---

(1) وردتْ بالفرنسية في الأصل، تعني حرفيًا:" **كأسي صغيرة، لكنها كأسي التي أشرب منها**"، وهي استعارة يشير بها الكاتب إلى طابع نصوصه الخالية من المعمار الروائي أو الصنعة المحكمة. ربما يجدر بالقارئ أن يعرف شيئًا عن طبيعة بيتر ألتينبيرج (1859 – 1919)، فهو كاتب نمساوي لعب دورًا محوريًّا في نشأة حركة الحداثة في النمسا في مطلع القرن العشرين، تميّز ألتينبيرج بكتابة نصوص قصيرة عصيّة على التصنيف داخل جنس أدبي معروف (المترجم).

(2) كاتبة نمساوية شهيرة توفيت سنة 1916 (المترجم).

لقد ورثنا عنها متلازمة كتم الأسرار وإفشائها في آن واحد، تلك الأسرار المحفوظة في دفء حضورها. تجبرك طبيعة فيينا الخلابة على الخروج إلى نزهات خلوية في المناطق الريفية، وهي الأماكن التي اعتاد الأصدقاء والمعارف الالتقاء فيها.

في صيف السنة نفسها، أي سنة 1895 التقيتُ بعض الأصدقاء في منطقتي "سالزكامرجوت" و "إنسبروك". بالنسبة إليَّ لم أكن أستشعر حلاوة تجربة السفر إلا عندما أرى الغابات والحقول الشائعة وأحسّ بحرارة الشمس، بل والجبال، التي لم أقضِ فيها كثيرًا من الوقت، اللهم إلا بضع رحلات سافرتُ فيها مع أبي وأمي إلى سويسرا في سنوات طفولتي. وفي الشتاء التالي سافرت إلى فيينا مرة أخرى، وفي صيف العام الذي يليه سافرت لتسلّق الصخور في المنطقة الجبلية في النمسا للمرة الأولى في حياتي.

أذكر بشكل خاص جولة طويلة انطلقت فيها من فيينا بصحبة صديق عبر منطقة "كارينثيا" عبر مرتفعات "تاورن" وصولًا إلى مدينة البندقية. وخلال هذه الرحلة البطيئة والممتعة التي قطعتها مع صديقي سيرًا على الأقدام، انطبعت في ذهني ذكرى موقف صغير، لكنه لم يغادرني قط. كان من المفترض أن نصل إلى منطقة "روتجولدين جليتشر" قبل حلول الظلام، لكننا تأخرنا بسبب إبلاغنا وجود ثور هائج هارب عبر المروج. خرج مجموعة كبيرة من سكان جبال الألب المتحمّسين، مدججين بأسلحة يدوية عجيبة للإجهاز على الثور الهائج فالتحقنا بهم.

على مرمى البصر رأينا الثور لبضع دقائق، كان واقفًا على الجانب المقابل من الجبل، لا يفصله عنا سوى مضيق صخري عميق الهوّة. كان الثور واقفًا بجانبه، ورأينا فيه تجسيدًا حقيقيًا لمشاعر القوة والهَوَس، مثله

مثل وثنٍ معبود بالمعنى الأسطوري للكلمة. كنا نشعرُ بالأمان بسبب ابتعادنا عن الثور بمسافة كبيرة، فتسنى لنا تأمّل المشهد.

كان لمنظر الثور وقعٌ مهيب في نفسينا. بالنسبة لي على الأقل لم يفارقني هذا الأثر حتى غادرنا المكان وخيّم الظلام على المنطقة، ورحنا نفتش بين صخور المنطقة وننادي بأعلى صوت لنرى هل ثمّة أكواخ مدفونة بين الصخور نأوي إليها مثلما تروي الحكايات الخرافية.

أما أعذب ذكرياتي عن المناطق الريفية فهي أني رأيت تعاقب ثلاثة فصول ربيع تعاقبًا سريعًا في أثناء رحلتي من إيطاليا إلى الشمال عبر ألمانيا. لم يسبق أن اخترق مناخُ الجنوب حواسي مثلما فعل هذه المرّة، فبرغم أننا كنا فعليًّا في فصل الشتاء، أحسستُ كما لو أننا في شهر مايو، أحسستُ بطقس ربيعي معتدل ليس فيه شيء من حرارة الصيف ولا برد الشتاء، وهو ما أعطاني انطباعًا بأن ثمّة طاقة لا تنفد، طاقة يستطيع كل فصل أن يوظّفها حسبما يشاء، وجعلني أدرك أنه لو كانت مَلَكة الإدراك عندنا أرهفَ وأعمق مما هي عليه لوجدنا في انتظارنا ما لا يُحصى ولا يُعد من النعم الأرضية.

وبعدما تشبّعتْ حواسي بكل الفصول، صرتُ قادرة على التعامل مع مناخ وسط أوروبا، برغم المضايقات التي يثيرها، مثل "البلغم"، واضطراركَ إلى إزالة آثار المطر والثلوج من عينيك، ومساعدة القطط الرابضة فوق جذوع الأشجار لكي تتحرّك. لكني برغم ذلك استقبلتُ زهور البنفسج بفرحةٍ بالغة، مثلما استمتعتُ بكل شيء حولي مفعم بروح عاطفية وجدانية مُرهفة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فصار قلبي مسكونًا بالسكينة والصبر والسعادة.

ليس في مقدوري أن أخبركم بالكثير عن ثالث فصل صيف أعيشه في بلاد الشمال، وهو أكثر صيف أحببته منذ طفولتي. فبعد طول انتظار وانجلاء تامٍّ مكتمل، أعلَنَ فصل الصيف قدومه إعلانًا واضحًا وضوح الشمس. فعندما يسمع المرء صياح الديك في أطراف الليل أو عندما يتناهى إليه صوت أغاني الفلاحين العائدين إلى منازلهم، لا يخطر بباله أن يقول: "هيّا لنسرعْ لإنجاز شيء خلال هذا الصيف القصير"، وإنما يفكّر في أن الزمنَ وانصرامه عالقان في مشاجرة بين طرفي النهار، وبين التبكير والتأخير. بعد عودتي إلى المنزل اشتقت إلى العزلة مجددًا، ولم أكترث أي فصل نحن فيه، فأفرغت نفسي بجد لكتابة مقالاتي اليومية كما كنت أفعل سابقًا في كتابة المراجعات النقدية.

كثيرًا ما كان تجوالي يأخذني لأمضي بعيدًا عبر الحقول، سواء أكانت مغمورة بالثلوج أم يغطيها الورق الأخضر اليانع، فأواصل المشي حتى أبلغ منزل صديقتي فريدا بيلوف، التي كانت تعيش آنذاك في بيت قريبتها الكونتيسة آنا - مونشهاوزت - كيوديل، حيث سكنت في حجرتين عامرتيْن بأروع وأندر التحف الفنية التي ورثتها عن عائلتها، فضلًا على عجائب التحف الآتية من شرق إفريقيا.

في مطلع عام 1896 قرّرنا أن نقضي بعض الوقت في مدينة ميونيخ، حيث قابلت المرأة الثانية التي قُدِّر أن تربطني بها علاقة صداقة وطيدة (فضلًا على أننا في السنّ نفسها تقريبًا)، وقررنا أن نظلَّ صديقتيْن حتى يفرّق بيننا الموت. كانت هيلين فون كلوت - هيدنفيلدت من مدينة ريجا في منطقة البلطيق، لكنها كانت تسكن مع أمّها وشقيقتها في مدينة ميونيخ بصفة مؤقتة. وبعد أن أنهت قراءة رواية تولستوي "سوناتا كرويتسر"، ألّفتْ كتابًا ممتعًا يحمل عنوان "امرأة". كانت هيلين تحتفظ بعلاقات قوية مع الألمان، وبعدها بسنة تزوجَتْ بالمهندس المعماري "أوتو كلينجينبيرج".

وبعد مدة طويلة من مغادرة مدينة "جوتينجين"[1] لقضاء فصل شتاء في برلين، كان منزل الزوجية لـ "هيلين كلينجينبيرج" هو مقصدي. والحقيقة أن اختلاف طباع فريدا عن طباع هيلين أشبه باختلاف شاب أسمر عن فتاة شقراء (كان زوجها فريزي الأصل[2] وأطفالها أكثر شقرةً منها). وإن كان تعطّش فريدا إلى المغامرة قد دفعها إلى السفر بعيدًا، فقد سطرَ القَدَر... - كانت تود أن تُحفر على قبرها آية من الكتاب المقدس تقول: *"حِبَالٌ وَقَعَتْ لِي فِي النُّعَمَاءِ، فَالْمِيرَاثُ حَسَنٌ عِنْدِي"*[3] - أقول: سطر القَدَر على جبين هيلين أن ترتبط من أعماقها بفكرة كونها زوجة وأمًّا.

كانت أفكاري على طرف النقيض من أفكار فريدا، لكن ذلك لم يمنع من وجود نقاشات ثرية متواصلة بيننا، وإن كنتُ أكثر امتنانًا لهذا الخلاف على عكسها، لأنها كانت ترغب في أن نكون على وئام واتفاق في كل شيء. كما قلتُ ربطتني بهيلين علاقة خفيّة عميقة، لكن ذلك لم يحُل بالطبع دون أن أسلك طريقًا مختلفًا تمامًا عن الطريق الذي سلكَته. ولم يفرّق ذلك بيننا قط، لأن طبيعة هيلين المُحبّة العطوف تقبّلَتني على حالي تقبلًا متسامحًا غير مشروط، حتى لو كنتُ شيطانة مريدة.

لم تكن الحياة العامة في ميونيخ منفتحة مثل باريس أو فيينا، لكن شوارعها كانت متسمة بالجمال والاتساع والخلوّ من المارة، كما لو كان خلوّها ينادي الناس للتجمّع.

---

(1) ثمة انقطاع زمني، إذ لم تشر لو سالومي إلى تفاصيل انتقالها إلى مدينة جوتينجين مع زوجها كما سيرد لاحقًا (المترجم).

(2) أي من فريزلاند، وهي مقاطعة تقع شمال هولندا (المترجم).

(3) سفر المزامير (16 :6) (المترجم).

وها هنا لا يجد المرء نفسه في "ميونيخ" التي تضمّ السكان الأصليين، بل ميونيخ الضامّة بين جناحيها كل الجنسيات في ألمانيا. وكان التواصل الاجتماعي والاختلاط يجري في زوايا متفرقة من حي "شفابينج، داخل عائلات لها اهتمامات أدبية.

من بين من انتقلوا إلى ميونيخ ماكس هالبي، وفرانك فيديكيند، فضلًا على دار النشر لانجين، ودار بيورنسون لاحقًا. أكثر ما أثار انتباهي شخصية من أبناء البلدة التي تنتمي إليها هيلين، ولم تكن الأخيرة تعرفه شخصيًا، أقصد الكونت إدوارد كيسيرلينج[1] الذي كان قد كُفَّ بصره تقريبًا. وقد حزنتُ كثيرًا لما علمتُ بنبأ وفاته عندما زرتُ ميونيخ بعدها بمدة طويلة. أمّا الكُتاب من أمثال إرنست فون فولزوجين ومايكل جورج كونراد فلم أكن أتبادل معهم إلا كلمات قليلة عابرة، في حين كانت لي أحاديث مطوّلة مع كُتاب شباب من أمثال ياكوب فاسيرمان، الذي سطع نجمه آنذاك بعد صدور روايته "يهود تسيرندورف". وقد توطدتْ علاقتي بأوجست إندِل، وهو فنان تشكيلي ومصمّم معماري، وشغل لاحقًا منصب مدير أكاديمية بريسلاو للفنون، وبقينا على تواصل حتى نهاية حياته. وأنا الآن أشعرُ ببالغ الأسف لأن تكون هذه الكلمات بمثابة نعي لهذا الشاب الذي عاش وحيدًا، مناضلًا ضد مرض مزمن. كلماتي تذكرة بصداقة لا تُنسى وقِيَم إنسانية لا يطويها الغياب. وفي ليلة أثناء حضور أحد العروض المسرحية اصطحبَ ياكوب فاسيرمان صديقًا أراد أن يقدّمه إليّ.

كان هذا الصديق هو راينر ماريا ريلكه.

---

(1) يوهان هاينريش إدوارد كيسيرلينج: روائي وكاتب مسرحي ألماني من أصول بلطيقية (المترجم).

الفصل السابع

مع راينر

لمدة من الوقت كانت تصلني قصائد مجهولة على عنواني الكائن في شيللر شتراسه، في منزل "فورستينهويزرن"، حيث كنت أقيم مع صديقتي فريدا فون بيلوف، كان ذلك في سنة 1897. وبعد تقديم ياكوب فاسيرمان الذي أشرتُ إليه فيما تقدّم، خمّنتُ من الخطّ الذي كُتبت به الرسالة الأولى أن ريلكه هو مَن كان يبعث لي بالرسائل والقصائد.

ثم بدأ يتلو على مسامعي قصائد أخرى، من بينها قصيدة "رؤى المسيح"، لكن رسالته الأولى خلقتْ عندي انطباعًا بأن هذه القصائد لن تروقني. وبرغم أنه كان من المفترض نشر بعض هذه القصائد على صفحات مجلة *Die Gesellschaft* الأدبية، وبرغم أن ريلكه نفسه أرسلَ إليّ بعضًا آخر منها، لم نستطع العثور على هذه القصائد في السنوات التالية، برغم مساعي دار إنسيل للبحث عنها. وهكذا اعتبرنا هذه القصائد في عداد المفقودات.

ثم ما لبث أن اشتهر رينيه ماريا ريلكه بين الناس باسم راينر ماريا ريلكه.

بدأنا نبحث عن مكان نلتقي فيه غير بعيد عن الجبل. وبعد انتقالنا إلى "فولفسهاوزن" غيّرنا منزلنا الصغير، وانتقلتْ فريدا لتسكن معنا. كان منزلًا ريفيًّا محشورًا وسط التلال الصخرية، وكانت غرفتنا فوق حظيرة الأبقار التي ظهرت في الصور الفوتوغرافية التي التُقطَتْ لنا آنذاك، ولم

تكن الأبقار تظهر فيها مُطلة من كوّة الحظيرة. بل التُقطت صور تظهر فيها إحدى المزارعات واقفة أمام البقرة.

وكان في مقدور المرء من فوق سطح البيت أن يرى الطريق المؤدي إلى الريف. أعلى السطح رفعنا أيضًا علمًا خفاقًا مصنوعًا من الكتان الخشِن، صنعه لنا صديقنا الفنان أوجست إنديل، كُتب وسط العَلَم "**لوفريد**"*Loufried*[1]، فنشأت على الفور صداقة وطيدة بين ريلكه وإندل. وقد ساعدنا إندل في تزويد غرفنا المتصلة بمزيد من البطاطين والوسائد والأواني الجميلة. ومع حلول فصل الخريف زارنا زوجي بصحبة كلبتنا "لوتّه" مدة من الوقت. في تلك الأثناء كان الكاتب ياكوب فاسيرمان يأتي لزيارتنا من حين إلى آخر، مثلما كان يزورنا آخرون.

في المكان الأول الذي سكنتُ فيه كان يتردد إليَّ رجل أصله من سان بطرسبيرج ليعلّمني اللغة الروسية (لم أكن أطيقه). وبالرغم من أن ريلكه الشاب قد كتب ونشر حتى ذلك الحين عددًا هائلًا من القصائد والقصص، فضلًا على محاولة نشر هندباء برية [2]*Wegwarten*، لم تنبع قوّة ريلكه الحقيقية من استعداده ليصير شاعرًا كبيرًا في المستقبل، بل مِن خِصاله الإنسانية الفريدة. كان ريلكه يشعر منذ بواكيره الأولى، بل أقول: منذ نعومة أظفاره بأن ربّة الشعر تناديه وأن الشِّعر هو غايته المحتومة التي لا يجوز له أن يحيد عنها، وكان متوهجًا على الدَّوام بهذا الحُلم، فلم يبالغ

---

(1) بعد بحث اكتشفتُ أنه الاسم الذي اختارته سالومي لتطلقه على ذلك المنزل الريفي، وفي الأصل *Loufried*، حيث يشمل اسمَي الصديقتيْن **Lou** = لو سالومي و *Fried* = صديقتها فريدا (المترجم).

(2) هندباء برية بتعبير ريلكه قصائد مُهداة إلى الشعب، وكانت محاولة مبكّرة من ريلكه لطباعة ونشر دورية بسعر زهيد لتثقيف الناس خلال إقامته في براج سنة 1896، وضمّ العدد الأول أشعاره، والثانية مسرحية له لكنها توقفت بعد وقت قصير (المترجم).

يومًا في تقدير قيمة مُنجزه الشعري، بل كان إنجازه حافزًا لأن يواصل تجريب طرائق تعبير جديدة، فكان من الطبيعي وهو في معرض اشتغاله بالتقنيات وصراعه ضد الكلمات، أن يَقَع في قبضة مشاعر فائضة، وهو نوع من الستمنتالية [العاطفة المفرطة] الناجمة عن الأحاسيس التي عجز عن صوغها في كلمات. والحقيقة أن طبيعته هي التي خلقتْ هذه الحدود العاطفية المفرطة، ربما أذهب فأقول: إن "ستمنتالية" ريلكه كانت ضرورة فنية من ضرورات الكتابة، لأنها كانت نابعة من يقينه الراسخ بقدرته على كتابة الشعر.

فمثلًا في إحدى المرّات عندما بعثَ له صديقه إرنست فون فولتسوجِن خطابًا يمازحه فيه بقوله: (راينر النقي، ماريا الطاهرة [1])، والحقيقة أنّ طبيعة ريلكه الداخلية لم تكن طبيعة طفولية ناعمة، بل بالعكس، كانت طبيعة مفعمة بروح رجولية نبيلة رقيقة. لكن ذلك لم يكن مناقِضًا بالضرورة لقلق ريلكه الدائم من المؤثرات الخارجية، أو إزاء ما يُهدّد وجوده، أو أي أمر غريب يطرأ عليه.

كان ريلكه يشعر أنّ خصاله هاته مطوية داخل صدره وعليه أن يصونها، وهي خصال وُهِبَها واؤتُمِن عليها، وهو ما ساعده على ألا يفرق بين رهافة الروح ومادية الحواس، بمعنى أنه كان يرغب في صهر كليهما معًا، فامتزج الإنسان بالفنان، وامتزج الفنان بالإنسان امتزاجًا رائقًا لا تشوبه شائبة.

---

(1) في الأصل *Reiner Rainer, fleckenlos Maria*، يلعب مُرسل الخطاب على الجناس الصوتي بين صفة *rein* في الألمانية = (نقي/ طاهر) والاسم الأول للشاعر *Rainer*، وبين التلميح لاسمه ماريا، ووصفها بالطاهرة، في إشارة إلى نقاء طبيعة ريلكه (المترجم).

فأيًا كان الشعور الذي يضرب عواطفَه، كان يبقى مجرد عاطفة غير قابلة للانقسام، عاطفة لا تعرف شيئًا عما يعتمل في نفسه من مشاعر شك أو تردّد أو تناقض، اللهم إلا اللحظات القلقة التي تتوهّج فيها قريحته الشعرية. وهكذا يمكننا القول: إن راينر كان مسكونًا إلى درجة عالية "بنعمة الرجولة"، وهي رجولة رقيقة خالية من التعقيد، ومتناغمة مع سجاياه.

كان راينر في تلك الأيام قادرًا على الضحك، وكان مستغرقًا في عيش مباهج الحياة استغراقًا بريئًا غير مسرف. فلو تأمّلنا، انطلاقًا من وجهة النظر هاته، تجربة ريلكه الشاعر الذي كان يدنو من غايته المنشودة وكان على مرمى حجرٍ من بلوغ الكمال الفنّي، لعرفنا أن الثمن الذي دفعه كان باهظًا؛ كان هذا الثمن هو فقد الانسجام بين فنه وشخصيته.

لا شكّ أن كل عملية إبداع فني، بالمعنى الأعمق للكلمة، لا تخلو من خطورة الدخول في خصومة مع الحياة؛ إلا أنّ الأمر كان أشدّ خطورة في حالته؛ لأن راينر كان ينشد التعبير عما لا يُمكن التعبير عنه، وكان يطمح إلى أن يقول ذات يوم ما لا "**ينقال**"[1]، معتمدًا على فصاحة الشعر في التعبير.

وكان من نتيجة ذلك أن سار تطوُّر شخصيته وتفجّر عبقريته الشعرية في مسارَيْن متعارضيْن، لا متوازيين، ومن ثم دخلتْ متطلبات الفن في صراع ضد متطلبات الحياة، لا سيما عندما بدأ مُنجزه الشعري يتوغّل على نحو متوحش، مُقصيًا ما سواه. لم يكن ثمة ما يُوقِف استفحال هذا

---

(1) المفردة بين تنصيص في الأصل، واستعرت تعبير "قول ما لا ينقال" من العارف الصوفي النفّري في موقف ما لا ينقال (انظر: موقف ما لا ينقال، الأعمال الصوفية للنفّري، تحقيق: د. سعيد الغامدي، الجمل 2008 (المترجم).

التحوّل الدرامي في حياة راينر. ولم تتضح الصورة كاملةً إلا بعد انقضاء عدة سنوات. فالأشياء التي كانت تتوق في أعماقه إلى أن تتحوّل إلى شعر تراكَم بعضها فوق بعض في وفرةٍ ووضوحٍ متزايديْن. والأسابيع والشهور الفارغة من الإبداع، والتي كانت تفصل بين أوقات الإنتاج الشعري، كانت أشبه بمدة انتظار مؤلم، يستجدي فيها ربّة الشعر لتهب له أي شيء.

في هذه المدة تحديدًا بدأ القلق ينهشني على راينر، لأني رأيت أن أي نشاط أو فعل يقوم به، مهما بلغت ضآلته، سيكون أفضل بكثير من حالة الانتظار السخيفة وهو جالس هكذا يجلد ذاته، ويعذّب نفسه بتوجيه أصابع اللوم والاتهام بالتقصير إليها (وكان هذا أكثر ما يقلقه).

تمازَحْنا كثيرًا حول فكرة أن نبحث له عن أي نشاط يملأ به أوقات فراغه الشعري، كأن يعمل "موظف بريد" مثلًا. لكننا نبذنا وراء ظهورنا كل هذه المؤرّقات، لأن ما بدا آنذاك أنه مصير ريلكه المحتوم، كالخَطر والمرض وخلافه، كان مقرونًا ببهاء التجربة الإنسانية وجمالها؛ فالتجربة التي لا تجلب معها آمالًا جديدة لم تكن تعنينا كثيرًا.

وإن كنا قد تقابلنا في مناسبة اجتماعية عامة، فقد طوّرنا حياة خاصة تضمّنا معًا، يجمعنا فيها كل شيء مشترك. فقد شارَكَنا راينر في حياتنا المتواضعة الكائنة على أطراف غابة "شمارجيندورفر" بالقرب من برلين، حيث يؤدّي طريق الغابة إلى منطقة "باولزبورن" التي كنا نلمح فيها قطعان الغزلان تقترب منا، تشمُّ معاطفنا ونحن نمشي حُفاة الأقدام، وهي العادة التي علَّمَنا زوجي إياها.

كان راينر كثيرًا ما يساعدني في الطهو داخل مطبخنا الصغير، الذي كان غرفة المعيشة الوحيدة بخلاف مكتبة زوجي، ولا سيما حينما أشرع في طهو وجبته المفضلة، الفريك المطبوخ على الطريقة الروسية أو حساء "البورش"[1]. في هذه المدة لم يعد راينر يحتاج إلى التدليل أو الإسراف في الاهتمام، بعد أن كان في السابق يشكو مُرَّ الشكوى لو فُرضتْ عليه أدنى القيود الاجتماعية، أو لو اقتُطِعَ جزء بسيط من راتبه الشهري. وكان يساعدني في قطع حطب التدفئة وغسل الصحون، مرتديًا قميصه الروسي الأزرق ذا الكمّين الأحمرين، ثم يخلو كلّ منا إلى غرفته المنفصلة للدراسة والعمل. كانت دراستنا تتطرّق إلى مجالات شتى، إلا أن راينر عكف بحماسة بالغة على إتقان اللغة الروسية وحضارتها - وكان قد ألمّ إلمامًا عميقًا بالأدب الروسي فيما سبق - ، استعدادًا لخُطتنا المزمعة لزيارة روسيا. في تلك المدة كان زوجي يخطّط هو أيضًا لزيارة جنوب القوقاز وبلاد فارس، إلا أن الأمر لم يكتمل.

وقبيل عيد الفصح في سنة 1899 سافرنا نحن الثلاثة لزيارة عائلتي في سان بطرسبيرج، ومنها إلى موسكو. ثم انقضتْ سنة كاملة قبل أن نتمكن أنا وراينر من زيارة روسيا زيارة مُطوّلة.

وبرغم أن بيت تولستوي في مدينة "تولا" لم يكن أول محطة لنا، كانت شخصية تولستوي ذاتها جواز مرورنا إلى روح روسيا. وإن كان دوستويفسكي في السابق هو منْ فتح الباب على مصراعيه أمام راينر لينفذ منه إلى دقائق الروح الروسية وأسرارها، فقد كان تولستوي هو خير تجسيد مادي لهذه الروح بفضل نبوغه الأدبي وقدرته الفذة على الوصف.

(1) حساء شعبي مشهور في روسيا وأوكرانيا، مكوّن من البنجر الأحمر (المترجم).

أما زيارتنا الثانية لتولستوي في مايو سنة 1900 فلم تكن إلى منزله الشتوي في موسكو كما فعلنا في المرة الأولى، بل كانت إلى ضيعة "ياسنايا بوليانا"، الكائنة على بعد سبع عشرة فيرستا[1] من مدينة "تولا".

والحقيقة أنك لا تستطيع رؤية تولستوي على حقيقته إلا وهو في الريف، لا في المدينة ولا بين جدران غرفة، بغض النظر عن مدى اختلاف غرفته عن الغرف الأخرى في منزل هذا الكونت المهيب [لقب تولستوي]، أو بغض النظر عن مدى عدم خجل سيّد الضيعة وهو يرتدي ثوبه المنزلي الملطّخ أو هو مشغول بالأعمال اليدوية البسيطة، أو هو جالس إلى مائدة العائلة، يتناول بشهية حساء البورش أو حساء الكرنب، على عكس الأطباق اللذيذة الأخرى الموجودة أمام بقية أفراد العائلة.

أما أكثر المواقف العالقة بذهني، وأجدرها بالتنويه فكان موقفًا ضمّنا نحن الثلاثة في أثناء تمشية قصيرة، عندما وجّه تولستوي سؤالًا إلى راينر: "وبماذا أنتَ مشغول الآن؟" فأجابَ راينر على استحياء إجابة مقتضبة: "بكتابة الشِّعر"، فأمطَرَه تولستوي بوابل من الاستهزاء الحادّ على الشعر وفنونه كلها. لم نستطع آنذاك أن ننتبه لخطبة تولستوي اللاذعة ضد فن الشعر، لأننا بينما كنا نغادر الضيعة أثار انتباهنا مشهد غريب.

رأينا *حاجًا* مُسِنًّا يقترب منا، رافعًا يديه بآيات التبجيل والاحترام، حانيًا جسمه برغم سنّه المتقدمة. لم يكن يتسوّل، بل كان يلقي بالتحيات فقط، مثله مثل كثير من الأهالي الذين كانوا يتوافدون من كل حدب وصوب للغرض نفسه: الحجّ إلى الكنائس والمزارات الدينية والتبرّك بها. وبينما واصل تولستوي المشي على غير انتباه، رحنا نرهف السمع، وبصرنا مركّز في الوقت ذاته على كل خطوة يخطوها، وعلى كل حركة يجترحها،

(1) وحدة قياس روسية قديمة (المترجم).

وعلى كل إيماءة تندّ منه، بل على كل وقفة طفيفة في طريقة مشيِه الفظّة، كيما تدلّنا مـنْ يكون تولستوي حقًّا.

كانت مروج الصيف المبكّر حولنا تفيض بالأزهار التي كان من المستحيل أن نراها بهذا الطول السامق وبهذه الألوان الزاهية خارج حدود الأراضي الروسية، حتى في أعماق الغابة المجلّلة بالظلال كانت زهور "أذن الفأر" تغطّي أرض الغابة.

ومثلما انطبعَتْ ألوان الزهور الزاهية بقوّة في ذاكرتي، تذكرت بوضوح أيضًا أن تولستوي وهو في غمرة حديثه الثري، والمشبّع أيضًا بنبرة وعظية، انحنى بغتة وثَنى يده - مثلما يمدّ المرء يده ليقبض على فراشة - ملتقطًا زهرة من زهور أذن الفأر، ثمّ ضمّها بقوة إلى وجهه، ضاغطًا عليها بشدّة كما لو أنه يرتشفها، ثم أدار وجهه عنها بلا اكتراث لتسقطَ على الأرض.

كانت كلمات التهليل والتوقير للفلاح المُسن ما تزال تتناهى إلى مسامعنا بنبرة خافتة من بعيد، وكأن لسان الفلاح يلهج بالتحية كأنما يقول: "كم أسعدني الحظّ لأراكَ"، فرأيتُنا نردُّ على الفلاح بمثل عبارات التحية والثناء من أعماق قلبينا مثلما قال: "وكم أسعدنا الحظّ نحن أيضًا لنراكَ".

ربما أشعلت هذه الواقعة حسَّ المبالغة قليلًا عند راينر، لأنه تطلّع إلى أن يرى في كل فلاح يقابله هذه الروح الجامعة بين البساطة والعُمق. إلا أني اكتشفتُ أنه كان محقًّا في بعض الأحيان. ذات مرّة زرنا فيها معرض "تريتياكوف" للوحات في موسكو، بصحبة اثنين من الفلاحين. صاح أحدهما وهو يتأمل لوحـة "أبقار في المراعي" بانزعاجٍ قائلًا: "هذه أبقار! ما الجديد في الأمر؟".

فرَمَقه الفلاح الثاني بنظرة خبيثة: "لكن هذه الأبقار مرسومة داخل لوحة لأجلكَ أنتَ، لأجل أن تثير إعجابكَ، وينبغي لك أن تحبها، لأنها رُسِمتْ لذلك، ينبغي أن تحبّها حتى إن كانت لا تمتُّ إليكَ بصلة بشكل مباشر. أفهمتَ؟".

ربما دُهِشَ الفلاح نفسه من هذا التفسير فالتَفَتَ إلى راينر الواقف إلى جواره، وقد ارتسمت على ملامحه نظرة فضولية متسائلة. الحقيقة أن ردّ فعل راينر كان هو اللافت في الواقعة كلها، أقصد الطريقة التي أخذ يحدّق بها إلى الفلاح والكلمات التي خرجتْ على لسانه بروسية متعثّرة: "بالضبط، الأمر هكذا".

في نهاية المطاف وصلنا إلى البقعة التي يبدو أن راينر كان يتحرّق شوقًا إلى بلوغها؛ نهر الفولجا بأهلِه وطبيعته الخلابة. كانت مياه النهر تجري متدفقة من الجنوب إلى الشمال، حيث مدينة "ياروسلافي" حيث نزلنا في كوخ "إزبا" (*Izba*) الروسي" (كوخ ريفي تقليدي في روسيا)، وشعرنا بألفة حقيقية في المكان لبرهة من الوقت. بعد عدّة مرات من صعود البواخر التي تمخر عباب نهر الفولجا والهبوط منها نزلنا في جزيرة نائية، ووجدنا هذا الكوخ الريفي، الذي كانت رائحته ما تزال تفوح برائحة صمغ الراتنج وعوارض أشجار "البتولا" غير المقشّرة. كان الكوخ قد شيّده زوجان شابان تركا الكوخ بعد بنائه والتحقا بالخدمة المدنية بسبب احتياجهما إلى المال.

كانت الحجرة الداخلية مكوّنة من دِكَّة خشبية تأخذ شكلًا دائريًا يغطّي جوانب الغرفة، وإناء "سماور" [وعاء لغلي الماء وإعداد الشاي] وكيس عريض محشوّ بالقش مخصص لنومنا منصوب فوق الأرض. وفي الغرفة الملحقة بالحظيرة وجدنا كومة أخرى من القشّ فوق الأرض،

وكانت جارتنا الفلاحة الطيبة القلب قد أخبرتنا أن كيس القش في الغرفة الداخلية يتسع لفردين.

هل نزلنا حقًا عدة مرات من بواخر نهر الفولجا؟ هل نزلنا حقًا ضيوفًا في منازل هؤلاء الفلاحين؟ وهل ضيّفَنا مرة الشاعر الفلاح "دورشين" في كوخه؟ ألم نكن قادرين على تسويد صفحات كُتب كثيرة بكل التجارب التي عشناها بأكبر قدر من الاهتمام؟ ألم تمرّ سنوات كثيرة على هذا النحو؟ هل كانت أيامًا، أم أسابيع أم شهورًا؟

لم تكن الحكاية كلها إلا ساعة واحدة قضيناها معًا، وكوخًا ريفيًا واحدًا سكناه معًا، وجلسة واحدة جلسناها معًا على عتبة ذلك الكوخ، ننظر إلى "السماور" أمامنا على الأرض والماء يغلي بداخله، مراقبين بمرحٍ الدجاجات المتسلّلة بفضول من كوخ جارنا لتطل علينا، وكأنما جاءت لتهدي إلينا بنفسها البيض للفطور مع الشاي.

حقيقة الأمر أن كوخ "إسبا" بالنسبة إلى راينر كان يرمز إلى "روسيا"، وإلى الوعد الذي تبشّر به روسيا. كانت هذه الأكواخ تُشيَّد من جذوع أشجار البتولا، فتُقطَّع على شكل جَمَلون، وتُطلى بألوان ريفية زاهية ثابتة، ثم تُترك في العراء لفصلي الشتاء والصيف، فإما أن تصطبغ بلون فاتح وإما أن تصطبغ بلون داكن بحسب تأثير الطقس. هذه الأكواخ هي محطات توقّف، محطات لأخذ قسط من الراحة والتقاط الأنفاس قبل بدء الرحلة.

من هنا مرَّ أناس لم تكن حياتهم إلا اضطهادًا وعذابًا مقيمًا، لكن طبائعهم كانت مزيجًا من السكوت على الضيم والرجاء الديني في وقت واحد، مثلهم كمثل ريلكه الذي كان يشعر في قرارة نفسه بمصيرٍ محتوم يضمُّ بداخله تفسير كل الأحداث القسرية التي وقعتْ له.

أعودُ إلى هؤلاء البسطاء الذين أطلقوا على القَدَر اسم "الله"؛ إذ لم يرَوه كقوة عليا تحمل عنهم بؤس شقائهم، وإنما مجرد مأوى، كيان على علاقة حميمية بهم، ملاذ حامٍ يحول دون تدمير هذه العلاقة الحميمية؛ إله يشبه إله الكاتب الروسي "لِيسكوف"، الذي كان يعيش في الظلّ.

إلا أن راينر لم يُضمِّن صورة هذا الإله، سواء المستمدّة من الخلفية التاريخية أم الكنسية، داخل عالمه الجديد. ما حدث أنه أدغَم احتياجاته الروحية وأفكاره الخاصة إدغامًا داخل تاريخ روسيا وتعاليمها الدينية، واستمرّ الأمر هكذا حتى مزّقتْ هذه الاحتياجات ضلوعه لتخرج على هيئة صرخة ضيق وشدّة، وعلى هيئة ترتيلة شكر وتسبيح للربّ. شيء أشبه بثأثأةٍ تحولت إلى كلمة لم تُنطَق قبل ذلك قط؛ أي تحوّلتْ إلى صلاة.

لكن كلامي هذا لا ينبغي أن يصرف انتباهنا عن حقيقة أن صورة الله المرسومة في ديوان "كتاب الساعات" ليست منسجمة تمام الانسجام مع صورة الله الموجودة في الروح الروسية المؤمنة. فبرغم الروح الورِعة الواثقة بالعناية الإلهية التي يزخر بها ديوان "كتاب الساعات"، لم يكن يخلو من مناهضةٍ قوية لهذه الروح، حيث نرَى الإنسان ليس مخلوقًا، بل هو خالق للربّ ومرشِده وحاميه.

لكن هذا الغرور [الفني] لم يخلق انقسامًا في روح ريلكه المتديّنة الورِعة؛ بل على العكس، كانت هذه الروح من الاتساع والشمول بحيث تجتمع فيها أكثر أنواع المشاعر تناقضًا، بداية من رعشة الخنوع والذل وصولًا إلى أشدّ المشاعر رهافةً وأكثرها حميمية على نحو ما نرى في القصيدة العذبة التالية:

لقد سقطتَّ من العشّ

طائرًا صغيرًا بمخالب صفراء

وعينين واسعتين، وكنتُ أرثي لحالك

يدي أكبر من أن تحتويك

بالأصابع أنهل من النبع قطرة ماء

وأرى كيف يجعلك العطش تتلقّفها

وأحسّ بقلبي وقلبك يخفقان

من الخوف كلاهما

ويقول راينر أيضًا:

نبنيكَ بأيدٍ مرتجفة

ونقيم الأبراج ذرة بعد ذرة

لكن من يقدر أن يُكمل بناءك

أنت يا من أنتَ كاتدرائية

وها هنا لا نرى أثرًا للتناقض الداخلي؛ فالوَرع الديني لا يحدّه حدٌّ، وأشعار ريلكه لا تبرح تدور في فلك هذا الوَرَع دائمًا وأبدًا؛ إذ نرى الرب هنا يخلق نفسه تحت زخم أكثر المشاعر تدفقًا بالإنسانية، فلو وثق الإنسان بربه وثوقًا خاليًا من الخوف، فسيرى الله على هيئة المبدأ الأزلي الذي يفيض بالانسجام والنظام.

وكل ما يجيش في نفوسنا من أفكار عاطفية واعية يرتطم في النهاية بصخرة الوَرع والصلوات[1]، فتنشأ نقطة تجمّع هي نواة سكينة القلب وبصيرته، وينشأ نوع من النشوة (حتى لو كان مصدرها غريب الأطوار، كنشوة الجنس أو انتشاء المرء عندما يرى قيمته في أعين الناس) حتى بالنسبة للمؤمنين الورعين.

ترى ما الذي يكمن وراء مفهوم الله؟ الإجابة هي ملامسة ما لا يزال ممكنًا الوصول إليه برغم اختفائه من عقلنا الواعي، وما يبدو أنّه لم يعد ينتمي إلينا، برغم أننا فيضٌ من فيوضات العقل الواعي، وهو ما يوقعنا في إغواء تسميته، أو جعله موضوعًا مُجسدًا.

يَفترِضُ فعل الصلاة كطقس خشوع، درجة عالية من الاحتياج الداخلي، والتهليل الباطني، ونكران الذات، وتسبيح الإله. إلا أن الصلاة عندما تتحوّل إلى عمل شعري، وعندما تغدو عملًا فنيًا عفْويًا، سيشوبها تناقض عميق، حينما يأخذ السبب مكان النتيجة والعكس بالعكس، ففي هذه الحالة يغدو المُنتج الثانوي، أي التعبير الشعري/ اللغوي، غير منسجم مع التجربة ذاتها، بل يصير غاية وهدفًا في حدّ ذاته.

كان ذلك ملموسًا بقوة في المرحلة الأولى لتأليف ديوان "كتاب الساعات"، أقصد في أثناء رحلتنا الأولى إلى روسيا. إلا أن رحلتنا الثانية وضعتْ هذه المشكلة عند راينر في دائرة الضوء، حيث أسهمت أسفارنا واختلاطنا بالناس في أن يحشد راينر تركيزه على فهم الروح

---

(1) للتوضيح: كان ريلكه قد منحَ قصائد الكتاب الأول من ديوان كتاب الساعات شكل صلاة، ووزّع الصلاة على ساعات وأيام، وأطلقَ على سلسلة القصائد الأولى في النسخة المخطوطة التي أرسلها إلى **لو سالومي** عنوان الصلوات ***Die Gebete***، عَنْوَن في البداية الكتب الثلاثة التي يتألف منها ديوان "كتاب الساعات" بعنوان كتاب الصلوات الأول، والثاني والثالث (المترجم).

الروسية، وعندما أعادَ تأمّل المشهد بعد سنوات لاحقة أعرب عن تأثّره لأن الذكريات المؤثّرة التي حصّلها خلال زيارته الثانية لروسيا أخذت شكل صلوات، لأنه "صلّاها" في دخيلة نفسه في حقيقة الأمر، فتحوّلت الصلوات وإقامتها، أي كتابتها إلى شيء واحد.

أما الأثر الفني، سواء جرى الإشارة إليه في القصيدة بالتلميح أم بالتصريح، فكان قد تحقّق في أكمل صورة داخل روح راينر نفسه، في الرؤية الاستثنائية التي كانت تقدّمها طبيعته في مثل هذه اللحظات، إلا أن هذا الأثر كان دائمًا ما يتراجع أمام قلق بحثه المتواصل عن الشكل الفني النهائي الذي سيصوغ التعبير الشعري ويثبّته.

وهكذا كان ريلكه ممزقًا بين نفاد الصبر الذي يحمله بشدة على ملاحقة الانطباعات المارّة أمام عينيه كالصور الشعرية وتوقه إلى أن يجثو على ركبتيه أمامها طمعًا في إنجاز قصيدته الشعرية، وبين رغبة مضادة تحثّه على عدم القيام بذلك متفرغًا لمراقبة شعلة الإبداع المتقدة في روحه.

وهكذا لم يكن غريبًا أن نرى راينر في أغلب أوقاته جالسًا مشمولًا بالسكون في أية بقعة هادئة تصادفه، مُرهِفًا السمع وكأنّ به مسًّا من الجنون، مثله كمثل راكب قطار سريع، ينظر من النافذة والأشياء تمرق أمامه، بلدة وراء بلدة، ومنظرًا وراء منظر، من دون أن يملك فرصة للرجوع إلى وطنه. بعدها بسنوات تحدّث ريلكه عن فجوات اعترَتْ ذاكرته. ثم قارن بين ما نسيه وبين ذكريات الطفولة المبكّرة المحفورة بقوة في ذهنه، ثم بدأ يتلو عليَّ الأبيات التالية بنبرة خافتة رقيقة:

[سيدي]

واجعله يعرف طفولته من جديد

اجعله يعرف ما خفي عنه، واجعله يعرف الغريب والعجيب

واجعله يعرف الدائرة المظلمة

من أساطير سنوات حياته المبكّرة المترعة بكل معرفة

وكانت هذه الرغبة مقرونة بنداء باطني سري يصبو إلى أن تُبعَث الطفولة من جديد حية في قلبه مثلما كانت مقرونة بشوق عارم إلى رؤية هذه الطفولة مشرقة متلألئة أمام عينيه برغم خجله مِن كثيرٍ من بعض هذه الذكريات. فالطفولة المبكّرة هي المرحلة التي تنطوي على الشعور الأصلي بالأمان، الشعور الذي لا يني يغذي نفسه بنفسه، الشعور البعيد عن مظاهر الخوف والتمزّق. ومن مرحلة الطفولة ينبغي أن تنقدح شرارة العمل الفني العظيم الذي عليه الشروع فيه. يقول راينر:

أنا مؤمن بكل ما لم يُنطق به بعد

أريد تحرير أحاسيسي المفعمة بالتقوى

سأملك يومًا ما لم يجرؤ إنسان على أن يرغب فيه

ولتغفر لي يا إلهي لو بلغ عندي الغرور مبلغه

ولو كان هذا غرورًا

فاجعلني مغرورًا وأنا أصلي لكَ

وبرغم وجود حالة تنافس دائمة ومحتدمة بين قوّة الإنسان وقوّة الفنان في مثل هذه المسائل، كان الله على الدوام هو الموضوع الفني الجوهري المهيمن في شِعر ريلكه، بوصفه تعبيرًا عن موقفه الشخصي إزاء كينونته، وبوصفه تعبيرًا عن أشدّ الأشياء غموضًا وبعدًا عن حدود الأنا الواعية. وقد حدث هذا في وقتٍ لم تعد فيه المعتقدات الدينية الرسمية هي مصدر الفن ذي "الطبيعة الدينية"[1]، ولا عادت هي الجهة التي تفرضُ رؤاها على الفنانين فرضًا.

---

(1) التنصيص من عند المؤلفة (المترجم).

بعبارة أخرى: يمكننا أن نعزو عظمة ريلكه الشعرية ومأساته الشخصية إلى حقيقة أنّه ألقى بنفسه في غمار عملية إعادة خلق الربّ[1]، دونما هدف محدد. لأنه مهما غمرَت الإنسانَ المتدين الرغبةُ العارمة في الخلق والتعبير، فلن تستطيع أبدًا أن تلامس قدرة الله المهيمن، ولا أن تدرك حقيقة الله المحيط بكل شيء، وهو الإله الذي لا يحتاج إلى رغبة الإنسان في التعبير.

قلتُ: إن راينر ألقى بنفسه في عملية الخلق دونما هدف بعينه، إلا أن انعدام الهدف ذاك لم يغيّر شيئًا من شعوره الديني العميق وموقِفه، وإنما غَيَّـر من فهم راينر لدوره كفنّان، كخالقٍ للشكل الفني، وهو دورٌ يطالبه بأن يغوص عميقًا في أغوار نفسه البشرية، لأنه لو فشل في هذه المهمة، فسيضرب الفشلُ أيضًا عملية إعادة خلق الله المقترنة بعملية الخلق الفني.

وربما يمكننا أن نفهم، استنادًا إلى تلك النقطة، سبب نظر راينر إلى "القلق" على أنه قَدَره الذي لا فكاك منه. إلا أن الأمر هنا لا يتعلق بمجرد القلق من طبيعته الحساسة إزاء فقدان الغاية من الحياة، أو القلق الذي ينتاب جميع الفنّانين من فتور الهمّة للعمل والإنجاز، وإنما أقصد شعور القلق المُطلق من أن يبتلعه العَدَمُ، وأن يبتلع العَدَمُ كل شيء يؤثّر فينا، بصرف النظر عن طبيعة ذلك الأثر. ولأجل بلوغ غاية الله [عند ريلكه] كما أشرت لم يكن هناك مفر من اصطدام الإنساني بالشاعري في داخله؛

(1) لإزالة غموض عبارة "إعادة خلق الله" يُنصح بمراجعة المقدمة التي كتبها الباحث جيرالد شتيج كمدخل لقراءة آثار ريلكه الشعرية، بترجمة كاظم جهاد لكتاب الساعات (الصفحات 50 وما يليها) حيث يشير إلى أن كتاب "الصلوات" يتموضع في المركز الفارغ الذي أحدثته العلمنة السياسية والعلمية بعد إزاحة الإيمان دون أن تعوّض عنه بشعور آخر، ومن ثمّ فعبارة إعادة خلق الله تعني إعادة مفهوم الله إلى موضعه الذي أنزلته عنه الحضارة المادية آنذاك (المترجم).

فالإنساني هو الوجود المباشر الذي يحيا ويتنفّس، أما الفني فهو المبدأ الفاعل الذي يؤكد هذا الوجود بتأكيد الوجود الحقّ.

لقد أدرك راينر، سواء في بداياته الأولى أم في أوقات لاحقة، أن بلوغ الله كمهمة شاعرية، هو لون من ألوان الإغواء والإغراء الذي يشدّه نحو الأعالي، مُبعدًا إياه عن القوة الغريزية العميقة التي تشدّه ناحية الأرض.

بعيدًا جدًّا كنتُ أنا، حيث ترفرف الملائكة

وعاليًا جدًّا كنتُ أنا، حيث يتلاشى الضوء في ظلمة العَدَم

وكان الله ملفوفًا بظلام دامس

وكانت الملائكة هي النسائم التي تهبُّ على قمّة العَدم

وكانت تؤمن بقوّة النور أكثر من إيمانها بقوة الظلام الإلهية

ثمّ فرَّ لوسيفر لينضمّ إلى صحبتهم

فكان هو الأمير في أرض النور

وجبهته عالية شامخة في مواجهة لمعة العدم العظيمة

فاحترقَ وجهه

وهو يضرع إلى الظلام

(أقتبس هنا من ديوان "كتاب الساعات" على وجه الخصوص لأنه يضمّ نصوصًا من أوقات مبكّرة ومتأخرة، وهو السبب الذي جعل راينر يُحبُّ أن يسميه "الديوان غير القابل للتأريخ"، مثلما فعل في "دفاتر مالتي لوريدس بريجه" و "مراثي دوينو").

يميّز ظهور لوسيفر [الشيطان] هنا الشرارة الأولى لتطوّر ثيمة الملاك في أشعار راينر. وهو أمر عظيم في فنّه. صحيح أن الملائكة في القصيدة السابقة ما تزال بريئة، تحفّ عرش الله، فتقلّل من دون قصد من إمكانية

التواصل المباشر مع الله، الشيء أشبه بغرفة ضيقة تحجبُ فيها حفيف أجنحتهم رؤية قدس الأقداس الإلهية.

بل إن الأمر لا يتوقف عند هذا الحدث في شعر راينر، فالبقاء في حضرة الملائكة وفي معيّتهم مرهون بشكل مطرد بقدرة الشاعر على مواصلة الإنتاج الشعري، وبالبركة الإلهية التي تتيحها هذه القدرة. فالراحة في رحاب الله تتراجع أمام الحضور الكثيف للملائكة حول الحضرة الإلهية. ولا تُحلّ هذه الإشكالية إلا عندما يخترق الملائكة حُجب الظلام الذي يحفّ الإله.

إلا أننا لا نستطيع اقتفاء أثر هذا التطوّر إلا لو نظرنا إلى الصورة الشعرية في مجملها، ويتجلّى ذلك في أبهى صورة في التنويعات الدلالية التي يستخدمها راينر في كتاب "الفقر"، وهو الكتاب الثالث من ديوان "كتاب الساعات". حيث يعني "الفقر" بالنسبة إلى الإنسان والفنان على حد سواء أن يفرِّغ المرء نفسه للضروري في الحياة فقط، وأن يرفض السقوط في قبضة المبتذل والتافه، وألا يولي عنايته إلا للثروة الحقيقية والنعيم الحقيقي في الحياة لأن: "**الفقر نور عظيم يُشرق من الأعماق**" كما يقول راينر في قصيدته.

طالما سعى راينر ألا يأخذ نفسه بالشدّة في حياته اليومية، وأن يتفادى من انشغالات الحياة اليومية المبتذلة التي تهدر وقته فيما لا طائل من ورائه. وفي الساعات الفاصلة بين العمل الفني والآخر، كان يَبرز عنده السؤال المؤرّق: أليس ثمة جزء من كيانه ما يزال عاطلًا عن الإبداع، وما يزال واقعًا في قبضة الابتذال والتفاهة؟

في قصيدة راينر ما يزال بإمكان المرء أن يسمع حفيف أجنحة الملائكة التي تسبّح بحمد الربّ، إلا أن الإنسان هنا هو أفقر الموجودين، إذ لا

تحيطه الحضرة الإلهية التي وسعتْ كل شيء، الحضرة التي لا تعرف غنيًّا أو فقيرًا، بل تعرف أبناء هذا الوجود.

إن أقسى ما رسمه راينر وصَبَغ قصيدته بهذه الصبغة الشيطانية هو تصوير أفقر الفقراء[1] في أثناء إقامته بباريس، حتى لو كان وصفه متصلاً برسم مظاهر القسوة المادية وحسب.

فبالرغم من أن راينر كان يخاف الفقر في تلك السنة، انعكس شعوره بالخوف على حالته الروحية وقاده إلى السقوط في اليأس، وقد بلغت قوة هذا الخوف قوّة الطاقة الشعرية وامتدَّ أثر خوفه ليطبع أدقَّ تفاصيل الحياة (كالرسائل التي بعثَ بها إليَّ، وكذلك في كتاب مذكرات مالته لورديس بريجه)، إذ كانت هذه الفقرات تشمل وصف أولئك الذين يعيشون على حدّ الكفاف، فأخذوا يصرخون إلى الربّ صرخة يائسة، وما لهم من مُصرِخ، لأن الربّ لم يكن يحبّهم.

لم يرسم راينر فقر ومرض وسوء أحوال غيره مِمن يعرفهم، بل رسم معاناته الذاتية، برغم أنه لم يكن يعاني الفقر حقًّا، لنقرأ التعبير اللافت في (رسالته): *أريد أن أجهر بصوتٍ عالٍ وأقول: إني لستُ فقيرًا، ولستُ واحدًا منهم*".

إن تماهي راينر مع كل ما هو مشوّه ومرفوض تحوّل إلى جزء من تركيبته الشعورية، وهو ما يحدث في الأغلب للمبدع الذي تنضب طاقاته الإبداعية فيبحث عن معين آخر.

ولما كتبتُ إليه وقد استولى عليَّ الذهول من هذه الكلمات، وأخبرته أن كلماته تعكس قدرته الإبداعية الخلّاقة، أجابني قائلًا: "لو كان الأمر كذلك، فمعنى ذلك أني لا أستطيع الكتابة إلا تحت تأثير الخوف، الخوف من الموت".

---

(1) يقول ريلكه في البيت: "**نحن أفقر من أفقر الحيوانات**" (المترجم).

في ضوء ذلك سيكون في مقدورنا أن نفهم سرّ صخرة الخلاص التي اهتدى إليها راينر بعد لقائه بالنحّات الفرنسي رودان، الذي علّمَ راينر كيفية إدراك الواقع من دون التزييف الذي يخلقه الإسقاط الذاتي، وعلّمه كيف يمكن للفنان أن يربط بين الإبداع الفني والحياة في علاقة واحدة ثرية. كان القانون الوحيد لرودان - وهو "واصلِ العمل دائمًا" - قد أتاح له أن يفعل الأشياء ليس بدافع الخوف، بل أن يصنع ويعمل وعيناه فوق المثال الذي يشتغل به. وعندما بدأ راينر يعمل بطريقة موضوعية متجرّدة من العواطف المفرطة والانفعالات الذاتية، مكّنه الاشتغال الدؤوب المثابر بالأعمال اليدوية والأعمال التي يصنعها بيديه في ورشة رودان، من دفعه لأن يتعامل بصبر وحِلم مع أمور الحياة اليومية، ليُسلم قيادَه إلى المظلّة العليا للفن. كان هذا الهاجس يجيش في أعماق ريلكه منذ مدة طويلة، حتى قبل اختلاطه بدائرة الرسّامين في "فوربسفيدي"، ومن خلال كلارا فيستهوف، تلميذة رودان، وهي التي كانت سبب تعارفهما، قبل أن تصير زوجة راينر لاحقًا.

والحقيقة أن انتقال راينر إلى باريس قد فاقمَ شعوره بالخوف إلى أقصى الحدود، واستمرّ الأمر هكذا حتى تحقّقتْ أمنيته في أن يكون قادرًا على صحبة رودان صحبة دائمة، وأن يتمسّك بأذياله وأن يمسي سكرتيره الشخصي. هذا ظاهريًا فقط، أما في الواقع فقد كان رودان هو الصديق الصدوق لراينر في علاقة منح وعطاء ممتدة بلا حدود. كان لِرودان أيادٍ بيضاء في كشف العالم على حقيقته أمام عيني راينر.

إلا أنَّ فضله لم يقتصر على ذلك فقط، بل كانت لرودان بصمته الواضحة على راينر في كيفية السيطرة على الخيالات المريضة التي كانت تراوده وكيفية دحرها، وعلى التخلّص من المشاعر المؤذية والمثيرة للاشمئزاز والخلاص من كل الأفكار الشيطانية في كل أشكالها المشوّهة.

وإن كانت حساسية راينر المَرَضية المفرطة قد أوقعته في السابق في حبائل القلق المزمن، فقد استطاع بفضل رودان أن يقف على مسافة إبداعية حيادية تفصله عن ذلك القلق، في مسعى إلى أن يتحرّر من مشاعره السلبية، وأن يواصل إبداعه بعيدًا عنه.

ولكن كيف استطاع راينر أن يطوِّع نفسه لتعلّم ذلك من رودان؟ لا سيّما أننا نعلم أن وقوف راينر موقفًا حياديًا إزاء موضوعه الفني كان يجشّمه عناءً روحيًا هائلًا، أقصد عناءً متصلًا بتأمل الشيء في ذاته، لا من وجهة نظره الشخصية.

أغلب الظن أن انفعالات راينر المكبوتة بفعل هذه الحيادية قد أرادت أن تثأر لنفسها - لو جاز لي التعبير - مئات المرات، وتمثّل هذا الانتقام في السماح لهذه المشاعر الوفيرة بالخروج منه بشكل سلبي. إلا أنّ هذه الحالة من الحيادية والسيطرة على المشاعر خلقتْ عالمًا من المتعة من نوع آخر، وهي متعة كان راينر شبه واعٍ لها في بداية الأمر خاصةً وسط التعبيرات الفنية والمبالغات المثيرة للاهتمام التي كتَبها خلال مدة إقامته البائسة في باريس. (ولكن دعوني أقول: إن هذه القيود المفروضة على حريّة الإبداع لم تكن تخلو من خطورة أيضًا، ففي أوقات الإحباط واحتقار الذات كان يُخشى أن ينتقمَ راينر من هذه الموضوعية).

ففي رسالة لاحقة (مؤرخة في سنة 1914) أشار راينر إلى أن الفنان الحقيقي ليس من يحسم المسائل المضطرمة العالقة داخل نفسه، بل من ينذر نفسه لإدماجها والتأليف بينها داخل عمل فني وداخل ما يشعر به، وأن يُدخلها إلى قلب الأشياء، داخل الحيوانات.. ولِمَ لا؟

حتى لو أدمجها داخل الوحوش والغيلان أنفسها، بل ربما أضيف: بل أن ندمجها داخل الوحوش بطريقة وحشية أيضًا.

وها هنا يمكننا أن نلاحظ بوضوح اختلاف رؤية راينر عن رؤية رودان على طول الخط وهو ما ساعده على تكوين صورته الشخصية عن الله، برغم وفاء راينر العميق لأستاذه.

غني عن القول أن علاقتهما الشخصية لم تكن لتصمد إلى الأبد، برغم أن افتراقهما حدث على ضوء سوء فهم عابر. فبالنسبة إلى رودان حَسَمتْ صحته الموفورة واستعراض فحولته مع النساء، مشكلة تعارض الفن مع الحياة؛ إذ وضع رودان الفن نصب عينيه كغاية من دون الاستغناء عن الاستمتاع بمُتع الحياة وملذاتها بلا قيد أو شرط، بل إنه جعل المتع الحياتية في خدمة الفن كذلك. أما بالنسبة إلى راينر فإن محاكاة أسلوب رودان ونمط حياته الإبداعية كان يعني تكريس نفسه للفنّ تكريسًا مجردًا سلبيًّا، وإبقاء عينيه بانتباه على مُعلّمه المُرشِد، وتحويل الوفرة العاطفية الهائلة في أعماقه إلى برودة منضبطة. بل إن الأمر تجاوز هذه النقطة ليطبعَ أثره في صورة راينر نفسه عن الله في ديوان "كتاب الساعات"، إذ نجد في قصائد الكتاب الثالث التي كتبها على شاطئ البحر الجنوبي في فياريجيو بعد فراره من باريس، آثارًا لا تخطئها العين تُنبئ عن التحوّل الحاد الذي طرأ عليه.

فالأرض الغبراء المظلمة الحاضنة للشتلات الصغيرة، تحوّلَتْ - لو جاز لي التعبير - إلى جبل شامخ يجد الإنسان فيه نفسه مثل معدن خام لم يُستخرَج من باطن الأرض بعد[1]؛ شيء قريب من حُلم محموم سبق أن رآه راينر في طفولته، إذ رأى حجرًا هائلًا جاثمًا فوق صدره. ثم تتلو هذه اللحظة صرخة الصلاة، لحظة الضراعة إلى الله.

---

(1) لفهم الصورة ليرجع القارئ إلى أول قصيدة في كتاب الموت والفقر، حيث يصوّر الشاعرُ نفسه ما يزال مدفونًا في باطن الأرض (المترجم).

ولكن لو كنتَ أنتَ أيها الربّ، فلتلقِ عليَّ بكل ثقلكَ

فلتهبطْ يدكَ كلها عليَّ

وسأهرول بصراخي كلّه إليكَ

وها هنا يكتسي وجه الربّ بنظرة أشدّ صرامة، مثله كمثل وجه الملاك ووجه المُعلّم [رودان] الذي يطالبه بالعمل والإنجاز. ثم تواصل الصورة الشعرية تبدّلها: تحت تأثير قلق الإنسان/ الطفل وإنجازه، يلفظ الجبلُ الثمرةَ بعيدًا عنه بشكل يشبه آلام المخاض. وهكذا يزول عن الألم والموت كل مظهر من مظاهر التفاهة والسطحية، وهنا تتحقق أمنية راينر القديمة:

"إلهي.. أعطِ كل امرئ الميتة التي تخصّه وحده"[1]

وهكذا يمسي الموت هو ثمرة الإبداع، ويصير المهمة الجوهرية الخليق بالإنسان إنجازها، ومن هنا بات ذهنه [ذهن ريلكه] مسكونًا بشكل لا إرادي بفكرة ألا يعيش دقيقة واحدة في حياته من دون إبداع. ونتيجة هذا الارتباط المحتوم بضرورة الإنجاز تلبَّسَ راينر خوفٌ متنامٍ من فكرة الموت، وعلى الأخص في أوقات الحُبسة الإبداعية وانقطاع ربة الشعر، وبقي مسكونًا بالخوف من المهلكات التي قد تسلبه حياته.

كان الموت بالطريقة التي يتوق إليها راينر، ينطوي على لون من ألوان العزاء، لأن الإنسان يبقى محتفظًا بذاته على علّاتها. ومع أن راينر كان ممسوسًا على الدوام برغبة عارمة تشدّه ناحية "الإنجاز الفني"، لم يعثر قط - برغم مساعيه الحثيثة لذلك - على وسيلة تمكنه من صهرِ الموت

---

(1) عنوان إحدى قصائده، تقول: إلهي.. أعطِ كل إنسان الميتة التي تخصّه، وليكن موتُ كل امرئ مولودًا من رحم هذه الحياة، الحياة التي وجدَ فيها الحبّ والمعنى والبؤس (المترجم).

والحياة في بوتقة واحدة؛ غير أن ذلك ساعده، من ناحية أخرى، على بلوغ غاية حياته ووجوده الأصيل؛ أي بلوغ الفقر التام[1] حيث التسليم الكلّي والاستسلام التام، فالفقر غِنًى لأنه يضمُّ بداخله كل شيء.

على صعيد آخر استطاع راينر التمكّن من إحكام الصنعة الإبداعية والشعرية بشكل لا غبار عليه بفضل رودان وحده، ولا يخفى ذلك على مَنْ يقرأ ديوان "القصائد الجديدة"، التي تفوق بمراحل ديوانه "كتاب الصور"، دع عنك أشعاره المبكّرة. إلا أن إحكام الصنعة وتجاوز العاطفية المفرطة والحساسية المسرفة لم يقفا عند حدّ الشعر وحسب، بل امتدّا ليتركا بصمة واضحة على أعمال راينر النثرية الكبرى مثل كتاب "مذكرات مالتي لوريدز بريجه"، وهو العمل الذي يدين بغرس بذوره الأولى لرودان. وبالرغم من تصنيف هذا العمل على أنه أكثر أعمال راينر إغراقًا في الذاتية، فهو في واقع الأمر تصنيف يجانبه الصواب؛ صحيح أنّ راينر جعل نفسَه موضوعًا للعمل، لكنه استطاع أن يتأمل ذاته تأملًا موضوعيًّا متجرّدًا من أية ذاتية كما لم يفعل في أي عمل سابق. وعليه فكتاب "مذكرات مالتي لوريدز بريجه" ليس صورة ذاتية [بورتريهًا] لراينر، وإنما عمل نثري وظَّفَ فيه راينر صورة ذاته لكي يرى ذاته الحقيقية بمعزلٍ عن ذاته المرسومة في عمل أدبي.

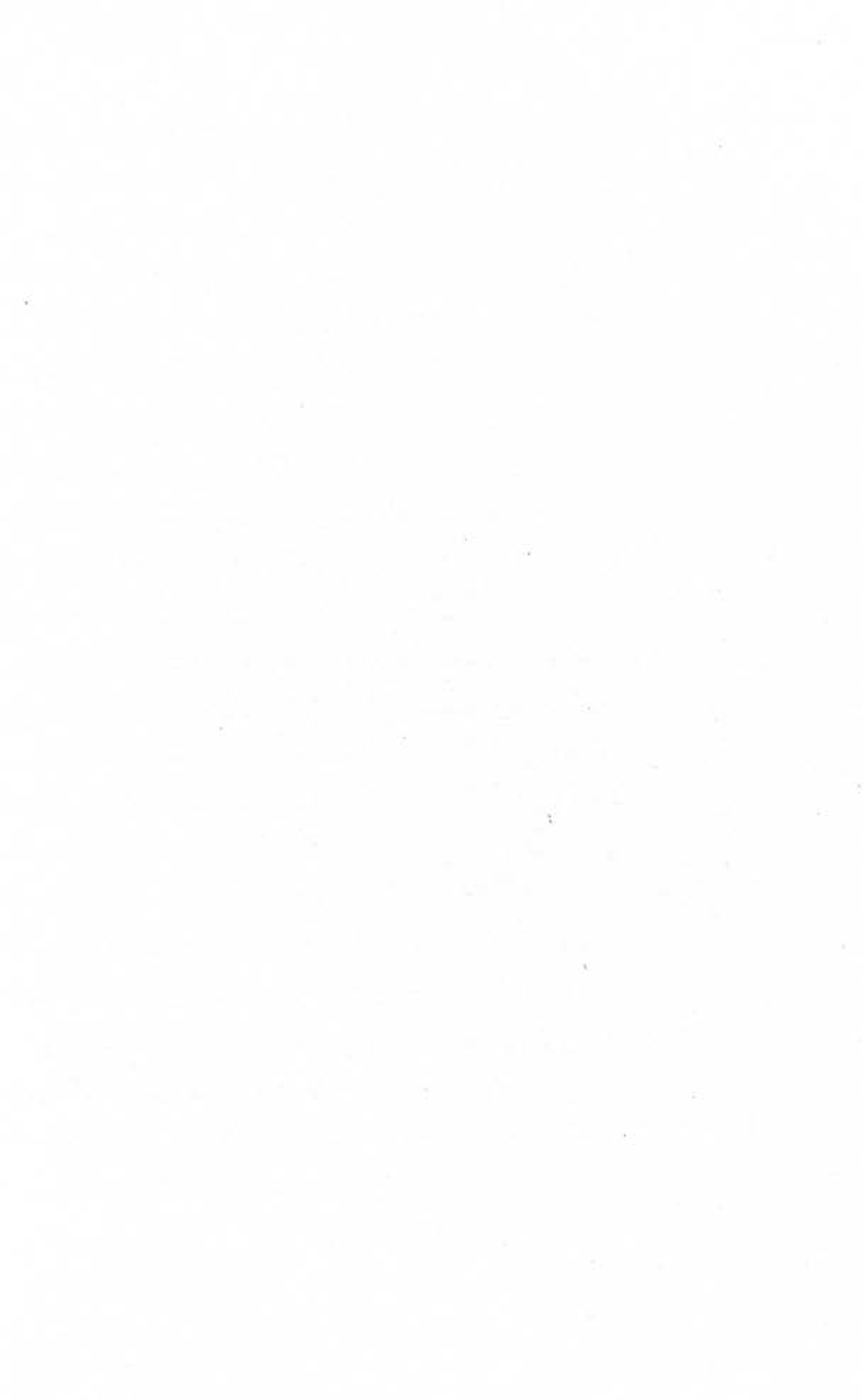
وحتى في الفصول التي وظَّف فيها راينر سيرته الذاتية توظيفًا مباشرًا (وإن لم ينسحب ذلك على مرحلة الطفولة)، قد جرى هذا التوظيف لغرض واحد، وهو أن يتعلَّم السارد كيف يتجنب مصير البطل مالتي. ففي رسالة مؤرخة في سنة 1911 مكتوبة في قلعة دوينو (اقتبستها في

(1) أحيل القارئ إلى تفسير د. عبد الرحمن بدوي لمفهوم الفقر عند ريلكه في كتاب الحور والنور (وكالة المطبوعات، بدون تاريخ، ص 132) وربطه بين رؤية ريلكه وبين كلام الصوفية المسلمين: "**إذا تمَّ الفقر فهو الله**" (المترجم).

كتابي ر.م. ريلكه) فقرة أوردها هنا: "**ربما كان ينبغي تأليف هذا الكتاب بالشعور نفسه الذي يُشعل به المرء فتيل قنبلة، وربما كان ينبغي لي أن أقفز بعيدًا عن هذا الكتاب بمجرد كتابة الكلمة الأخيرة. لكن يبدو أني ما أزال شديد التعلّق بالرغبة في الامتلاك، وأني أضعف من تحمّل الفقر برغم كون الفقر مهمتي الأساسية في الحياة، فيما يبدو. كنت مسكونًا بطموح الحرث في البحر، ومن ثمّ فثمرة هذا العمل لا يمكن رؤيتها إلا على أغصان شجرة الخسارة، أذكر أني بقيت مدة طويلة لا أرى في مصير مالتي نوعًا من الضياع والهلاك، بل بالأحرى كنت أرى في مصيره رحلة سماوية مجللة بالغموض، رحلة إلى بقعة نائية مُهملة في السماء...**".

ولو فكّرنا في مدى الشجاعة والموضوعية التي أقبل بها راينر على تأليف هذا الكتاب لأخذتنا هزّة قوية. ذلك أنه ألَّفَ العمل كما لو كان يستجدي قريحته الشعرية المفرطة لكي تنزع عنها جناحيها المحلّقين وتحطّ على الأرض ولا تبرحها، وكان هذا هو السبب في أنّه استطاع الكتابة بسعادة خالصة، بسعادة من نوع جديد عليه (مثلما أخبرني وهو في باريس أنه يكتب بأريحية طفولية تقريبًا). كما لو كان موقفُ المؤلف تجاه البطل مالتي مثل موقف الرب الذي "لا يبادل الناس حبًّا بحب" مثلما نقرأ في العمل، إلا أنّ راينر تبنّى هذا الموقف ليعرف المزيد عن الله وليصوّره تصويرًا مفعمًا بالورع ليشركنا معه في نياته الخفية. من الآن فصاعدًا لم تعد غايته أن يُحَبَّ، بل أن يُسلم كل ذرّة من كيانه للمقدّس.

وفق هذا المبدأ تكون عودة الابن الضال إلى حظيرة الإيمان مجرد سوء فهم لفكرة التدين التي ركّزتْ في نفسها، وكان الأحرى بها أن تتجاوز نفسها، وأن تُحيل بصرها ناحية مشاركة الامتلاء بالنعمة الإلهية مع العالم





كله من دون نيّة وقصد. في هذه اللحظة يصير أفقر الناس أغناهم، وتحلّ البركة الإلهية على أدناهم منزلة، وتشيع القداسة بين الجميع من جديد.

وفيما عدا التطوّر المتأخر الذي نراه في ديوانَي "مراثي دوينو" و "أناشيد أورفيوس"، لم يستطع شيء استثارة الطاقة الإبداعية عند راينر مثلما فعل تصويره حالة "أغنى الفقراء".

في بعض الأحيان يكون القَدَر أقوى من العمل الفني، شيء أشبه بمصاير حكايات الحب عند المرأة، وهي المصاير التي مهما بلغ حجم الآلام التي تسبّب فيها الحب، فهي تقود المرأة إلى التخلي عن الأنانية وإلى امتلاك ذاتها امتلاكًا حقيقيًا.

في السطور الأولى من المراثي يصفُ راينر أغنى الفقراء بالعبارة التالية: "... أولئك الذين تكاد تحسدهم، أولئك المهجورون، الذين وجدتهم أحبَّ إليكَ ممن كان حبّهم مكتفيًا بذواتهم" (راجع سونيتا البرتغال، السونيتا رقم 24 لِلويزا لابه - رسائل راهبة).

في السنوات التي كُتِبَتْ فيها المراثي، وكان يبعث إليَّ بشذرات منها، عبَّر راينر بكلمات انفعالية مشابهة للسابقة، حينما أخذ يكيل المدح للرجل العاشق الفاعل بمشاعر حماسية تفوق مدحه للمغنّي الشاعر، حيث نقرأ في المرثية التي صارت الرابعة في ترتيب ديوانه لاحقًا:

لأن البطل لو اندفع في محطات الحبّ

لدفعته كل نبضة قلب إلى الأمام

فيبتعد، ويقف على حافة ابتسامة المحبوب، كإنسانٍ آخر

أتذكّر الآن تقريبًا تفاصيل محادثة دارت بيني وبين راينر في إحدى الأمسيّات الصيفية في حديقة منزلنا، في هذا الوقت كان راينر قد أنهى

العمل على مذكرات مالتي لوريدس بريجه، وحَزَم أمره ألا يكتب شيئًا بعدها، معتزمًا تحويل المكتوب بالكلمات إلى معيش بالأنفاس.

ثم تطرّقَ بنا الحديث إلى أن نفكر كيف أن العاشق يستمدُّ قوة الحب الرابضة في قلبه من أوهام وضلالات، وكيف أن القوة الإبداعية للروح تزداد توهجًا وحماسة كلما قلَّ ارتباطها بالموضوع المجرد.

وهنا انفجر راينر بيأسٍ قائلًا: نعم، الخلق والإبداع الفني هما نار مستعرة داخل الفنان، والفنان مثله مثل العاشق، يجسّد أرقى فعل بشري في الوجود، مضيفًا: "إن ما يخلقه الفنان يشير إلى **شيء** يتجاوز الموضوعات الذاتية، **شيء** استلهمَ منه دافعه الإبداعي. وفي كل لحظة يخذله فيها ذلك الإلهام، يسقط الفنان من محلّقٍ إلى قعر هاوية سحيقة. وهذا **الشيء** لا يعرف الفنانَ، ولا يحتاج إلى وجود الفنان من الأساس، بل إن الفنان هو من يحتاج إلى هذا **الشيء** كيما يعرف نفسه".

وفي ضوء مشاعر القنوط هاته يمكننا أن نرى بوضوح، وبقشعريرة من اليقين، إلى أي حد كان راينر الإنسان، برغم إحكام الصنعة الفنية، يتوق إلى تجاوز العمل الفني وكلمات الشعر، بغية الوصول إلى التجربة الإنسانية المعيشة، وإلى انكشاف لغز الحياة أمامه، لأنه حالما يبلغ هذه النقطة فقط ستغشاه الراحة والطمأنينة.

كانت هذه النقطة، أي بلوغ الراحة والطمأنينة، هي شغل راينر الشاغل طَوال حياته حتى تحين ساعة الإبداع التالية. وهذا ما يفسّر النبرة المبتهجة التي يستهلّ بها ديوان "المراثي": (إنهم.. إنهم..)، يقصد راينر بمفردة "إنهم" كـلَّ شيء، والأمر هنا ليس متصلًا بالعمل الفني وحده، بل بالوجود الغامض برمته، فيصير في النهاية العمل الفني الذي ابتكره

والوجود الحنون الذي يتغمّد الشاعرَ برحمته، داخل آصرةٍ واحدة غير قابلة للانفصام.

فيتحوّل الملاك الكاسف الوجه، الذي أشرت إليه سابقًا، إلى إله بلا وجه متعيّن ينظرُ إليه الطفل/ الإنسان مثلما ينظرُ إلى وجه الحياة كلها. في لحظة الخلق الفني يكون الوجهان شيئًا واحدًا، بل يكون كلاهما حقيقة غير قابلة للتجزئة. فعندما يستغيثُ الإنسان بالملاك ولا يلقى منه أذنًا مُصغية، لا يجد ملاذه الآمن إلا في رحاب الله الذي كَتبَ على نفسه، بحكم طبيعته، إغاثة الملهوف الصارخ.

منذ ريعان شبابه، وبحكم ضعف تكوينه الجسدي لم يكن راينر من النوع الذي يطيقُ انتظار عودة لحظات الإلهام الفني بعد انقطاعها، إذ لم يكن جسده يتألّم تحت وطأة الانتظار وحسب، بل كان يدخل في حالة من الهيستيريا. فبدلًا من الانخراط، ولو على استحياء، في العملية الإبداعية، كانت تنتابه حساسية مَرَضية، وتسيطر عليه عصَبية مفرطة وآلام جسدية مبرحة، ونوبات ألم تعصف بالجسد كله. وكان يشير إليها أحيانًا بسخرية، ولكن بنبرة ملؤها الاكتئاب، واصفًا إياها بـ "طاقة إبداعية ضلّت طريقها"، وواصفًا جسده بأنه "شوكة في حلق روحه".

وعند هذه اللحظات القاسية كانت الأمور تتحول شيئًا فشيئًا إلى مسائل روحية بحتة؛ عندما كانت تلمُّ به حالة إفراط حركة وحماسة مشتعلة، وعندما كانت تتعاظم هذه الحالة إلى درجة مُهدِّدة، كان ينسى حماسته لأجل التمسّك بحياته الحقيقية، فكان يشعر لاحقًا، أو ربما في لحظتها، بأن هذه اللحظات المضطربة إن هي إلا "محاكاة للحياة"، وليست الحياة نفسها.

لكن الأمر يكون أكثر إيلامًا عندما تُقبل عليه الدنيا ويجود عليه القَدَر بنَفَحاته السخيّة، أي عندما تشمله مظاهر اللطف من الآخرين ويكون محطَّ إعجابهم ومطمع صداقتهم، مثلما كان يجود عليه القَدَر بثراء حتى الرمق الأخير من حياته. في هذه اللحظات كان يشتكي بمرارة بالغة أنه، أي راينر الحقيقي في أعماق نفسه، كان يفتح صدره لهذه النَّفَحات بوصفها مخدِّرًا، أي بوصفها لونًا من ألوان الإلهاء وخداع الذات التي لا تنشد سوى الاستمتاع والاستهلاك، بدلًا من السماح لها بأن تكون جزءًا من العملية الإبداعية.

أتصوّر أيضًا أن هذه الحساسية المفرطة كانت سببًا من أسباب اهتمام راينر "العارض" بأمور التنجيم والوسطاء الروحيين، فضلًا على اهتمامه بربط تفسير الأحلام بأمور الخوارق، واعتقاده بالتواصل مع الأموات الذين صورهم على هيئة كائنات تفيض بالمعرفة والحكمة، وكان يتوق إلى التعرّف بهم والتواصل معهم. أما في الأوقات التي يصفو فيها ذهنه ويُعمل بها التفكير في هذه الأمور، فكان يُنكر هذه الأفكار أشدّ ما يكون الإنكار، بل وبوجه كاسف.

لكن أشدَّ ما صدَمني هو أن راينر حتى بعد نضجه وحتى بعد أن صار مرشدًا وصديقًا للجيل الأصغر سنًّا، لم يغادره هذا الشعور المُعذِّب. إذ لم يلعب دور "الجورو" أو المعاون للشباب الأصغر سنًّا، بل كان يرغب في أن يسقط عليهم ما كان يستميت في أعماقه لتحقيقه، وفشل في ذلك. كان مردُّ حساسية راينر المفرطة هو شعوره بالألم الناجم عن إخفاقه في تلبية نداء أشواقه؛ الأمر أشبه بفكرته القديمة في أن يكون "طبيب أرياف" يمارس مهنته وسط المرضى والفقراء، وهي الفكرة التي علقت بذهنه بسبب ما كان يحمله من رجاء وإيمان بأن شفاء الآخرين يعني بالضرورة شفاءه الشخصي.

إن فاجعة القَدَر الحقيقية عند راينر راجعة في نظري إلى التوتّر الموجود بين حالة الخَلْق الفني التي كان يراها نفحة إلهية مقدسة وبين القوة القاهرة التي تدفعه إلى محاكاة وتقليد هذه النفحة الإلهية وإسقاطها على الآخرين، حتى في حالة غيابها.

إلا أننا لا ينبغي أن نخلطَ بين حالته تلك وموقف المفكرين الجادّين المهمومين بالتفكير في المسائل أو الجهود الأخلاقية فينزلقون إلى حالة من الادعاء والتظاهر بالإبداع في لحظات ضعفهم وهو ما كانوا يؤنبون عليه أنفسهم، لأن غاية الأمر في حالة هؤلاء هي عمل جَرْد روحي يحصي تحسّن أحوالهم المزاجية أو سوءها. أما في حالة راينر فكانت جدّيته في التعامل مع الانقطاع عن الخَلق والإبداع قاسية لا ترحم، كانت جدّية تتجاوز التأنيب الأخلاقي، اللهم إلا لو كان الأمر متعلقًا بتجاوز أوامر ونواهي الأخلاق، تلبيةً لنداء القضاء والقَدر.

إن أكثر ما يثير الهَلع في حياة راينر أن قَدَره المحتوم قطع عليه كل سُبل العودة. فالقوة القاهرة التي كانت تدفعه إلى الانغماس في الإبداع أو تشدّه إلى أعماقه ليغرق في الصمت لم تكن أقلَّ قهرًا وجَبْرًا من القوة التي كانت تدفعه إلى ممارسة الأنشطة الزائفة، أو فعل اللاشيء أو الوقوع في البَطالة الإبداعية. ولهذا السبب مال راينر منذ بواكير حياته إلى مواساة نفسه عبر الإيمان بفكرة أنه مقُدّر عليه أن يصير هكذا قبل أن يأتي إلى الدنيا، وأنَّ هذه طبيعة فطرية ملازمة له طَوال حياته، مهما حاول التخلّص منها. وأن هذا الشعور كان مُركّزًا في أمّه أكثر ما يكون. أما أقسى الكلمات التي كَتبها راينر تعليقًا على هذا الموضوع ولم تفارقه طَوال حياته فقد ورَدتْ في خطابٍ مؤرخ بـ 15 إبريل 1904، ، وتحديدًا بعد أن عاودَ راينر رؤيتها إثر فراق دام مدة طويلة: "وصلتْ أمي إلى روما وما تزال هنا. وكما تعلمين فإن كل لقاءٍ بأمي يمثل انتكاسة بالنسبة إليَّ. في كل مرّة

أُضطرّ فيها إلى رؤية هذه المرأة الضائعة، الزائفة المهلهلة التي لا تشيخ أبدًا، أتذكّر أني طالما بذلتُ قصارى جهدي للفرار منها، وهو الشعور الذي ما برح يراودني وأنا طفل، ثمّ ينتابني خوفٌ عميق من أني برغم سنوات طويلة من الركض والفرار منها، لم أبتعد عنها بالقدر الكافي، وأنّ في داخلي بعض الحركات التي تمثّل النصف الثاني من إيماءاتها القديمة، وأن في روحي شظايا من ذكريات محطّمة ما تزال مطوية في صدرها. يغزوني الذعر من تقواها الشاردة، من عقيدتها المتيبّسة، أكثر ما يخيفني منها الأشياء المشوّهة الممسوخة التي تتشبّث بها؛ هي نفسها تبدو فارغة مثل ثوب يسكنه شبح مخيف. إلا أنني برغم ذلك ما أزال "طفلها"، وما يزال ثمّة باب مرسوم بشكل لا يكاد يبين على ورق حائط ذلك الجدار الباهت، وهذا الباب هو مدخلي إلى العالَم (هذا إن كان هذا المدخل يفضي إلى أي عالم من الأساس!)".

ومهما بلغَ من إسراف هذه الرسالة في الذاتية، فلا ينبغي أن نفهمها على أنها مسألة ذاتية/ شخصية على إطلاقها، لأن حُكم راينر على أمّه نابعٌ من المبالغة العاطفية المميِّزة لطبعِه، بمعنى رغبة راينر في التسامي بشعوره إلى أن يصير شيئًا فوق شخصي، إلى أن يصير شيئًا ميثولوجيًا. سبب كلامي أننا التقينا نحن الثلاثة بعدها ببضع سنوات في باريس وقضينا بعض الوقت معًا، ولَشَدَّما كانت دهشة راينر لأن انطباعي الأول عن أمّه أنها لم تكن بالبشاعة التي صوّرها إطلاقًا، وأنها لا تغدو أن تكون امرأة حادة الانفعالات فقط. كان نفور راينر من أمّه يخالطه شيء من مشاعر القنوط بسبب رؤية انعكاس صورته على مرآة شخصيتها انعكاسًا شائهًا. كان نفوره راجعًا إلى تعلّقها بمعتقداتها الخرافية وورعها الديني المفرط، وبسبب رؤية مشاعره الروحية المتقدة في مرآة مشاعرها الروحية الفاترة. كانت مظاهر الرفض الموجَّهَة إلى طبيعة أمّه مجرد انعكاس شاحب

للخوف الذي كان يقف بالمرصاد لأشدّ مشاعر راينر صدقًا وامتلاءً بالبركة الإلهية، فصوّرها خياله على هيئة ثوب شبحي فارغ، باعتباره رمزًا للرحم الأبدي للعَدَم. عندما أتخيَّلُ أشخاصًا يتأمّلون قصائد راينر - ولا أعني أولئك الخاملين الواقفين يشاهدون لوحة - ، تأخذني رعشة من فكرة الأثر الذي ستخلقه تلك القصائد في نفوسهم: أثر التشارك في فرحة واحدة، وأعني بذلك أنّه حتى مَن مرّوا بتجارب قاسية مماثلة لتجربة راينر لن يسعهم إلا أن يمدحوا الحياة بكل ما تزخر به من أهوال وصراعات، ستنفرج حتمًا عن طاقة نور. ولِمَ لا؟ بل إني أذهب فأقول: إن الفنان الحقيقي هو مدّاح مصائب الدنيا ونوائب القَدر.

عندي يقين راسخ أن راينر في ديوان "مراثي دوينو" قال: نعم، لمشاعر الإحباط التي حاصرتْ حياته، قالها بنبرة احتفائية واضحة. ففي قُدس أقداس رؤيته الشعرية لا نعثر على أدنى أثرٍ من رفض لارتباط المروّع بالجميل. فما يحدث في الخفاء بشكل عصيّ على التفسير، يصدح صوته في بيت شعري في ديوانه "كتاب الساعات":

"دع كل شيء يحدث لكَ.. حلو الحياة ومُـرّها"

وكل من كان شاهد عيان على ما **"حدث"** لراينر سيعرف كم كان من الصعب انتشاله من حالة الوحدة القاتلة التي حاصرته في أواخر أيامه، الوحدة التي جعلته، وهو على قمّة الجبل، يغطّي عينيه، ويُغضي الطرف عن الهاوية التي يقفز إليها.

كل مَن كان شاهد عيان على ما حدث، لم يكن أمامه إلا أن يدعه يحدث، وهو ينظر إلى راينر نظرة توقير وإجلال، مكتوف الأيدي، عاجزًا أن يسدي له أية مساعدة.

الفصل الثامن
ذكريات أخرى مع ريلكه

راينر..

ها هو ذا إبريل، شهرُنا، والشهر السابق للشهر الذي جمعني بكَ. ذهني مشغول بكَ بشدّة، وانشغالي بك ليس وليد المصادفة على الإطلاق.

أيًا ما كان الأمر، ففي شهر إبريل تجتمع كل فصول العام مرة واحدة. إبريل هو الشهر الذي تتخلّل أيامَه رياحُ الشتاء الثلجية جنبًا إلى جنب مع أشعة الشمس المتوهّجة، وهو الشهر الذي تتخلله العواصف الشبيهة برياح الخريف فتغطّي الأرض الرطبة بعدد لا يحصى من البراعم، بدلًا من الأوراق الذابلة. ألا يطأ فصلُ الربيع هذه الأرض في كل ساعة، فنعرف وجوده قبل أن نرى أثـرَه؟ ومن وسط كل هذا انبثقت السكينة والأشياء البديهية التي جمعتنا معًا، وكأنّ وجودنا شيء دائم إلى الأبد.

ولو أني كنتُ امرأتكَ لسنوات طويلة، فذلك لأنك أول إنسان "حقيقي" في حياتي، كنتَ الجَسَد والروح في نسيج واحد، كنتَ أشبه بحياة حقيقية لا يشوبها الكذب. في مقدوري أن أكرّر أمامكَ، كلمة بكلمة، اعتراف الحب الذي أدليتَ به أمامي حينذاك لما قلتَ:

("لو".. أنتِ وحدكِ الشيء الحقيقي في حياتي)

وهكذا صِرنا زوجًا وزوجة قبل أن نصير صديقًا وصديقة. لم تنشأ صداقتنا عن اختيارٍ واعٍ بقدر ما نشأت عن علاقة زواج باطنية مستورة. لم تكن حكايتنا نصفًا يبحث عن نصفه الآخر، كنا أنا وأنتَ كيانًا واحدًا كلّيًا واعيًا بنفسه في كليّته، مسكونًا برعدة قوية. ثم صِرنا أخًا وأختًا قبل أن يُحرِّموا نكاح أولي القربى. إلا أن اتحادنا الروحي الراغب والمستعدّ لمواجهة كل فصول السنة بظلماتها ونورها على حد تعبيرك، خضع لاختبار حقيقي فرضته ظروف حياة كل واحد منا، وهي ظروف حظرت حتى التعبير عن طبيعة علاقتنا تعبيرًا شعريًا.

راينر.. هل جانَبَنا الصوابُ عندما تخلّصنا مما كُتب آنذاك؟

قياسًا بالأعمال المتأخرة كانت نصوصكَ المكتوبة وقتها كاشفةً عن ملامح طبيعة روحكَ النقية ووجهِها الصافي، ومُفصِحةً عن خصالك الإنسانية النبيلة التي لم تستطع قريحتُكَ الشعرية إظهارها على نحو واضح، وكانت جديرة بأن تُحفظ في شكل أدبي.

أذكر أنك بعدها ببضعة أشهر، لما كنا في غابة "فالدفريدن" في منطقة "شمارجيندورف"، كتبتَ قصيدة "*Cornet*" في لحظة انتشاء شاعري خاطف، ثمّ ذكَّرتكَ تلك القصيدة بأبيات أخرى ضاعت فلم نعد قادريْن على المقارنة بين الاثنين، إلا أن القصيدة كانت تفتقر إلى إحكام السيطرة على الشعور الانفعالي العفوي. أستغرب نفسي كثيرًا لأني لم أستطع تذوّق قصائدكَ المبكرة برغم موسيقاها العذبة (وأذكر أنك واسيتَني وقتها برقة لمّا قلتَ: إنك ستتلو الأشعار بنبرة هادئة لكي أتمكن من فهمها).

ثمة استثناء آخر (إلى جانب الأشعار التي كنتَ تبعثها إليَّ)، عندما وضعتَ ورقة فيها إحدى القصائد في حجرتي. تصوّرتُ مجددًا أن في مقدوري تقليد أشعاركَ، وإن لم يكن في صورة أبيات ذات إيقاع

شعري بالطبع. ألم يهمس في آذاننا شيء غامض، شيء استطاع النفاذ عميقًا إلى جذور أجسادنا، شيء يقول: (**سيحملكَ دمي المسفوح**)، شيء استطاع ملامسة أدقّ لحظات وجودنا وأكثرها امتلاءً بالبركة؟ وبعدها بسنة وجدَتْ تلك القصيدة مكانها - بإيعازٍ مني - في ديوانكَ "كتاب الساعات":

أطفئ نور عينَي وسأراك

وأغلق أذني وسأسمعك

سآتي إليك ولو بُترت ساقي

وسأتوسّل إليكَ ولو قُطع لساني

وسأضمّكَ بقلبي ولو قُطعت ذراعي

وسيبقى رأسي حيًّا ولو انتُزِع قلبي

وحتى لو أضرمتَ النار في رأسي

سيحملك دمي المسفوح

ما أحزنني حقًّا هو أني لم أستطع التفاعل مع السيل الهادر لقصائدك الشعرية في أغلب صورها التعبيرية. وعندما اضطررتُ إلى مغادرة "فولفراتساهوزين" قاصدةً مدينة "هالاين" للحاق بموعد مضروب سلفًا، أزعجني طوفان خطاباتك الممهورة بالختم الأزرق الباهت، واستمرّت الخطابات تلاحقني أينما ذهبت. ثم وقعت حادثة طريفة بشكل عارض حوَّلَت الموقف كلّه إلى ذكرى حلوة.

كنتَ تريد تذكيري بحجرتنا الصغيرة الملحقة بالطابق الأرضي، التي اعتدتَ إغلاق مصراعي نافذتها لمنع المتلصّصين من النظر إلى الداخل، تاركًا ضوء النهار ينفذ إليها عبر ثقب خشبي صغير منحوت على شكل نجمة. وعندما وصلتني بطاقتك البريدية "الشِّعرية"، المغمورة بالحبر الأسود عند حافاتها، وجدتُّها فارغة من الكلام، باستثناء رسم نجمة صغيرة بالأعلى، فوقع في خاطري على الفور أن المقصود هو ذكرياتنا مع نجمة المساء المتخيّلة وسط السماء الحالكة السواد. تأثّرتُ بشدة، ولم يسعني في تلك اللحظة إلا النظر نظرة توقير واحترام إلى الطبيعة الحقيقية النقية لـ "رينيه ماريا".

لكن سوء الفهم بيننا لن يكون أقل سوءًا لو أغضينا الطرف عن الموقف الطريف هذا. هكذا فكّرنا عندما عدتُّ مجددًا وحكيتُ لك عن الموقف. فَكَّرنا في "نجوم حياتنا" التي لم تسطع علينا شعرًا ولا نثرًا، سواء في بزوغها أم في أفولها. أخذنا نعبث بالحبر الأسود ونشطب ونطمس عددًا غير قليل من أبيات قصائدكَ، ولم نتوقّف عن ذلك إلا بحلول منتصف الصيف. ولم تنجُ من مذبحة الشطب والطمس إلا نصف قصيدة، بقيت محفوظة في ظرف حائل اللون في نُزل "فولفراتسهاوزير":

مسَّني خطابكِ مثلما تمسُّ الإنسانَ البركة

كنتُ أعلم ألا مسافة ستبعدنا

أنتِ حاضرة في كل منظر جميل يمرّ أمامي

أنتِ نسائم الربيع وأنتِ أمطار الصيف

أنتِ ليلة يونيو التي أحلُم بها،

ليلة فيها ألف طريق، وكلها طُرق لم يطأها مخلوق مبارك قبلي

أنا بداخلكِ

أما السنوات التالية فقد أطلقْتَ عليها سنوات "إقامتنا في روسيا" برغم أننا لم نكن قد وطئنا أرض روسيا بعد. عندما أعود بذاكرتي إلى تلك المدة أكتشف أنَّ تعبيركَ أضفى على المسألة رونقًا سحريًّا، إذ أُتيحَ لكلينا الاندماج في كل شيء متصل بروسيا، أعني أننا استطعنا الغوص عميقًا في دقائق الحضارة الروسية وآدابها، وتهيأنا للرحلة بالشكل اللائق المثابر برغم عدم تحديد موعد محدد للسفر.

فاستطعنا تكوين رؤية شخصية عن البلد، وبدا الأمر كما لو أننا قبضنا على قبضة من تراب روسيا، واستطاع هذا التأثّر العميق بالروح الروسية أن يطبع أثره في شعركَ، وإن كان أثرًا مفتقرًا إلى المسؤولية، كان غرضكَ أن تحقّقَ الصورة الرمزية على أرض روسية، كان غرضكَ أن تصير أنتَ نفسك رمزًا يجسِّد الامتلاء الداخلي بالروح الروسية، ذلك الامتلاء الذي كان عبارة عن صرخة متأججة في صدركَ تائقة إلى الخروج، صرخة إلى الله (لنسمِّها هكذا بدون مواربة وبإيجاز)، صرخة إلى مكان، وهو مكان متخيّل يضمُّ الأبدية، ويعبّر عن هموم الشاعر في صورة تراتيل، في صورة "*صلوات*". في بداية الأمر لم تكن تجربتنا في روسيا بحاجة إلى وسيلة للتعبير، لأن التجارب كانت تُستهلك في المشاهد التي نخزّنها في ذهنينا كل يوم، وتحولت هذه إلى عادة لاحقًا.

ثمة أسطورة حية نشأت من قلب بعض التجارب، التي أقل ما يُقال عنها أنها تجارب عادية. وبدا ضربًا من المستحيل آنذاك أن نروي لغيرنا ما يقع لنا. على سبيل المثال: تلك الأشياء الغامضة التي كانت تحدث تحت أضواء المساء في مروج قرية *Krestá - Bogoródskoje*، أو الحصان العائد إلى قطيعه ليلًا، حاملًا حول ساقه قطعة خشب وُضعت كعقابٍ على هروبه من الحظيرة، أو الحجرة التي نزلنا فيها خلف قصر الكرملين، وجلسنا نستمع فيها إلى لغة قرع الأجراس الصاخبة.

تُذكي مثل هذه اللحظات، عندما يتشارك فيها اثنان عاشقان، شعورًا قويًا بأن بعض أحداث حياتنا، حتى العابرة منها، تستطيع أن تملأ أرواحنا بثراء حقيقي كما لو كانت تجارب حياة مؤثرة. وهو تحديدًا ما أسبغ على هذه الانطباعات واللحظات العابرة موثوقية ورسوخًا لا نظير له، وهو أيضًا السبب وراء اختلاف ردّ فعلي عن ردّ فعلكَ فيما يتصل بتجاربنا المشتركة. دعني أشرح لكَ ما أقصد؛ أما عني فكانت تجربة السفر إلى روسيا بمثابة فرحة اللقاء الثاني بالوطن، وتعويضًا مُبهجًا عن مشاعر الإنكار السابقة لافتقاد الوطن الأم الذي فارقتُه لسنوات طويلة.

وأما عنكَ فكانت تجربة روسيا بمثابة الشرارة الأولى ونقطة التحوّل الفارقة في مسيرتكَ الشعرية، وكانت أيضًا - بشكل أو بآخر - غاية طالما تُقتَ إليها وانتظرتَ بلوغها من صميم قلبك منذ حداثة سنّكَ، أقول هذا برغم أن أحداث حياتك اللاحقة باعدَتْ بينكَ وبين هذه الغاية المنشودة، وحادتْ بكَ عن طريق تحقيق شيء كان جوهر وجودكَ الأصيل.

وبعد رحلتنا بسنوات عدّة، ووسط ظروف مختلفة تمام الاختلاف، عندما ضاقت الدنيا في عينيك وتمكّن اليأس منكَ من جرّاء حُبسة الكتابة، أطلَعتَني على رغبتكَ في توظيف "العنصر الأسطوري" أو "العنصر الصوفي" كمُخدِّر يُعينكَ على تضميد جراحك وتهدئة روعك.

وهكذا رحتَ تنظر إلى تجاربنا المشتركة على أنها معجزات كانت ضائعة، ثم عُثِرَ عليها من جديد! ولم نجد مشقّة في استعادة هذه التجارب، التي لم تأتِ إلينا في هيئة تجربة صوفية غامضة، بل في صورة حقيقة واقعية قادرة على أن تقودَنا إلى أوطاننا مرارًا وتكرارًا.

راينر.. لقد استشعرتُ تلك الحقيقة في كلماتكَ المرِحة حينما سافرنا لبضعة أسابيع لنزور نهر الفولجا، وركب كلّ واحد منا باخرة مستقلة، فأخبرتَني بنبرتكَ الهادئة المطمئنة:

"وحتى لو ركبَ كل واحد باخرة مستقلة، فسيحملنا طريق واحد ونهر واحد، لأن في انتظارنا في نهاية الرحلة نبعًا واحدًا".

ولو أني واصلت التفكير في هذه الذكريات لبقيتُ طوال حياتي أحكي لكَ ولنفسي بأنفاسٍ لا تنقطع، وكأن فعل الحكي يكشف النقاب، للمرة الأولى، عن مغزى كلمة "شِعر"، لا أقصد الشِّعر كصنعة، بل كتجسّد، ولا أقصد الشعر ككلمة، بل كجسد حي. وهذه هي "معجزة" الحياة الحقيقية.

إنَّ الشِّعْر الذي خرج من أعماقكَ واعتبرْتَه أنت دون قصد منك "صلاة"، رأته الإنسانة الساكنة إلى جواركَ رؤيا نبوئية لا تُمحى من الذاكرة، وستظلّ تراه كذلك حتى الرمق الأخير من حياتها، لأنه ضمَّ كل شيء لمستَه، وظلَّ ماديًّا ملموسًا، ليكشف عن مكنونه الإلهي المقدّس كلما لمستَه بيدك، بل أقول لك: إن إنكار الذات الطفولي الذي قابلتَ به الأمور دومًا كان كفيلًا بتوكيد هذه النفحة الإلهية يومًا وراء يوم، وساعة وراء ساعة.

كانت كل لحظة تمرُّ علينا معًا مترعة برغبة محمومة في أن نوفي كل تجربة حقّها، أو دعني أصوغ العبارة بطريقة أخرى: كانت كل لحظة تمرّ علينا ونحن معًا هي إجازة احتفالية نعربد فيها ببهجة لا توصف. ولم نكن نكترث هل هذا الشعور بالتجربة ذاتي سينسجم مع صوغها شاعريًّا أم لا. وإلا فقل لي: هل ينشغل المصلي بفكرة أنّ صلاته ستنال قبولًا أكثر عند الله لو عَقَد يديه أمام صدره بطريقة أفضل؟ ألا يشعرُ المصلي بوجود ربّه في قلبه مثلما يشعر بحقيقة نفسه، مهما أتى بحركات خرقاء؟

حدث ذات مرة أن فاتكَ شيء في صلاتك (وحيكَ الشاعري)، وكنتَ تريد تكريس نفسكَ له تكريسًا تامًّا لأجل معايشة التجربة قبل

تبخّرها، لكن شيئًا قهريًا دفعكَ لصوغ التجربة بالكلمات على عجل، إلا أنّ قلقكَ من كتابتها بسرعة سرعان ما تبدّد، لتحلَّ عليك السكينة.

وفي المرّات التالية التي راودكَ فيها هذا الشعور كانت تطوف بذهنك فكرة مسلية طالما ضحكنا منها كثيرًا. أخبرتَني ساعتها أنّ الله لو اطّلع على عملك الشعري، لم يكن ليغضب منك لأنّك قطعتَ صلاتك.

تذكّرنا حكاية السيدة (ب) وزوجها السيد (ب)، الذي لم يكن يوليها الاهتمام اللائق في أثناء شهر العسل، ولما تذمّرتْ حاول الزوج أن يصالح زوجته الغاضبة بأن أكّد لها أنّ سبب انشغاله الوحيد عنها هو تأليف قصيدة غرامية ملتهبة لأجلها، وكنا نُغرق في الضحك.

وشيئًا فشيئًا طرأ عليك تغيّر، وبدأنا نتراجع عن ضحكنا البريء. في البداية فكّرنا أنها مشكلة صحية، لكننا بدأنا نفهم الصورة على حقيقتها، بدأنا نفهم أنّ السبب هو اتساع الهوّة بين التجربة المعيشة وبين التعبير عنها وصوغها في قالب فني، وتطوّر الأمر إلى حالة قلق نفسي حاد، بل حالة من الذعر في بعض الأحيان بسبب إخفاقك في ردم هذه الهوّة الشاسعة بين المطلبيْن.

ولشدّما كان ذعري عندما خرجنا في إحدى المرات لتمشية الظهيرة المعتادة عبر أشجار الأكاسيا الساحرة، ثم وجدتَّ نفسكَ عاجزًا عن المرور أمام شجرة بعينها. في البداية تجنّبتَ المرور بهذا الممشى، وبعد برهة، وعقب تجاوزكَ نوبة القلق، أشرتَ إلى الشجرة قائلًا: "هل تذكرين؟" أومأت برأسي ورحت أتفحّص الشجرة التي لم تكن تختلف البتة عن أخواتها، جحظت عيناك من محجريهما جحوظًا هائلًا وكأنك لا تصدق قائلًا: "هذه؟ لا.. لا. أقصد هذه!"، وكان بإمكان الجميع أن يلاحظ ارتياعكَ من هذه الشجرة بشكل واضح.

وقِسْ على ذلك غيرها من الأخطار التي كانت تقع عندما تخونك ربّة الشعر في صوغ تعبير معين، حينها لم يكن ينتابكَ شعور بالإحباط أو تأنيب الذات أو الاكتئاب (كما هو الحال مع الإنسان العادي) وحسب، بل كنتُ أرى أمامي بركانًا من المشاعر ينفجر انفجارًا مدويًا، يتعاظم مداه حتى يبلغ درجة وحشية مروّعة، وكأنك تُسلّم نفسك إلى قوة عليا قاهرة تتحكم فيك، بالطريقة نفسها التي تُسلم بها نفسك إلى حالة الإبداع الفني. وكنتَ تُسمّيها "حالة إبداعية ضلّلها الخوف"، وكأن هذه الحالة بديل يائس لعجزك عن إحكام السيطرة على الأمور.

وفي الأسابيع التالية الخالية من التجارب المريرة ضربنا صفحًا عن تلك الأحداث، وقررنا الاستمتاع بكل لحظة من وقتنا مثلما كنا نفعل وقت تأليف ديوان "كتاب الساعات"، لكن نوبات القلق والألم الجسدي بدأت تنهش روحكَ مجددًا، وكأنَّ العواطف المحبوسة في أعماقك، التائقة إلى إطلاق سراحها لم تشفِ غليلَها إيماءاتُ الروح، وكأن جسدكَ كان يختزن هذه المشاعر حتى تنفجر في هيئة تشنجات. ثمَّ انتابكَ الفزع عندما أحسستَ أنّ ثمة أسبابًا مرضية وراء هذه الأعراض كلها.

في تلك الأثناء لم نتكلّم قط عن كيفية تحويل قصائد "الصلوات" لتصير ما يُعرف اليوم بديوان "كتاب الساعات"؛ أي تحويلها إلى عمل، إلى مُنجز فني يحمل كل أسباب النبوغ الشعري. وكانت فكرة النشر أبعد ما تكون عن أذهاننا. وأخَذتنا الحيرة فيما في وسعنا أن نفعله لإنقاذكَ من الصراع الذي يعتمل في أعماقك. أعني إنهاء حالة الانقسام في نفسكَ بين التوجّه إلى الله بالصلاة الروحية وبين مخاطبة الله عبر الشعر.

لكن أعقد ما في المسألة برمتها أنَّ تفجّر طاقتك الشعرية وجسامة المهمة دفعاكَ إلى السعي وراء إحكام الصنعة الفنية، بدلًا من أن تعطيها الفرصة - حتى لو استغرق الأمر سنوات - لأن تختمر وتنضج على مهل على نار عالم الواقع، ففي عالم الواقع تمنحكَ أشياءُ الحياة اليومية الوقت والهدوء اللازمين لإتقان فن التعبير الشعري.

في تلك الأثناء تحدّثنا معًا حول ضرورة الاندماج مع العالم ومخالطة البشر، بدلًا من ملازمة العالم التصويري الرمزي، الذي شُغِلتَ فيه بمحاولة وصف وتصوير الأحلام العصية على كل وصف وتعبير. ولكن الحق أقول لك: لم أنتبه لضرورة هذه الخطوة انتباهًا واضحًا إلا في نهاية رحلتنا الثانية إلى روسيا. كنتُ في زيارة قصيرة لعائلتي في مقرّ إقامتها الصيفي (المؤقت) في الريف الفنلندي لمّا وصلني خطابكَ الذي وصمتَ فيه نفسكَ بالرجل الدَّنِس بسبب نبرة الادّعاء التي تنضح من "*صلواتكَ*". صحيح أنّكَ أعقبتَ رسالتكَ هاته برسالة ثانية اختلفت فيها النبرة اختلافًا تامًّا، إذ كانت مكتوبة بنبرة مفعمة بالانتشاء الحماسي، وهي النبرة التي طالما كنتَ تسخر منها وتصفها بمرحلة ما قبل الإقامة في "فولفارتسهاوزن"، والتي بدت وكأنها انتكاسة غير مفهومة. وكان هذا أشدّ ما غمَّني وهمَّني لأني شعرت أن تجدّد لقائي لروسيا حقَّقَ لي رغباتي الشخصية، وشعرت أيضًا بالسعادة والاستعداد لمجابهة الظروف القهرية التي هيمنت على حياتي، وهو ما كان يستلزم مني بأسًا وشجاعة. أما سبب همّي وغمّي فهو أنَّ ما كنت أتوقُ إلى تحقيقه قد جاءني على طبق من ذهب من دون أدنى مجهود، أما أنتَ فقد حفرتَ في الصخر لتحقيقه.

لم أكن أعرف في أي غورٍ عميق من أغوار الفنّ سينضج عملك الإبداعي، ولم أكن لأراك أرفع شأنًا ولا أشد إثارة للإعجاب أكثر مما رأيتكَ في هذه اللحظة. كنت مأسورة بهَوْل مأساتك الشخصية وحدَّتها،

ولم أفلت من قبضة هذا الأسر قط. في هذه اللحظة كان من الضروري أن تطأ قدماكَ، وعلى وجه السرعة، عتبة البراح والحرية وتطوير قواك الشعرية على الوجه اللائق.

ولكن.. ولكن.. ألم أُنتَـزَعْ منك في ذلك الوقت؟ ألم أُنتَـزَع من بين يديك عندما كنا شيئًا واحدًا؟ بحقكَ: من ذا الذي يقدر على أن يعرف ظلمة القُرب الذي ضمّنا أو ظلمة البُعد الذي فرّقنا؟ حتى في أشدّ لحظات اقترابنا حافظتُ على مكاني خارج الدائرة الرسمية التي تربط رجلًا بامرأة، ولم يتغيّر موقفي قط. بقيتُ خارج كل ما كان قابلًا للنمو والتطوّر، واستمرّ الأمر هكذا حتى حان أجلكَ، والمؤكد أنه سيستمرّ حتى يحين أجلي أيضًا، فأنا امرأة لا أحبُّ الكلام المزوَّق.

في أحيان كثيرة كنت أضع رأسي بين كفّي، وأجهِدُ عقلي لفهم حقيقة ما يجيش بداخلي من أفكار ومشاعر. تأثّرتُ بشدة في مرة كنتُ أتصفّح فيها دفتر يوميات قديمًا مهترئًا لا يكاد يحوي شيئًا ذا قيمة، ووقعت على جملة حادّة النبرة في صراحتها كنصل السيف تقول:

"طالما كنتُ وفيَّة للذكريات، لكني لن أكون أبدًا وفية للبشر"

ولما اتخذ كل واحد منا مسكنًا منفصلًا بدا من الضروري أن نحافظ على ما تعاهدنا عليه بشأن هَجْرِ عادتنا القديمة، أعني عادة تبادل الرسائل التي تحكي التفاصيل اليومية لحياة كل واحد منا، باستثناء "*ساعة الضرورة القصوى*". فعلى خلفية ظروف حياتي الجديدة لم يكن ثمة مجال للتداخل بين حياتينا مثلما كان في السابق.

ثمّ حانت "*ساعة الضرورة القصوى*" إبان إقامتكَ في باريس عندما تحوَّلَ المبدأ البطولي الذي أكرِهتَ عليه على يد رودان: "واصلِ العمل دائمًا"، إلى لون من ألوان الانتقام، الذي صنع من كل ما كان يحيط بك

هواجس لا نهائية مدمرة، مثلما حدث في حالة الحُبسة الإبداعية التي ألَمّتْ بك إبان إقامتكَ في روسيا. وفي غمرة مشاعر القلق استطعتَ أن تصنع من مخاوفكَ فنًّا مبدعًا.

من بين ما وصل إلى يدي من تركتكَ الأدبية رسالة كنت قد كتبتُها إليكَ، ويا ليتكَ تعلم مقدار الفرحة التي غمرتني لمّا قرأتُها مرة ثانية. ولكني حتى في هذه الأثناء لم تكن تهمّني كثيرًا أعمالك الشعرية القادمة بقدر ما كان يهمّني أن يلتئم جُرح صراعاتك الداخلية وأن تبرأ منها.

خضتَّ، حينذاك، صراعًا داخليًّا عنيفًا بشأن مسألة النزول على إرادة الناشر والموافقة بشكل نهائي على دفع ديوانك "كتاب الساعات" إلى المطبعة. كان مخطوط الديوان، الذي كان في حوزتي وقتها، هو سبب لقائنا الثاني في كوخ "لوفريد" في مدينة "جوتنيجين"، فنقَشنا اسم الديوان فوق العلم المرفوع أعلى الكوخ تخليدًا لهذه الذكرى. ما يزال في مقدوري رؤيتكَ الآن مضطجعًا فوق البساط الكبير المصنوع من فروة الدب، المفروش أمام باب الشرفة المفتوح، تنعكس على وجهكَ صورة أوراق الشجر بين الضوء والظلّ.

راينر: كان يوم عيد العنصرة سنة 1905. في هذا اليوم حلَّتْ روح أخرى مغايرة تمامًا لما توقّعتَه أنتَ في غمرة جيشان عواطفكَ. وكان الأمر يمثّل لي رحلة صعود العمل الشعري نفسه بدلًا من رحلة صعود الإنسان الشاعر. وللمرة الأولى في حياتي أحسُّ أن "العمل الشعري" نفسه هو السيّد والقائد الشرعي الذي يقود خطاك. *وأي شيء بعدها قد يُطلبُ منكَ؟*

كاد قلبي يتوقّف عن النبض، وكأن شيئًا بداخلي يستشرف ديوان "مراثي دوينو" الذي لم يرَ النور إلا بعدها بعقود. واعتبارًا من يوم عيد العنصرة[1] شرعتُ في قراءة عملك قراءة ذاتية خاصة بمعزل عما قرأناه، ففتحتُ قلبي للعمل واحتفيتُ به بوصفه تعبيرًا عن مصيرك القادم الذي لم يكن ثمة سبيل إلى إنكاره. وها هنا صرت مرة أخرى طوع أمركَ، وبطريقة مختلفة صرتُ عذراءكَ البتول.

وأيًا ما كانت الأماكن التي ارتحلتَ إليها في العقود القليلة من عُمرك التي تلت ذلك، وأيًا ما كانت محطات إقامتك، وسواء أكنتَ تنشد منزلًا ومأوى آمنًا تسكن إليه أم كنتَ تنشد الحرية المطلقة في التجوال، مدفوعًا بالرغبة الملحة في التغيير، كان من المستحيل عليك تبديد شعور التشرّد الداخلي الذي يعتمل في صدرك.

راينر: إننا نحن - الألمان - نواجه في أيامنا هذه تحديًا سياسيًا هائلًا متصلًا بمسألة الأرض والقومية، وهذا ما يدفعني إلى التساؤل أحيانًا عن مدى الضرر الذي لحق بك بسبب كراهيتك الشديدة لجذورك النمساوية. ربما أتصوّر أنك لو كنتَ قد أحببتَ بلادكَ وحافظتَ على انتمائك للعرق النمساوي لحماكَ هذا في أوقات اليأس التي طوّقتكَ بسبب حُبسة الكتابة، وكان أكبر أخطارها أن ترفضَ نفسك. فتراب الوطن بحجارته وأشجاره وحيواناته معجون بشيء مقدّس ومتغلغل إلى شعورنا الإنساني العميق.

---

(1) ربما ينبغي للقارئ ألا يغفل الربط بين دلالة الإشارة إلى عيد العنصرة في المسيحية (وهو عيد تجلي الروح القدس على تلامذة المسيح بعد صعوده للسماء وفق العقيدة المسيحية)، وبين ألفاظ لو سالومي هنا وفي الفقرة التالية: "رحلة صعود عملك الشعري"، "عذراءك البتول" (المترجم).

ولكن، بحقّكَ، أخبرني أي خيرٍ جنيتَه من وراء اختيار سويسرا كوطن جديد لك وكبداية جديدة لأعمالكَ بعدما سئمتَ فرنسا عقب إقامتكَ في باريس، وبعدما شبعتَ من اللغة الفرنسية، ومن الأصدقاء الفرنسيين؟ كانت نبرة رسالتك طافحة بالتعاسة.

كنتَ راغبًا في العودة إلى برج "ميزوت" وأنتَ في حالة من الانزعاج والارتباك. واعذرني في عدم الإدلاء بكلمة حول مضمون قصائدكَ الغنائية المكتوبة بالفرنسية، إذ تنقصني القدرة على التمييز اللغوي.

لكن ذوقي المتحيّز دومًا في القراءة (وأنا أعترف بذلك صراحة) يقودني إلى التشكك في بعض التعبيرات، مثل وصفك الوردة بأنها "حفلة على شرف فاكهة مفقودة". دعني أسأل: هل هذه حالة أسى على ما هو مفقود أم حالة مازوخية؟

هناك شيء آخر؛ ثمّة صورة فوتوغرافية لكَ ضربتني في وجهي مثل ضربة الألم أو الجرح، لكني أخفيتُها عن أنظار الجميع. لن أقول المزيد. لعلكَ تفهم ما أعني. وعندما وصلتني الصورة قلتُ في نفسي للوهلة الأولى: ألم تنظم الشعر باللغة الفرنسية وتستخدم أرضًا أجنبية كنقطة اتكاء للهروب من الشيء الغامض الذي كان يدفعك سرًّا إلى الهاوية؟

كيف يمكنني أن أتأمّل الموضوع بنظرة موضوعية عادلة؟ اضطرمت في نفسي الصراعات الخفيّة وأنا أفكّر في مصيرك، لكني لم أصل إلى إجابة شافية. لم أستطع كفَّ نفسي عن مواصلة البحث والتنقيب في قَدَر هذا الشاعر، هذا الرجل الذي تَوَّجه القَدَر بتاج الشِّعر، وفي النهاية دهسته عجلات القَدر، الرجل الذي صنعته يدُ الفِطرة.

راينر: لم يكن هذا الرجل إلا إياك حتى الرمق الأخير من حياتك. الرجل الممتلئ ثقة بنفسه، لأنه - وهو يتجاوز أناه - أحسَّ أنه منوط به مهمة عُهِدَ بها إليه من لَدن كيان عظيم، وكانت هذه المهمة هي تقديم شهادة شعرية عن تجربته الروحانية العميقة.

في كل مرّة نلتقي فيها ونتكلّم، تلفّنا حالة من *"الحضور الأبدي"*، وأنتَ مفعم بثقة نابعة من أعماقك، مثلك كمثل طفل لا تتعثّر خطواته أبدًا، لأنها خطوات تدبُّ على أرض راسخة.

وهنا تجلّى حضور راينر مرة أخرى، جالسًا معي ويدي في يده، تغشانا سكينة تعجز عن وصفها الكلمات، ثم طوَّقكَ الشعرُ الذي أسفَرَتْ عنه هذه السكينة، بهالة نورانية مشرقة لا يخبو ضوءها أبدًا. حينما أفكّر في هذه الذكريات لا يسعني إلا استحضار أقصر قصيدة من قصائد ديوان "كتاب الساعات"، وهي القصيدة التي أحسستُ لحظة أن كتَبْتَها... (آه يا راينر! هذه اللحظة حاضرة دائمًا بالنسبة إليَّ)، أقول: أشعرُ وكأنها تخرج من فم طفل مرِح:

وكل خطوة أخطوها في حياتي إنما تحملني إليكِ

ترين مَن أكون أنا ومن تكونين أنتِ

لو لم يفهم بعضنا بعضًا؟



الفصل التاسع

تجربتي مع فرويد

يرجع تحمّسي لدراسة علم النفس عند فرويد إلى واقعتيْن مختلفتين تمامًا، ولا تمتّ إحداهما إلى الثانية بِصلة، أما الواقعة الأولى فهي مشاركة إنسان قدَرَه المتفرّد وتجربته الروحانية الشديدة الخصوصية، وأما الثانية فهي نشأتي وسط شعب لديه نزوع فطري قوي إلى الحياة الروحية الباطنية.

لكني لن أتطرق إلى الحديث عن الواقعة الأولى، وسيقتصر كلامي على الواقعة الثانية، ألا وهي الشعب الروسي. طالما قيل: إن الروس، المرضى منهم والأصحّاء على حد سواء، يجمعون بين خصلتيْن قلما تجتمعان في شعب واحد: إحداهما بساطة الجوهر، وأخراهما القدرة على تسليط الضوء على أشدّ المسائل تعقيدًا بطريقة لا تخلو من ثرثرة واضحة، فضلًا على براعتهم في العثور على أساليب أدبية لها مذاقها الخاص في التعبير عن الأمور الروحية المعقدة.

ولعل الأدب الروسي خير شاهد على ذلك، ولا أخصُّ بالذكر هنا أساطين الأدب الروسي وحدهم، وإنما أعني الأدباء المتوسطي القيمة أيضًا (وإن كانوا يفتقرون إلى الأسلوب المميِّز): في الأدب الروسي نجد أعلى درجات الصدق المعبّرة بلسان طفولي تعبيرًا مباشرًا عن هموم البشر وغاياتهم، وكأن أفكار الأدباء الروس العِظام تأخذ نبرة صاعدة من أدنى درجات البدائية وصولًا إلى أعلى درجات الوعي.

عندما أفكّر في الروس الذين قابلتهم في حياتي سرعان ما أفهم سرّ قدرتهم على تحليل وضع العالم الراهن بسهولة، وأفهم سرَّ تمسكهم بفضيلة الصدق مع النفس؛ وأما هذا السرّ فهو التخفّف من قيود القمع الفكري التي كانت تقف حجر عثرة - عند الحضارات والشعوب القديمة - بين التجربة المعيشة وبين تأمّلها الواعي، وهو ما يوقفنا على مشكلة من أهم المشكلات الرئيسة والجوهرية في مضمار التحليل النفسي العملي، ألا وهي: إلى أي حد يساهم مخزون التفكير الطفولي داخلنا في مواصلة نموّنا النفسي نموًّا طبيعيًّا سويًا؟ وإلى أي حد يساهم هذا المخزون في حدوث انتكاسة نفسية، فنسقط من قمّة الوعي الذي بلغناه إلى الدرك الأسفل من مرحلة بدائية موغلة في القدم؟

أما اليوم فقد تحوّل التحليل النفسي، لو تأمّلناه من منظور سيرورة تطوره التاريخي، إلى علاج عملي قائم على أساس منهجي راسخ. ولما انخرطتُ في دراسة علم النفس التحليلي اتضح لي أنه لا يمكن فهم طبيعة الإنسان السوي إلا عبر فحص ودراسة الإنسان المريض، لأنه في حالة المريض [النفسي] يمكننا فكّ شفرة الأشياء والأسرار التي تبقى خفيّة مستورة عن أعيننا في حالة الإنسان الطبيعي.

كانت عمليات التنقيب تتوخّى أقصى درجات العناية والحيطة المنهجية، إذ تحفر عميقًا في أغوار النفس البشرية، فتُزيل طبقة وراء طبقة، واستطاع مِعول "فرويد" الحفر بثباتٍ، واستطاع توكيد حقيقة أن النتائج التي جرى التوصل إليها، غير قابلة للدحض.

اللافت أننا كلما واصلنا الحفر عميقًا تأكّدَ لدينا أن العقل الباطن [اللاوعي] عند المريض النفسي يُظهِر السمات والخصائص نفسها الموجودة في العقل الباطن عند الإنسان العادي، وأعني تلك الرذائل

التي نُطلق عليها: "الجشع" و "الفظاظة" و "دناءة الطباع"، أو لو شئنا الاختصار لقلنا: كل ما نخجل من إظهاره أمام الناس من صفات دونية دنيئة، بل حتى لو تكلّمنا عن دوافع عقلنا الواعي فربما لا نستطيع أن نزيد على ما قاله "مفيستوفيلس".[1]

وإن كان التطور الحضاري التدريجي قد أسفر عن تجاوز هذه المرحلة البدائية – بفضل ما توالت على الإنسان من أزمات وخبرات عملية – ، فإن ذلك لم يحدث إلا بسبب فتور هذه الغرائز ووهنها، وبسبب فقدان القوة والامتلاء بها، فوصل بنا الحال إلى أنْ نرى إنسان العصر الراهن أقرب إلى "إنسان/ حيوان" هزيل مهيض الجناح يقف في نهاية سلسلة التطور الحضاري، قياسًا بذلك الهمجي البدائي، الفاقد الحضارة الذي يعطي انطباعًا بالهيمنة والسيادة على الأرض.

والحقيقة أن مثل هذه النظرة القاتمة للأمور، النظرة التي نادرًا ما يرحّب بها الشخص المعاف، في حين يفتح لها المريضُ الحالم بالشفاء ذراعَيه، أبعدتْ مزيدًا من الباحثين عن منهج التحليل النفسي، والسبب أن هذه النظرة تثير روحًا تشاؤمية تشبه الروح التي تسيطر على العصابيين اليائسين، الذين من المفترض أن يداويهم التحليل النفسي.

وقبل الإدلاء برأيي الشخصي في هذه المسألة يتحتم عليَّ في البداية الاعتراف بأنني مدينة بفضل كبير لمنهج التحليل النفسي الذي انخرطتُ فيه مبكرًا، وأعني بهذا الفضل عدم الانزعاج بالنتائج غير المُرضية أو غير السارّة التي تسفر عنها هذه التحليلات، وتكريس الجهود للفحص الدقيق لموضوع البحث أو الحالة الفردية محلّ الدراسة، أيًا ما كانت النتائج التي ستكشف عنها. وكان هذا بالضبط هو ما أحتاج إليه.

---

(1) الإشارة إلى شخصية الشيطان مفيستوفيلس في مسرحية فاوست لجوته (المترجم).

كانت عيناي ما تزالان مشبّعتين بالانطباعات والأفكار المبكرة التي كانت تظن أن الإنسان البدائي قابع في أعماق الطفولة الجمعية، وأنّ مخزون الطفولة هو الكنز السري المدفون تحته النضج، إلا أنني نبذتُ هذه الانطباعات برمتها، وانكببت بجدية على دراسة الحيثيات العقلانية التي تضع الإنسان موضع الدراسة. وقد فعلت ذلك لأجنّبَ نفسي خطر السير وراء سرابٍ أعمى، وأقول أعمى لأنه يحجب الرؤية المتبصّرة؛ فعلتُ ذلك لأجنب نفسي الانجذاب إلى "*علم النفس البريء اللطيف*"، الذي لا يقودنا إلى معرفة الحقيقة، بل يقودنا إلى التسكّع في جنّة الأماني المُتخيّلة.

لا تخالجني ذرة شك في أن هذا الموقف خلقَ لنا خصومًا كثيرين وأبعَدَ عنا أنصارًا أكثر، وإن اختلفت الأسباب. وهي رغبة منطقية ومبررة، فمن الطبيعي أنّ الإنسان يودّ الحصول على إجابات تشفي غليله حول الأشياء التي لا يرغب في مشاهدتها معلقة في الهواء أو بعيدة عن متناول يديه، أو الأصح أن نقول: الأشياء التي يعرف سلفًا إجابتها المُرضية.

وأغلب الظنّ أن هذا الموقف سيستمرّ حتى بعد أن تحوّلت الحقائق الصادمة التي كَشَفَ عنها منهج التحليل النفسي إلى أمور مألوفة بعد اعتياد الناس لها. ويبدو أنّ هذا هو مبرر محاولة بعض الناس مقاربة المسائل المنطقية والعقلانية البحتة عبر التفكير الفطري والغريزي، لكن في لحظةٍ ينتابه - حتى في مضمار "العلوم الإنسانية" التي تُقسِّم أية مسألة إلى باحث ومادة للبحث - أقول: ينتابه إغراء قوي بأن يضيف قليلًا من التوابل الشخصية إلى نتيجة بحثه لجعلها سائغة مقبولة.

ربما كان هذا هو السبب في أنّ منهج التحليل النفسي انتظر سنوات طويلة حتى ظهور مؤسّسه الحقيقي، أقصد الرجل الذي كان يمتلك الإرادة والرغبة في رؤية ما كان غيره يدفنون رؤوسهم في الرمال لتجنب رؤيته. وكان هو الرجل الوحيد الذي توخّى أقصى درجات النزاهة والحيادية (ولم يركن إلى مبدأ ضبط النفس، ولم يتأفّف من الأشياء المقزّزة)، ولم يحمل همًّا لمواجهة حقائق مثِيرة للاشمئزاز أو منفّرة.

وكان هذا الموقف مسوِّغًا قويًّا لإثبات حقيقة أنّ فرويد صار رائد علم التحليل النفسي بحق؛ أقصد هنا بفضل سماته التالية: متعة التفكير، الشغف البحثي المستمد إلى حد بعيد من قدرته على حب الآخرين، رغبته العارمة في التمكّن من حقله البحثي حتى إنه لم يشغل باله قط بكيفية تقييم الناس للنتائج التي سيصل إليها ولا بكيفية الحُكم عليها.

وقد أدَّى هذا النقاء البحثي المتجرّد من الأهواء (أقصد عدم خلط الأمور الجوهرية بالثانوية، أو المزج بين الدوافع الأساسية والهامشية) إلى الوصول إلى معرفة علمية دقيقة لا تشوبها شائبة، ولا تستثني حتى أدقّ الأشياء المدفونة تحت الركام؛ وهكذا رأينا أن الرجل الملتزم بالتفكير المنطقي البحت، الرجل العقلاني حتى النخاع هو صاحب الفضل في اكتشاف "الجانب اللاعقلاني" في النفس البشرية، بطريقة غير مباشرة.

ثم احتفى الرجلُ بتعميد العنصر الجديد الذي اكتشفه تحت اسم "اللاوعي"، مُبرِزًا الجانب السلبي النافي من التسمية (**اللا/ وعي**). والحقيقة أني رأيت في الحروف الثلاثة من الاختصار الألماني للاصطلاح *Ubw=Unbewusst* [اللاوعي] جانبًا إيجابيًّا بوصفه دفاعًا شخصيًّا تتوسّل به النفس ضد السقوط في البلبلة والتشوّش، ضد كل ما يصنع

مِنَ المكتشف مُخترعًا[1]. إن أكثر ما يضيء إنجاز فرويد هو جهوده الحثيثة لأن يجعل "العقل اللاواعي" الذي كان يتعذّر الولوج إليه، متاحًا للبحث والدراسة أمام أدوات العقل الواعي واختباره على المستوى الجسدي والإكلينيكي، ورفض الرضوخ أمام وصاية طرائق التفكير التقليدية.

وأغلب الظن أن أشدّ المطاعن والانتقادات التي أثيرت في وجه منهج التحليل النفسي بسبب تركيزه المطلق في "الغريزة الجنسية"، إنما نبعت من حقيقة أن الجنس يثير فينا نحن - البشر - حالة التوتر والاضطراب من كل شيء خارج عن نطاق وعينا، لأن الجسد تحديدًا هو الوسيلة الرئيسة التي ندرك بها العالم الخارجي، ومن ثمّ لا يمكننا الاستغناء عنه أبدًا.

طالما بدا لي أن أكثر ما يثير غضب الناس وحنقهم هـو أن يَرَوا أنفسهم منغمسين في تلبية مطالب الجسد وحده، وبرغم أنّ الجسدَ عنصر جوهري من عناصر الوجود، هو غير منسجم البتة مع الرغبات التعبيرية لعالَمي الفكر والروح. والحقيقة أننا كلما شحذنا وعينا ليصير أكثر حدّة، نما في المقابل خصمٌ مساوٍ له في القوّة، مضاد في الاتجاه، وكأننا إزاء شخص آخر، وهذا يصدق بالمثل على طبيعة أجسامنا التي تكره أن يجري الحطّ من قيمتها لمصلحة شيء آخر. (كانت جميع أنواع التفكير الميتافيزيقي الموغلة في القدم أفضل منا حالًا في هذه النقطة؛ إذ لم يكن عنصرا الروح والمادة خاضعين لسلطان الوعي بشكل مطلق، بل كانا يتراوحان بين قطبي الوعي واللاوعي، تمامًا مثلما هو الحال عند الأطفال).

(١) المقصود توكيد أنّ اللاوعي/ العقل الباطن متجذّر في النفس البشرية منذ الأزل، وأن دور فرويد كان اكتشافه، لا اختراعه (المترجم).

ولهذا السبب لم يكن فرويد موضع ترحيب أو حفاوة، لا سيما بسبب التنويه بالأهمية المطلقة لمراحل الطفولة المبكّرة في توجيه مسار حياتنا الفكرية/ الروحية برمتها، ليس فقط بسبب إشارته إلى أطروحة مراحل السلوك الجنسي لدى الأطفال، التي نالها هجوم عنيف، بل باعتبار الجنس هو المَعين النهائي الذي ينهل منه تطوّرنا الداخلي باستمرار، وهو ما أفضى بطبيعة الحال إلى ضرورة العودة إلى هذه المراحل المبكّرة طلبًا للشفاء: بمعنى الرجوع إلى أوّل وأقدم تجربة في مسار الحياة الروحية للفرد، وهي التجربة التي تتكشّف للعيان كلما مرَّ الوقت، وكذلك ضرورة الرجوع إلى العتبة الفطرية الأولى التي تبقى بداخلنا ولا تغادرنا أبدًا، حتى في غمرة أنشطتنا السوية التامة، مهما تهيّأ لنا أننا قادرون على "التسامي" فوقها.

لقد استعملَ فرويد مصطلح "التسامي"[1] في قاموسه الاصطلاحي (بصرف النظر عن الابتذال الذي يمكن أن ينال من التعبير)، وكان يعني به صرف انتباهنا عن الرغبة الجنسية كغاية نهائية، وهو التعبير الذي يستدعي بالضرورة ابتسامة متفهّمة للأمور.

وهكذا يظهر "التسامي" كواحد من أقوى اصطلاحات فرويد (وهو اصطلاح قادر على تبديد كل أوجه سوء الفهم بضربة واحدة). عبر "التسامي" يمكن معالجة أشدّ مظاهر السلوك الجنسي انحرافًا برغم "نجاحها المروّع في تحقيق مأربها"، فالرغبات الجنسية المكبوتة منذ الطفولة هي انحرافات تحيد بالإنسان عن سبيل بلوغ نضجه الجسدي.

---

(1) بشيء من التبسيط: التسامي، بالألمانية (*Sublimierung*) هو تحويل الدوافع الجنسية إلى إنجازات مفيدة اجتماعيًّا، يشمل ذلك الأنشطة الفنية والإبداعية، يرى فرويد أنه بدلًا من محاولة إسكات غرائزنا، ينبغي تحويلها إلى شيء راقٍ ومقبول اجتماعيًّا (المترجم).

والحقيقة أن هذه الانحرافات تَظْهَرُ في نفس المواضع التي تظهر فيها آثار عملية التسامي التي تكتسب قيمة أرقى بطبيعة الحال (وأقصد هنا الأنشطة التي تؤدي بنا إلى تحقيق إنجازات فكرية، وروحية، واجتماعية، وفنية وعلمية)، ويكون منبع التسامي هو المخزون الطفولي المختزن في الإنسان.

واقع الأمر أن الجانب الطفولي، يضم ذلك الإنجازات المحقّقة عبر التسامي، إن هو إلا وسيلة غير مألوفة، تساعدنا على الوصول إلى *"الحالة البدائية الأولى"* عبر مسارٍ أفضل وأنجع، وهذه الحالة هي التي تربطنا بالعالم الخارجي، وهي الحالة التي تساعدنا على ردم الهوّة التي تفصلنا عن كل ما يُحيط بنا.

بل حتى ما نُطلق عليه لفظ "الموضوعية"، بديلًا عن "الحب" ليس في حقيقته إلا عقلنا الواعي، وهو يستخدم أدواته في محاولة تنشد انفتاح **الوعي على اللاوعي**، وهي محاولة من جانبنا لتوكيد الجذور المشتركة التي تربطنا بالكون ونحن نأسى على عزلتنا الرهيبة.

إن هذه المحاولة تفسّر سبب اهتمامنا بما يُسمّى "الاهتمامات المتجاوزة للفردية"، وأقصد بها الاهتمامات التي تقرِن بين أدقّ رغباتنا حميميةً وذاتيةً وبين الرغبات العامة المتجاوزة لضِيق الفردية، وهو ما يفسّر أيضًا سبب أننا "نتسامى" فوق أشياء بعينها في ظروف بعينها، بمعنى أننا نتخلّى عن الإلحاح السافر للرغبات الجنسية لأجل بلوغ مقاصد أسمى.

دعوني أوضّح الأمر بالطريقة التالية: يبدو الأمر وكأن الرغبات الجنسية بمثابة شعور بالإحراج يثقل على الإنسان المعزول جسديًا، فيلتمس الشفاء في الاقتران الجسدي بإنسان معزول آخر مثله، فيشعر كما لو أنّه احتوى الكلَّ بين ذراعيه وأنّه تخلّص من الإحراج، في حين هو في

داخل حدود جسده لا يختلف عنا البتة، ومن هنا فالتواصل بين البشر لا يتحقّق تحققًا كاملًا إلا عبر هذه الوسيلة الجنسية.

ومن هنا لا غرابة لو اعتبرنا أكثر مظاهر "التسامي" التصاقًا بأنفسنا هي أقربها تعبيرًا في الوقت ذاته عن تجليات "المقدّس" في حياتنا، والسبب أننا دائمًا ما نقصد بكلمة "مقدّس"، بشكل أو آخر، أكثر التجارب حميمية وسموًّا. إلا أن هذا أيضًا ليس إلا حيلة مؤقتة تتمظهر بها "الغرائز الباطنية المدفونة في الأعماق"، التي نعجز عن تسميتها "غرائز دنيوية عادية"، لأنها محددة للغاية، وهي غرائز تتسامى بنا لأنها قادرة على التعبير عن وجودنا تعبيرًا أقوى وأصدق من ذلك التقابل بين عالم الخارج وعالم الداخل.

لا يسع المرء إلا التأكيد أن قوة "التسامي" مرتبطة ارتباطًا وثيقًا ومباشرًا بدرجة تجذّر الغرائز البشرية في المنبع الذي خرجت منه، وكذلك مدى استطاعة هذا المنبع التأثير في سلوكنا الواعي أو غير الواعي.

لأفسّر هذه العبارة الغامضة: كلما اشتدَّ نزوع المرء إلى الشهوة الجنسية، تعاظَمَتْ لديه القدرة على "التسامي"، وتحلّى بالنَّفَس الطويل والصبر على تلبية نداء غرائزه، من دون أن يتولّد في داخله صراع بين إلحاح الشهوة وبين التكيّف مع ظروف الواقع في آن واحد. وهذا الإنسان ليس ناسكًا ولا فاتر الشهوة، ولا هو يحاول ارتداء ثوب الفضيلة الناشئة عن الضرورة، ولا هو مريض بداء البرود الجنسي فيحاول التماس العزاء في مصطلح "التسامي".

وهو أيضًا ليس بهذا المعنى زاهدًا، قامعًا لغرائزه، بل على العكس، هو من طينة البشر الذين لا يفقدون الأمل في بلوغ الأشياء البعيدة عن متناول يدهم حتى في أحلك الظروف، هو واحد من أولئك "المنقبين

عن الماء بعصا الاستنباء"[1]، واحد من أولئك الذين يعثرون على عيون المياه في أشدّ الأراضي قحولةً وجفافًا، وأولئك حقًّا هم الممتلئون رغبة في ملذات الحياة، لا الممتنعون عنها، وأولئك هم القادرون على الامتناع عن الجنس لأوقات أطول لأنهم يدركون كم هم أقرب إلى دواخلهم وإلى شبعهم الباطني، إذ هم بعيدون عن الجنس.

عزيمة هؤلاء مردّها عدم انقسام ذواتهم إلى جسد وروح، بل في توحيد ذواتهم داخل قوة حيوية إنسانية واحدة، مثلهم كمثل النافورة التي تتدفّق مياهها وتفور ثم تسقط عائدةً إلى الحوض نفسه الذي صعدتْ منه.

ليس من قبيل المصادفة أن يستلزم علم التحليل النفسي من الباحث المقبل على هذه المهنة، أن يلقي زمام أمرِه إلى متطلبات هذا المنهج وشروطه، بمعنى أن يتجمَّل بأقصى درجات النزاهة العلمية في الرصد والتحليل ليرى إلامَ ستصل الأمور. والحقيقة أن الحفر والتنقيب في أغوار النفس البشرية لا يحقّق هدفه المنشود إلا عندما يعايش المحلّل النفسي الحالة التي أمامه معايشة صادقة فعّالة، سواء أكان هدفه البحث العلمي أم شفاء المريض.

ولو دار على ألسنة الناس حديث طائش أحمق عن تأسيس طائفة "الفرويديين" المختبئين وراء المظهر العلمي الصارم، فربما أقول: إن كلامهم لا يخلو من الصحة؛ فمنهج التحليل النفسي الفرويدي ليس بمعزل عن لون معين من ألوان المِزاج الروحي، لأنه يتعامل مع مادة

---

(1) التنقيب عن الماء بعصا الاستنباء: ممارسة موغلة في القدم لتحديد مصادر المياه في الأراضي القاحلة عبر عصا مصنوعة من غصن شجرة أو عظام حيوان (المترجم).

حسّاسة واقفة على تخوم الوعي واللاوعي، وهو ما يجمع في الواقع بين كافة المحلّلين النفسيين على اختلاف مشاربهم.

وهذا النزر اليسير من "اللاعلم المحض" أو "اللامعرفة المحضة" هو ما يقلّل من أهمية أن يعرف طالب العلم أي نوع من المحللين النفسيين يريد أن يكون عليه. أظنّ أنها مسؤولية عميقة وراسخة واقعة على كاهل كل محلّل نفسي أن يُخضع عقلَه الباطن أيضًا لعملية التحليل النفسي مثلما يحلّل العقلَ الباطن لمرضاه، كمرحلة من مراحل الدراسة.

لكن علينا ألا نخلط بين المحلل النفسي المحترف الذي يحلّل نفسه عن علم ودراسة وبين الهاوي الذي يُحلّل نفسه بدافع من فضول أو متعة، فالعواقب في الحالة الثانية قد تكون وخيمة، لأنه في هذه الحالة يشبه مُحلّلًا نفسيًّا سليمًا يعالج مريضًا نفسيًّا، لذلك يصبح ما يُطلقون عليه "دورات التدريب على التحليل النفسي" بمثابة تجديد شخصي لتجارب المُحلّل النفسي كما لو أنه يخضع لعلاج مُوجّه.

مع الأسف فإن مبحث التحليل النفسي ينطوي على عنصر، عادةً ما يُستبعد من تطبيقات الممارسة العملية؛ ألا وهو اللمسة العاطفية الذاتية التي يكون وجودها نافعًا ومفيدًا في ظل ظروف معينة، في حين يكون غيابها من أخطر الآفات التقنية التي ربما تضرّ بأغراض البحث العلمي وأغراض الشفاء على حد سواء.

إن حيادية البحث العلمي الموضوعي خليقة بأن تستدعي قوانا الباطنية والشعورية حتى تتمكن من أداء عملها على خير وجه. فنزاهة التفكير وصرامته يجب أن تكونا مقرونتيْن بروح إنسانية حيّة، وإلا فشلت المهمة برمتها. وأنا هنا أشدّد على هذه النقطة بقوّة، لأن عدم التنبيه عليها سابقًا أدّى إلى نشوء حُكم سابق متحيّز يقول: إننا أعضاء في طائفة خاصة.

وهناك سبب آخر يدفعنا إلى أن نذكّر أنفسنا بموقف المُحللين النفسيين وكذلك بموقف مؤسس علم التحليل النفسي ذاته. لأن أعمال فرويد واكتشافاته تستند إلى حقيقة أنه وقف حياته لهذه المهمة بشكل إنساني خالص. حَشَد فرويد جهوده على أبحاثه العلمية فقط، ولم يَحِدْ عن طريقه قيد شعرة، إلا أن عقله كان منفتحًا على النتائج التي تنتظره في نهاية الطريق دونما قيد أو شرط، برغم أنها كانت مناقضة تمامًا لما توقّعه.

ولأجل أن يجمع بين المقدمات والنتائج المتناقضة في خيط ناظم واحد، لم يكن أمام فرويد سوى الانخراط بشكل شخصي في المسألة بطريقة تتجاوز أغراض البحث العلمي.

لأجل تأسيس التحليل النفسي كان على الأب المؤسّس أن يؤلف بين أبحاثه بما فيها من مقدمات ونتائج متعارضة في مُنجز علمي واحد، لا في صورة فرعين منفصلين من فروع التحليل النفسي، بل عليه أن يدخل التجربة بأسرها في توليفة شخصية واحدة، وكان الوقت حينها قد حان لأن يصرخ بالحقيقة لتسمعها كل أذن، حتى الآذان الصمّاء. حيث كانت هذه التوليفة النهائية متطابقة مع اكتشافاته الأخيرة، ومتطابقة مع الاحتكاك الداخلي بين المقدمات والنتائج، وهو الاحتكاك الذي كان في الأصل منشأ العلم ومنبعه.

ولهذا السبب وحده استطاع مُنجز فرويد البحثي أن يحلّق بعيدًا عن حدود التقييم والأمنيات والغايات، برغم أنه كان في الوقت ذاته مرادفًا لخيبة أمل فرويد الشخصية فيما كان يتمنّى تحقيقه، ومرادفًا لضرورة التخلّي عن النتائج المرغوبة أو المنتظرة.

ففضلًا على الضغوط الخارجية الهائلة التي جعَلتْ من أعمال فرويد ضربًا من ضروب "الاستشهاد العلمي"، دع عنك الاستهزاء والسخط اللذين نالهما من معاصريه، قد عانى الرجل صراعًا روحيًا عميقًا، لم يكن أمامه سوى المضي قدمًا في دراسة ما كان يلاحظه ويراه ظاهرًا للعيان، حتى لو كان مناقضًا لطبيعته الشخصية، بل حتى لو كان مناقضًا لذوقه.

ولو أردنا أن نعقد مقارنة بين تضحيات فرويد وبين التضحيات التي كان يقدّمها العلماء والباحثون على حساب حياتهم وسلامتهم الشخصية، لقلنا: إن إنجاز فرويد الفكري هو شكل من أشكال العزيمة والاستعداد للتضحية بحياته - لو اقتضى الأمر - لبلوغ غاياته، من دون التفكير في عواقب ما ستؤول إليه الأمور لاحقًا. لأن فرويد المفكّر وفرويد الإنسان بقيا ماءً واحدًا في تأثيرهما، ومرادفين لفكرة التضحية لأجل المبدأ.

لم يكن فرويد ينكر رغبته في أن يأتي يوم ويستوعب فيه علمُ الأحياء مُـنجزه البحثي، وكان يشعرُ بالرضا أكثر مما يشعر بالأسى كلما فكَّر في الطريق الوعر الشاق الذي قطعته الإنسانية للوصول إلى عالم "اللاوعي" الخجول، ذلك العالم الذي طالما حاول فلاسفة الميتافيزيقا على مرّ العصور مداعبته وملاعبته بشكل غير قانوني.

بوصفه كاتبًا عقلانيًا يعرف الجميع بلا شك فرويد من كتاباته، وليس ذلك مقصورًا على الفقرات التي يستخلص فيها نتائج نظرية - سواء أكانت كتابات فلسفية أم أنثروبولوجية - ، لكنه كان حريصًا كل الحرص على أن يميّز تمييزًا واضحًا بين هذه الكتابات وبين كتب التحليل النفسي البحتة. كان يفضّل إما أن يُدمِجَ الملاحظات الخارجة على الرصد العلمي الدقيق تحت راية الرؤية العقلانية الصارمة، وإما أن ينظر إليها بلا اكتراث، هازًا كتفيه قائلًا: "على رسلك.. لا تأخذها على محمل الجد". كان يرى أنه

خيرٌ للعقل البشري الإبقاء على المسائل الغامضة مُعلقةً بلا حسم بدلًا من إهدار التفكير فيما لا يمكن إثباته بالأدلة العقلية، وكان يرى أهمية هزيمة الرغبات/ الحاجات الثانوية واختزال كل شيء في صيغ مُبسّطة.

ولكن ربما يسأل سائل: ألا يؤدي التركيز في الطريقة المنطقية في التفكير وشحذ القدرة على التمييز بين الحاجات الأساسية والثانوية، إلى نموّ الأخيرة نموًّا غريزيًّا، فيفضي ذلك في النهاية إلى التوحيد بينهما في شكل واحد؟ الحقيقة أنّا لو فعلنا ذلك، لأمكننا الوصول إلى ما يشبه صوغ "معادلة عامّة"، وتحديدًا عبر تطبيق مناهج التحليل المنطقي والتشريح الفكري، الذي لا يرقى إليه شك. ولكن السؤال المطروح أيضًا: ألا يؤدي ذلك إلى انتقام ذاتي يقوم به عقلُنا البسيط، النزيه، المتجرّد، غير الخاضع للشروط نتيجة تجريده من "العنصر الإنساني الخالص"؟

إننا نلقي بشبكة تفكيرنا المنطقي فوق محيط من شظايا الواقع اللامحدودة، وهو الواقع الذي يفرض حقائقه علينا فرضًا، ونحن إذ نفعل ذلك نفعله بغية الوصول إلى أرضية مشتركة للتفاهم، وبغية خلق مجتمع تكون نافذته هي الشبكة التي نبصر من خلال ثقوبها (بغض النظر عن ردّ الفعل الشعوري لكل فرد على حدة على هذه الرؤية، وكيف سيلقي بأفكاره ورغبته في المعرفة على هذا المحيط). أليس هذا [المنظور] في حد ذاته مجرد محاكاة لفكرة "الروح الكلّية"[1] التي يتجذّر فيها شعورنا بالحياة إجمالًا؟ أليس هذا المنظور هو أقرب إلى ستارة متموجة تحاكي الأشياء المدفونة عميقًا بداخلنا، الأشياء العصيّة على الفهم؟

(1) يُطلق عليه أيضًا "الكلانّية"، والمقصود بها رؤية الأنظمة الطبيعية (المادية والحيوية والعقلية والروحية) بوصفها كلًّا واحدًا متكاملًا، وليس بوصفها مجموعة من الأجزاء منبتة الصلة (المترجم).

فالإنسان عندما يصبح واعيًا بحقيقة حياته، يرى نفسه في مرآة الآخر، ويعكس ما فهمه مستخدمًا طريقة المحاكاة والتقليد، ومن ثم يمسي فعل التفكير لدينا لونًا من ألوان "الترميز"، بمعنى تشفير الحقائق التي نراها في صورة رموز، قاصدين من وراء ذلك إدراك وفهم ما هو عصي على القول، بكلمة أخرى: أن نعكس على سطح العالم الخارجي ما يمثّل سِرَّ وجودنا الشخصي.

ومن هنا فالعقل هو الحيلة التي نتوسّل بها لمواجهة هذه التوليفة الهائلة الضامّة لكل مكونات الوجود؛ هي مواجهة مفتوحة، لكنها في نهاية المطاف تحليلنا نحن للأمور. ولهذا يميل أغلب الناس - ولا أستثني منهم أصحاب التفكير العلمي بأي حال - إلى استكمال معرفتهم العلمية اليقينية المؤكّدة بنوع مِن "اتباع الظنّ".

كما لو كانت الأمور ستصير مغرقة في السوداوية والتشاؤم إلى حد خطير من دون مسحة التفاؤل النابعة من الإيمان الشخصي. نعم، نعم، كما لو أننا لولا ذلك التفاؤل الداخلي لكنّا في عِداد "الموتى"، ولكانت طريقتنا في المعرفة والإدراك أكثر تشظيًا، معرفة لا روح فيها ولا جسد، معرفة مآلها العدم من الألف إلى الياء.

إلا أن فرويد لم يكتفِ ببساطة برفض هذه الرؤية، بل شنَّ ضدها هجومًا ضاريًا نابعًا من أعماقه، وهو ما أثار هياج الناس وغضبهم، لا سيما عندما يتصل الأمر بجوهر الإنسان، وباحتياجاته وأشواقه التي هي أشدّ نبضًا بالحياة.

ومع ذلك يمكن تفسير موقف فرويد من خلال حقيقة أن المهادنة في هذه النقطة - دعوني أفسّر بإيجاز: الانتقال من معسكر الفيزيقا [عالم المادة] إلى الميتافيزيقا (ما وراء المادة) - ، أقول: إنّ هذه المهادنة إنما تسيء

استعمال الأدوات المعرفية العقلانية التي ابتكرناها لاستعمالها في الأساس في عالم المادة.

وعند هذه اللحظة تحديدًا، أي عندما فصَلَ فرويد بين معسكري المادة/ ما وراء المادة، استطاع الوصول إلى اكتشافاته، التي ظلّ أغلبها حتى ذلك الحين مدفونًا تحت الركام، إما بسبب إنكارها بتسرّع قبل فهمها، وإما بسبب دسّ الافتراضات الميتافيزيقية عليها قسرًا.

وكان الدافع الذي حثّ فرويد على مناهضة الأفكار القديمة، بل وفَـتْـحِ النار عليها، هو الجدّية العلمية ورصانة العالم الذي لا يعرف تساهلًا ولا تنازلًا، وهي الجدية التي سلّطت الضوء على اكتشافاته ولم تسمح قط بأية محاولة لإهالة التراب على هذه الاكتشافات مرة ثانية.

وعلينا في هذا الصدد ألا نخلط بين رؤية فرويد وبين حقّ المرء في الرجوع عن الآراء، بمعنى مناقشة وإقناع الآخرين بالآراء المخالفة) على سبيل المثال مقولة نيتشه: "كـنْ وفيًّا للأرض"، وغيرها من المقولات الرنّانة).

إن ما يطلبه منا فرويد في هذه اللحظة الفارقة في تاريخ علم النفس، هو أن نتحلّى بالنَّفَس الطويل والتأنّي ونحن نكرّس وقتنا لخدمة رغبتنا التائقة إلى المعرفة، وأن نتمسّك - دون الالتفات إلى ذواتنا - بالنزاهة الفكرية التي تَـعَـلَّمْنا أن نواجه بها العالم الخارجي بنجاح منذ سنوات.

والآن دعونا نعترف بصراحة أن فرويد هـو مَن ألقى بنا في أتون عالم الأشياء الموضوعية الملموسة! إنّ أول ما يتحتّم علينا فعله هو ضرورة الاعتراف بوجود "*ذلك العنصر*" القابع في أعماقنا، العنصر الذي يجعلنا متشابهين مع بقية الكائنات والأشياء المحيطة بنا، وذلك قبل أن ننشغل بمعرفة كيفية تجاوزه أو التسامي عليه.

لأن تلك "*الميزة الإضافية*" التي تميزنا ونحن نتعامل مع كل شيء، اسمها "*الوعي*"، وهذا الوعي هو ما يتيح لنا عَقْد آصرة أخوة تربطنا بكل شيء في الوجود، كانت "الفروق الطبقية" الحمقاء التي تسعى إلى بناء قلاع خيالية في الهواء للهروب من الاعتراف بطبيعتنا البدائية الأرضية التي نتشارك فيها مع كل شيء، هي أكثر ما يثبّط همّتنا، ولا سيما بعد أن بدأت تتسع رقعتها بشكل متزايد في ثقافتنا اليوم.

والحقيقة أنّ هذه المسألة الحرجة التي صارت جُرحًا مفتوحًا أو نقطة مفرطة الحساسية بسبب غطرسة البشر عمومًا، لا يُمكن تغييرها عبر تهذيب قدراتنا الفكرية، بل عبر التثوير الشامل في بنية الفكر، وتحويل المعرفة إلى اعتراف بالحقيقة.

وهكذا بعد أن اعترفنا أن فرويد كان رجلًا عقلانيًا حتى النخاع بحُكم طبيعته وذوقه الشخصي، وأن أتباعه وتلامذته لم يروا ضرورةً في اتباع "*قانونه*" اتباعًا أعمى، يلزم عليَّ أن أشير بقوّة إلى نقطة بالغة الأهمية لم تغادر قلبي ولا عقلي ثانية واحدة على مدار تجربتي معه، وأقصد بهذه النقطة أنّ اتباع المنهج البحثي العقلاني بإصرار لا هوادة فيه هو الذي قادَ فرويد إلى اكتشاف طريق اللاعقلانية، المتمثّل في اكتشاف اللاوعي والعقل الباطن في نهاية المطاف، بعبارة أخرى: إنَّ فضح المعتقدات الزائفة هو ما صنع من المهزوم منتصرًا، لأنه بَقِي وفيًّا لمبادئه.

أليس التحوّل في مسار الأحداث هو الفصل الأخير ورمّانة الميزان القادرة على إعادة العالم الخارجي الآلي إلى مسقط رأسه، الذي هو أكثر الأشياء تخفيًا داخل نفوسنا؟

ألا يثبِتُ ذلك كلمة "هيراقليطس"[1] القائلة: إن النفس بلا حدود؟ قبل ذلك كان الاعتراض المرفوع في وجه فرويد مستمدًّا من المقولة التي لا يملّ الناس ترديدها: **كلُّ فانٍ هو رمزٌ فحسب**[2]، أما الجوهر فلا يفنى أبدًا".

بالتأكيد.. بالتأكيد.. هذه حقيقة! وفي حالة فرويد فالرمز المقصود رمز مثالي.

---

(1) أحد الفلاسفة السابقين لسقراط، والأرجح أن لو سالومي تشير إلى مقولة: "لن تجد حدود النفس إذا بحثتَ عنها في أية جهة من الجهات، ومهما يكن عُمق المقياس" (المترجم نقلًا عن د. أحمد فؤاد الأهواني، فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، آفاق 2017).

(2) المقطع الأول من الاقتباس مأخوذ من الجُملة الأخيرة في مسرحية فاوست لجوته (المترجم).

الفصل العاشر

ذكرياتي مع فرويد (1936)

في أعقاب عودتي إلى ألمانيا بعد إقامة قصيرة في السويد، وجدتُّ نفسي واقفةً وجهًا لوجه أمام فرويد في مؤتمر فايمار للتحليل النفسي الذي عُقد في خريف سنة 1911، ولمّا أعربتُ عن رغبتي القوية في دراسة علم التحليل النفسي على يديه، أطلقَ ضحكة ساخرة، وكان مبعث سخريّته أنّ أحدًا لم يفكر في تأسيس معاهد تعليمية لتدريس التحليل النفسي مثلما جرى لاحقًا للأجيال الشابة في برلين وفيينا.

وعندما سافرت لزيارته في مدينة فيينا بعد ستة أشهر من محاولات التعليم الذاتي، أغرَبَ في الضحك من قلبه مرة ثانية عندما أخبرته أني أنوي التلمذة عند ألفريد أدلر أيضًا، الذي تحوّل إلى ألدّ خصوم فرويد في تلك الأثناء. لكن فرويد أبدى موافقته على طلبي شريطة ألا أذكر اسمه البتّة هناك في دوائر أدلر، ولا أذكر اسم أدلر ورفاقه في حضوره. وقد وافقتُ على هذا الشرط، والتزمت به إلى حد أن فرويد لم يعرف شيئًا عن نبأ انفصالي عن حلقة أدلر الدراسية إلا بعده ببضعة أشهر.

لكني لا أنوي هنا الإشارة إلى التفاصيل المتصلة بطبيعة التدريب النظري الذي تلقّيته على يديه، لأنه حتى أكثر جوانب التدريب تشويقًا لن تستطيع أن تصرف انتباهي عن جسامة الاكتشافات النفسية التي توصل إليها فرويد. بل لن ينجح ألمع المنظّرين في صرف انتباهي عن قيمة الاكتشافات التي توصّل إليها ولا في إقناعي بقلة شأنها، حتى لو أثبتوا أن

أبحاثه قد ضلّتْ سبيلها بعض الشيء أو لم تستطع تطوير نظرية مكتملة الأركان، إذ كان ينظر فرويد إلى النظريات - التي كان بعضها ما يزال في طور النشوء والتطوّر - على أنها شكل من أشكال التواصل والتفاهم مع فريق العمل معه، وكانت هذه النظريات عندما تتبلور في رأسه، تعكس بالضرورة شخصيته الرزينة ومنهجه البحثي المنضبط في آن واحد، فضلًا على وضوح أسلوبه في التفكير. ولو أني أردتُ الآن الحديث عن طريقة تفكيره التي قادته إلى هذه الاكتشافات، فالأرجح أنه سيضحك مني للمرة الثالثة، لأن الكلام عن هذه النقطة لا يقلّ صعوبة عن الكلام مثلًا عن سرّ الميزة الخاصة التي تسكن يد الرسّام أو النحات.

كان منهج فرويد قائمًا على التركيز في فحص "شيء بعينه"، عبر التركيز في التعبير اللحظي الذي يخرج من فرد بعينه، فكان ينظر إلى الشيء نظرةً فاحصة لا تعزل عنصرًا عن باقي العناصر، فينفتح الشيء أمامه، كاشفًا له عن مكنونه باعتباره تعبيرًا مكتمل الأركان عن الطبيعة البشرية. وبدلًا من إنعام التفكير في المسائل المختلفة -سواء عبر التفكير المنهجي العميق أم التفكير الإبداعي الخلّاق-، كان منهج فرويد يحشد تركيزه على الدوافع/ الغرائز الدقيقة التي نخضع لها وتحكُم وجودنا، باعتباره المنهج الوحيد القادر على إزاحة الستار عن هذه الدوافع وكشفها أمامنا بطريقة مقنعة.

في أولى أمسيات جلسات العمل (وكانت السنة السابقة هي المرة الأولى التي تشارك فيها امرأة)، قال فرويد على سبيل التقديم: إننا سنناقش بدون تحفظ ولا مواربة بعض الموضوعات التي ربما تكون صادمة لنا، مضيفًا على سبيل الدعابة -في واحدة من لَفَتاته الرقيقة المَرِحة التي كانت تخرج منه بين الحين والآخر-: "كالعادة ستكون أمامنا أيام عمل شاقة على مدار الأسبوع، لكن الاختلاف الوحيد أنّ يوم الأحد يفصل بيننا".

طالما شعرت أن كلمة "يوم الأحد" صائبة تمامًا في وصف فرويد ونظرة عينيه، اللتين سبق أن وصفتُهما بأنهما عينان ثاقبتان فيهما يتصل بثراء المادة العلمية التي يختارها ليعرضها أمامنا، مهما كانت تلك المادة صادمة أو مثيرة للاشمئزاز. كان فرويد في بعض لحظات "اشمئزازه" يعرب عن دهشته لغرقي حتى الثمالة في دراسة منهج التحليل النفسي، فكنتُ أجيبه: "لأنني لا أجيد شيئًا آخر سوى تعليم الناس كيف يغسلون أقمشة الكتّان[1] التي تغلغلت إليها القذارة". صحيح أننا قبل فرويد كنا على معرفة بـأقمشة الكتان النظيفة المُصنَّعة ميكانيكيًا والمكوية والمصفوفة داخل أدراج الخزانة، لكن الجديد أننا كنا نتعلّم مع فرويد التعامل مع أقمشة الكتان الغارقة في القذارة، سواء أكانت من نسيجنا الشخصي أم نسيج الغرباء [المرضى]، ولا أقصد هنا طبيعة النسيج نفسها، بل طبائع الأشياء على وجه العموم، وهنا أقصد شيئًا متصلًا بقيمة قطعة القماش التي طرأت عليها التغييرات بفعل التجارب.

وهكذا كان كَشْفُ وتعرية أشدّ المسائل إثارة للنفور والتقزّز لا ينشد الوقوف عند هذه المسائل في حد ذاتها. أذكر أنّ فرويد ذات مرة بعد مناقشة واحدة من هذه المسائل الشائكة، لم يضحك وإنما وقف ذاهلًا غير مصدِّق وهتف: "حتى بعد الأشياء الفظيعة التي تحدّثنا بشأنها، تنظرين نظرة هادئة كمَن يستقبل أعياد الميلاد!".

من بين ذكرياتي عن لقائنا الأخير وكان ذلك سنة 1928 في حديقة قصر "تيجيل"، لم يبقَ في ذهني بصورة حيّة سوى منظر الأحواض الكبيرة لزهور "البانسيه" الزاهية داخل الصوبات، التي كانت قد غرست في فصل الصيف، منتظرةً قدوم خريف السنة التالية بفارغ الصبر لكي تزهر

---

(1) في التعبير استعارة لما تتسم به أنسجة الكتان من قدرة عالية على الامتصاص (المترجم).

إزهارًا كاملًا، في حين تتساقط أوراق الأشجار حولها في فصل الخريف. طرب قلبي لرؤية بهاء منظرها وتأمّل لا نهائية ألوانها الزاهية بين الأحمر القاني والأزرق السماوي والأصفر الفاقع. جَمَعَ فرويد بيده طاقة زهور منها وأهداها إليّ قبل رحلاتنا شبه اليومية إلى برلين، وهي الرحلات التي كنت أريد فيها المرور بصديقتي "هيلين كلينجينبيرج".

في تلك الأثناء وبرغم ثِقَل اللسان والسمع الذي أصابَه، كنا قادريْن على تجاذب أطراف الحديث بطريقة آسرة بقيت حيّة في ذاكرتي، وقد حدث ذلك قبل أن تبدأ سنوات معاناته الحقيقية. في إحدى هذه الرحلات تطرّق بنا الحديث إلى سنة 1912، أي سنة دراستي لعلم التحليل النفسي، عندما كنت أضطرّ إلى ترك عنواني وقتها في الفندق الذي ينزل فيه فرويد حتى يمكنني مقابلته وقتما يتوفّر عنده الوقت، فأذهب إليه على الفور أيًا ما كانت الظروف.

وفي إحدى المرات قبل لقائنا وصلتْ إلى يده قصيدة نيتشه "أنشودة الحياة"، وكانت في الأصل قصيدة "ترتيلة للحياة" التي كتبتُها إبان إقامتي في زيوريخ، ثمّ أدخَل عليها نيتشه تعديلًا طفيفًا ولحّن كلماتها. كانت القصيدة أبعد ما يكون عن ذائقة فرويد، لأنّ رصانة التعبير المعهودة فيه لم تكن قادرة على تذوّق هذه الأبيات المفعمة بالإفراط الحماسي لفتاة غضّة في ريعان صباها، فتاة عديمة الخبرة والتجربة، لكنه جَهَر بقراءة الأبيات الأخيرة من القصيدة بنبرة مرِحة ودود:

في وهجِ معركتي معكِ

لأحيا آلاف الأعوام، لأفكّر آلاف الأعوام

ثمّ طَوِّقي بذراعيكِ خصري من جديد

فإن لم يبقَ في جعبتكِ ما تمنحينه لي من أفراح

فما يزال في جعبتكِ ما تمنحينه لي من أتراح

إلا أنه ما لبث أن طوى الورقة وضربها بقوة على ظهر كرسيه وقال: "لا، لا.. كما تعلمين، لن أفعل مثلما تقولين، إن نزلة برد عنيفة واحدة كفيلة بأن تشفيني من مثل هذه الرغبات".

ثم عاودنا الحديث عن هذه الواقعة في قصر "تيجيل" في خريف السنة التي أشرتُ إليها آنفًا. سألتُه هل بإمكانه أن يتذكّر تلك المحادثة؟ فأجاب بنعم. كان يذكُر كلامنا جيدًا مثلما كان يذكر ما قلناه لاحقًا. ولا أعرف لِمَ سألته هذا السؤال. جاشتْ بداخلي رغبة قوية في معرفة كل شيء عن السنوات الفظيعة، القاسية والمؤلمة التي مرَّ بها، السنوات التي كان جميع المحيطين به، وأكرر: جميعهم، يتساءلون أية طاقة بشرية في مقدورها احتمال أكثر من ذلك. ثم حدث بعدها شيء لم أستطع تفسيره، شيء لم أستطع كبحه عن أن يخرج من بين شفتيّ المرتجفتيْن، كردّ فعل رافضٍ من ناحيتي على قَدَره واستشهاده:

"إن الهراء الذي كتبتُه في القصيدة آنذاك، مدفوعةً بحماسة مفرطة، عايشتَه أنتَ بكل ذرة من كيانك!".

صُعقتُ من صراحة كلماتي، وانخرطت في وصلة نشيج حارّة لا أستطيع إيقافها، إلا أن فرويد لم ينبس بكلمة، ولم أشعر إلا بذراعيه وهما تطوقانني.

الفصل الحادي عشر
ما قبل الحرب العالمية وما بعدها

في أواخر خريف سنة 1903 انتقلنا إلى مدينة "جوتينجين"، حيث تقلَّد زوجي منصب الأستاذية في قسم الدراسات الفارسية بالجامعة. من بين رغبات أخرى أشبعتْ هذه الخطوة شوقنا العارم إلى عيش حياة ريفية كاملة، إذ كانت المنطقة العليا من "جوتينجين" تَعِدُ بحياة ريفية كاملة أكثر من المنطقة المجاورة لمدينة "برلين"، حيث كنا نعيش في السابق. وبعد أن كاد اليأس يتملّكنا من عدم العثور على منزل ملائم على أطراف المدينة، عثرنا على بيت خشبي صغير في منطقة "رونزهوهي"، وهكذا حُلَّت المشكلة وكأننا انزلقنا إلى قلب حكاية خرافية. في تلك المدة كان المكان معزولًا للغاية حتى إننا كنا نلمح الثعالب الصغيرة تمرّ هنا وهناك على أطراف البستان. طالما كان وجودي على قُرب من الطبيعة يملأ حياتي بالثراء وبهجة العيش، فمهما كانت البلدان التي أرتحل إليها على مدار ثلاثة عقود، كنت أشعر بعد عودتي إلى بيتي في "جوتنيجين" أنَّ فصل السنة الذي أقضيه فيه إنما يطوّق بذراعيه هذه البقعة من الأرض، وكأنها قطعة منه.

اعتدتُ سلوكًا عجيبًا؛ في كل مرة أقضي فيها مدة طويلة بعيدًا عن بيتي هنا، ثم أعود، كنت أخرج في تمشيات صباحية مبكّرة لأعيد تأمّل الطبيعة بعينين مختلفتيْن، إن جاز لي التعبير. كنت أقصد من وراء ذلك أن أرى كيف ستبدو الأحداث التي وقعتْ لي مدة سفري مقارنة بكل ما حدث للأدغال والأشجار في هذه الأثناء، وبكل ما أشاعته في المكان

أجواءُ الربيع أو تأثيراتُ الخريف. كنت أريد رؤية التغيّر الأبدي، الذي يموج وسط الثبات الأبدي.

اعتدتُّ أن أختبر وأرصد حقيقة أنه إلى أي حد تستطيع تعقيدات التجربة الإنسانية أن تصمد أمام الأشياء التي لا تتمتع بكينونة خاصة بها مثل مظاهر الطبيعة حولي، واتضح أن هذه حقيقة بديهية لا تحتاج إلى دليل. وفي أول فصل ربيع أقضيه هنا بعد انتقالنا، وبسبب اعتلال صحتي، خرجت في رحلة استشفائية في صحبة صديق طبيب. وكانت بواكير الزهور نامية فوق فروع الأشجار.

لكني قبل الرحلة لاحظت أنَّ فرع شجرة كمثرى عتيقة مغطّى بزهور بيض (مع الأسف أطاحت بالشجرة عاصفةٌ السنة الماضية)، قد امتدَّ ليتسلّل إلى قلب حجرتي.

ورأيت أني سأقترف خطيئة كبرى لو قطعت الفرع، لكني قلت في نفسي: إن الفرع سيعاود النمو في السنة القادمة بنفس الطلّة الربيعية المزهرة، وربما يأتي العام القادم ولا تزهر. لكن أغصان شجرة الكمثرى أزهرتْ بغزارة، بل امتدَّ إزهارها إلى ما بعد شهر مايو، ولم أترك هذا الانطباع يغيب عن ذهني إلا بعد أن فكّرتُ فيه طويلًا.

كانت نوافذ البيت مشرعة إلى الخارج، وكانت أشعة الشمس تتسلّل لتغمر جنبات المنزل كله. كانت غرفَتي في الطابق العلوي بمثابة سقيفة تحفّها أشجار الزيزفون ذات الفروع العريضة، فتحوّلتْ إلى ما يشبه ستارة خضراء ناضرة تحجب عني وهج أشعة الشمس. أما في أواخر فصل الخريف عندما تُعرِّي العواصفُ الفروعَ من أغصانها، فكانت تسمح بتدفّق كل شيء إلى حجرتي في سطوع مريح، لو جاز لي التعبير.

أما جدران الحجرة التي كنت قد طليتُها بطلاء أزرق غامق مائل إلى الرمادي، فقد حَالَ لونُها، لكنها لم تكن شديدة السوء بأي حال.

وكان اللون الأزرق الأساسي للجدران يبدو قريبًا من الألوان الزاهية لملابس الفلاحات الروسيات المطرّزة، وقريبًا من الأشياء التي خلّفتها ورائي. بالطبع لم يكن مسموحًا لنا بتعليق شيء أو إزاحة شيء عن موضعه، وكان اللون الأزرق الرمادي الداكن ينظر في الخفاء، كشاهد عيان على كلّ ما جرى. ولهذا بقيَت الصورة التي رسَمها هاينريش فوجيلير[1]، حبًّا في شخصي، مُعلقة على الحائط في مكانها، وكانت في الأصل بورتريهًا لراينر [ريلكه]. وحتى اليوم لست من هواة الإسراف في تغيير أماكن الأشياء في الغرف لمجاراة آخر صيحات الأثاث أو مسايرة الزمن. (بالنسبة إلى راينر كان الأمر مختلفًا تمامًا، لأنه كان ناجمًا عن ارتباك لا إرادي بسبب رغبته في مواءمة الظروف الخارجية مع حالته المزاجية الداخلية، وهو ما كان يضلّله كثيرًا).

كان راينر يكنّ حبًّا شديدًا لغرف منزلي، لا سيما بسبب البقع اللونية الداكنة التي تتخلّل الحوائط وخلف قطع الأثاث والصور المُعلقة، وكان يرى هذه البقع مثل طرق سريّة تقوده إلى الماضي، أو بوابات مرور تجوز به إلى الأبدية. كانت غرفة المكتب الممتلئة برفوف الكتب المصنوعة من خشب التنوب، مفروشةً بِبساطيْن كبيريْن من جلد الدببة، وقد حصلنا عليهما من " ڤيللي براندت"[2] بعد إحدى رحلاته الخطرة إلى روسيا.

---

(1) هاينريش فوجيلير (1872 – 1942): رسّام ومهندس معماري ألماني (المترجم).

(2) لم أستطع أن أتحقق هل المقصود هو السياسي والمستشار الألماني الأسبق ڤيللي براندت (1913 – 1992) أم غيره، لكن الأرجح أنه هو لعدم وجود أعلام معروفين في ألمانيا يحملون الاسم نفسه (المترجم).

وكانت المكتبة في حالة فوضى مزرية، حتى إني بعد وفاة زوجي بعتُ جزءًا من كتبي وجزءًا آخر من كتبه. والحقيقة أني امتنعت من بداية زواجنا عن اقتناء المزيد من الكتب (وكان قرارًا صائبًا)، لإعطاء الفرصة لزوجي لإثراء مكتبته الخاصة بمزيد من الكتب، وهو ما لم يكن يمثل له أهمية مهنية وحسب، بل متعة ذاتية محضة. أما أمهات الكتب التي اقتنيتُها قبل زواجي فقد تركتها في روسيا؛ وأعني بها روائع كبار الكُتاب الألمان والروس، فضلًا على الكتب التي اشتريتها وعكفتُ على دراستها سرًّا (كأعمال سبينوزا مثلًا)، عبر بيع قطع الجواهر الخاصة بي لتدبير المال اللازم لشرائها. إلا أنّ السبب الرئيس للحالة المزرية التي وصلتْ إليها كتبي هو ضخامة حجمها وثِقل وزنها، الأمر الذي كان يعوقني عن مواصلة القراءة بسهولة، فكنتُ أعمد إلى فكِّها إلى أجزاء منفصلة، وكان يزعجني معاودة ضمّ الأجزاء ولصق بعضها إلى بعض معًا مجددًا. في نهاية المطاف كنت كثيرًا ما أعيرها لأصدقاء أو كانت الكتب تضيع مني، وعلى الأخص أكثر الفصول أهمية بالنسبة إليَّ. ولا أكتم سرًّا لو قلت: إن ثمة سببًا ثانيًا أكثر رعونة: ازدراء طبعات الأعمال التي تُنشر في آلاف الصفحات، لأن حجمها لم يكن متناسبًا مع محتواها، كما لو أن المحتوى يتحتم أن يظهر أمامنا باعتباره كيانًا فكريًّا وروحيًّا مستقلًّا، منبتّ الصلة عن الورق الذي طُبع عليه.

في سنة 1904 صنعتُ من بيتنا مسرح أحداث لقصة أطلقت عليها اسم "البيت"، ومن باب التمويه أدخلتُ تعديلات على أعمار الأبطال ومصايرهم وعلاقاتهم بعضهم ببعض، ولم أرسم فيها إلا الأشخاص الذين أعرفهم معرفة وثيقة، حتى راينر رسمته في صورة صبي يافع له أبوان يعيشان حياة زوجية سعيدة، واستأذنته في الاستعانة باقتباس رسالة بعثَ بها إليَّ.

لكني قبل كتابة هذه القصة كنت قد صوّرتُ مشاعر حنيني إلى روسيا داخل قصة "رودينكا"، وهي القصة التي أحببتُ أن يقرأها الناس لأنها عبّرت تعبيرًا صادقًا عن كثير من مشاعري تجاه روسيا، أما غير ذلك مما كتبتُ فقد كان لغرض الكتابة نفسها، لغرض عملية الكتابة نفسها، ولذلك بقي محتفظًا بأهميته الحيوية القصوى بالنسبة إليَّ.

احتفظتُ بمخطوطات أعمالي في خزانة خاصة بأحد البنوك، وكان "أحقر" الأسباب هو ما يدفعني إلى أن أخرِجَ منها شيئًا للنشر، وأقصد بأحقر الأسباب حاجتي الماسة إلى المال. كانت مهمة ثقيلة على قلبي أن أخرج مخطوط عمل لبيعه! واستثنيتُ من ذلك المقالات المتنوعة التي كانت تُنشر متفرقة في جميع أنحاء العالم، التي داومتُ على كتابتها لسببين؛ إما لقرب موضوعاتها من قلبي، وإما لأني كنت أكتبها خصيصًى تحت وطأة حاجتي إلى المال.

وهنا أريد البوح بشيء غريب: كنت عندما أكتب هذه المواد الأكاديمية ينتابني شعور قوي أني أؤدي مهمة نِسوية، على عكس شعوري عندما أكتب عملًا أدبيًا خالصًا، فكانت تبدو كتابتي وكأنها مكتوبة من منظور ذكوري خالص، وهذا هو السبب في أنني كنت أتأمّل أغلب شخوصي النسائية بأعين الرجال. والسبب في الموقفين كليهما نابع في المقام الأول من سنوات الطفولة والصبا. والسبب أني لدى كتابة المقالات الأكاديمية، التي علمني أحد الأصدقاء تأليفها وصوغها، كان شعور الحب ناحية هذا *الصديق* ينشط نشاطًا قويًا، ولأن صديقي كان معارضًا قويًا لكل ما يتصل بعالم الأدب والخيال، كنت ألوذ إلى مملكة الأدب كردّ فعل ذكوري مناهض لموقفه. ولما كانت الغرائز الإنسانية متجذّرة في قلب العقل الباطن فلا غرابة لو أنّ تداعيات هذه الأفكار لم تختفِ من حياتي إلا في خريف العُمر، أي عندما بدأت أدنو من الستين.

في تلك الأثناء كنت أضعف أمام إغراء دعوة صديقي "ماكس راينهاردت"[1] لقضاء أشهر الشتاء في مدينة برلين، لمشاركته في تجربة بروفات مسرح الغرفة التي أسّسها حديثًا. وقد تركتْ هذه التجربة أثرًا قويًّا في نفسي، يفوق بكثير ما سمعته منه شخصيًّا ويفوق أثر تجارب مخالطتي للدائرة الفنية المحيطة به، وهو ما كان يعني لي الكثير.

وأنا إذ أكتب هذه السطور لا أفكّر في طبيعة الجَدل الذي أثير حوله، ولا في كونه يستحق المدح أو القدح ولا في جودة عروضه المسرحية، وإنما أفكّر في المقام الأول في نبوغه كممارسٍ لمهنة الإخراج المسرحي. وبالمثل لا أفكر حول كون مُنجزه الفني ستنبثق منه تقاليد مسرحية خالدة أو فانية. فلم يكن يهمّني هذا البتة، ما كان يهمّني هو انطباعي عن فرادة عمله الفني (وهو العمل الذي كان مرشحًا للازدهار بقوّة، لأن شقيقه إدموند راينهاردت كان مسؤولًا عن الشؤون المالية).

يبدو لي الآن أن العبقرية الحقيقية لراينهاردت - ذلك الفنان الحالم، فاتر الاهتمام بالنص الأدبي المكتوب، الشديد الحماسة للممثّل الذي سيؤدي الدور - ، إنما كان سببها حضوره الطاغي، والقادر على توجيه أداء الممثّلين وتمكينهم من لعب أدوارهم على الوجه الأمثل.

وهو أمر عجيب، إذ برغم طابع الخجل المتجذّر فيه، سواء كممثل أم في الدوائر الاجتماعية، كانت تتملّكه نشوة قوية وهو يمارس مهنة الإخراج على خشبة المسرح، وهي النشوة التي تفسّر سرّ صبرِه ونشاطه الفائقيْن. كان راينهاردت يجمع بين إرادة الفنان الحالم وإرادة القوة الوحشية سواء بسواء.

---

(1) ماكس راينهاردت (1843 - 1943): ممثل ومخرج نمساوي/ ألماني (المترجم).

فمن بين أكثر الذكريات رسوخًا في ذهني ذكرى موقف تجلّت فيه وحشية راينهاردت التي أقصدها، وإن لم أرَها وحشية منفّرة على الإطلاق: في إحدى بروفات مسرحية الأشباح لـ "إبسن" كان هناك مشهد تستمع فيه الممثلة "أجنيس سورما" إلى اعترافات ابنها، وصوتها يغصُّ بالدموع والتنهدات، إلا أنها لم تكن نبرة الصوت التي يريدها راينهاردت، وانتهتْ بروفات المسرحية وقد بلغ التعبُ مبلغه من الجميع.

وبعد أن غادرت الممثلة خشبة المسرح انخرطت في نوبة بكاء حادّة من فرط التأثّر، في هذه اللحظة تحديدًا وثبَ راينهاردت في الهواء ورفع ذراعه وهو يرفع عقيرته بالصراخ المتحمّس: "النبرة! بالضبط هذه هي النبرة التي أريدها"، فاضطرّت الممثلة إلى إعادة بروفة المشهد من جديد.

ظلَّ انطباعي عن راينهاردت كالتالي: إن كان النص الأدبي يُصاغ في العادة عبر الكلمة المكتوبة، فهو في حالة راينهاردت لم يكن كذلك، كما لو أن النص الأدبي لا يُصاغ فنيًّا على الوجه اللائق إلا عندما يتجسّد حيًّا على أداء الممثلين وحركاتهم وهم تحت سيطرة " *إرادة القوّة*".

وهكذا نرى عند راينهاردت انصهار عنصرَي الحلم وإرادة القوة لينتجا معًا تأثيرًا تعبيريًّا قويًّا ينفجر انفجارًا شخصيًّا بغرض تجلية جوهر العمل الفني. وكانت العروض المسرحية الأولى، حتى أشدّها بهرًا، عاجزة عن توضيح هذه الصورة بما يكفي، اللّهم إلا عند الممثلين الذين كانت هذه الرؤية تتغلغل إلى أعماقهم.

أيًّا ما كان الأمر فسيعي القارئ ما أرمي إليه لو شدّدتُّ بوضوح على حقيقة أن انطباعاتي غير المباشرة التي وصلتني من راينهاردت وعلاقاتي بالأصدقاء المحيطين به (وكانت علاقات ثريّة بحق، أخصّ بالذكر منهم:

كايسلر، باسرمان، مويسي، جيرترود إيزولتد)، كانت أقل وزنًا من رأيي في أدائه كمخرج.

من بين ذكرياتي عن تلك المدة تجربتي مع فرقة "ستانيسلافسكي"[1]، التي كنت أعرفها منذ سنوات إقامتي في سان بطرسبيرج، وهي الفرقة التي لم يُبد أحد حماسةً لها مثلما فعل راينهاردت. في هذه الفرقة المسرحية أزيحَتْ إرادة المخرج لتحلَّ محلها الإرادة الجماعية للممثّلين، حيث كان الممثلون ينحدرون من الطبقة الاجتماعية نفسها، ويتمتعون بدرجة التعليم نفسها، وهو التوجّه الذي كان يفتقده عالم المسرح حتى عهد قريب، وقد أسهمت الطبيعة الروسية نفسها في تبسيط الأمر وإنجاح الفكرة، لكني فكرت أيضًا أن هذا المبدأ ينبغي أن يكون حجر الزاوية لأساس جديد يُبنى عليه فن المسرح، وهو أساس نابع من الحاجات الإنسانية المشتركة العميقة، وألا يكون مجرد ضرب من ضروب التسلية الخاصة للناس.

إلا أن ستانيسلافسكي أولى اهتمامًا بالغًا للجوانب التقنية لفن التمثيل. فأقرَّ مبدأ: "مئة بروفة لكل عرض مسرحي واحد!"، وكان ردّ فعل راينهاردت أن أطلق تنهيدة اشتياق وقال: "يا ليتني أقدر على فعل ذلك".

كانت مثل هذه المعلومات تتناهى إلى سمعي من دعوات الأصدقاء لزيارتهم، وكذلك من خلال صديقي "هاردين"[2]، الذي كان بارعًا في استخلاص النقاط المهمة من محادثات الفرنسيين والروس المتضاربة.

---

(1) قسطنطين ستانيسلافسكي (1863 – 1937): مخرج وممثل مسرحي روسي شهير، يُعد أحد مؤسسي المسرح الحديث (المترجم).

(2) ماكسميليان هاردين (1861 – 1927)، كاتب صحفي ألماني اشتهر بالكتابة السياسية (المترجم).

وكانت الأحاديث تمتدّ بنا ونحن نواصل التمشيات الطويلة من فندق *Unter den Linden*، حيث يقيم الأصدقاء الروس، وصولًا إلى فيلته الصغيرة في منطقة "جرينفالد"، حينذاك كنا على تفاهم جيّد، ولم يحدث شرخٌ في علاقتنا إلا بعد اندلاع الحرب العالمية [الأولى]، بعد تحوّله إلى صحفي سياسي.

كانت شهور الشتاء التي أقضيها في برلين، تتخلّلها رحلات كثيرة لا تنقطع: إلى النرويج والسويد والدانمارك، لكني لم ألتقِ راينر - الذي كان مقيمًا في السويد منذ صيف سنة 1904 - بسبب حركة هوجاء من جانبي. كنت أعرف أنه مقيم في جنوب السويد لدى معارف الكاتبة "إلين كاي"، وفي أثناء مرور قصير بمدينة كوبنهاجن أرسلتُ إليه بطاقة بريدية من الفندق الذي أنزل فيه، فقطع رحلة إلى كوبنهاجن خصيصَى ليراني، لكني كنت قد غادرت بالفعل.

امتدت مدة صداقتنا (راينر وأنا) بالكاتبة "إلين كاي" لمدة مماثلة تقريبًا، بل إنها رافقتني في رحلتي الثالثة إلى فرنسا سنة 1909، حيث قابلنا راينر، الذي كان يعمل آنذاك سكرتيرًا شخصيًّا لرودان. كانت امرأة لطيفة المعشر، وكانت تقابل إعراضي عن مؤلفاتها بروح دعابة ساخرة. أذكر أنها هدّدتني ذات مرة قائلة: "أوه.. أنتِ أيتها الجاموسة.. في المرة القادمة لن آتي إلى زيارتكِ في جوتينجين، بل سأواصل السير على الأقدام حتى أصل إلى إيطاليا".

كانت تحبّ زيارتنا مثلما كنت أحب زيارتها في بيتها المطلّ على بحيرة "فيتر"، لأقضي نهاية فصل الصيف كله هناك. في مرة ثانية افتقدنا فيها بعضنا بعضًا عن غير قصد، حدث ذلك بعد مدة وجيزة من إقامة راينر في

قلعة دوينو[1]، في حين أمضيتُ أنا بعض الوقت في منطقة "سيستيانو" في ختام رحلتي إلى دول الجنوب، وفي مدة لاحقة رحنا نتخيّل روعة شعورنا لو أننا في صباح يوم مبكّر، التقينا بغتة ونحن نتمشّى على شاطئ البحر.

أهمّ ما في الأمر وأغربه أننا مهما افترقنا ومهما باعدت بيننا الأيام، كنا نشعر لحظة اللقاء - سواء أكان اللقاء في منزلنا أم في بيته في ميونيخ أم في أي مكان آخر - أننا لم نقطع إلا طريقًا واحدًا، وأننا لم ننشد إلا أهدافًا واحدة، كما لو أننا كنا نتبادل مراسلات سريّة غير مكتوبة تجبر مرارة أيام الفراق.

ومهما عصفتْ بالعالم الخارجي أحداثٌ عشوائية في مدة فراقنا، كنا نصل إلى نقطة اللقاء في اللحظة نفسها. وكانت لحظة التئام شملنا لحظة احتفال بهذه الحقيقة، لحظة نصنع فيها من لحظات الهمّ والكآبة لحظات ابتهاج وسرور.

زرتُ إسبانيا قبل أن يزورها راينر بمدة طويلة؛ وعند دخولي إلى سان ستيفانو اقشعرّ بدني بسبب رؤية مصارعة الثيران، ففزعتُ من البلد كله، حتى إني آثرتُ فيها البقاء في إقليم الباسك الفرنسي (سان جان دي لوز). وبمرور السنين لم أعد أستمتع بفعل السفر فقط، بل رحبتُ باستقبال الانطباعات والخواطر التي أتلقّاها مما أراه، ولم يعد ما أراه مجرد حِلية أو ديكور خارجي يزيّن ما في قلبي (مثلما كان الأمر في روما)، بل وجَّهتُ قلبي بطريقة مغايرة تمامًا لاستقبال كل فرحة محايدة وكل تبصّر بحقيقة العالم. أما باول ريه، وهو أول إنسان قاد خطواتي إلى الابتهاج بالحياة، فكان يراني على الدوام في حالة من البهجة وانشراح الصدر حتى إنه اعتاد أن يقول: إنني بهذا الإيقاع سأتجاوز كل الحدود.

---

(1) دوينو قرية وقلعة في إيطاليا واقعة على ساحل البحر الأدرياتيكي، وهي التي كتبَ فيها ريلكه ديوان "مراثي دوينو" (المترجم).

وقد ظنّ الناس أنَّ مرحلة شبابي سارت على هذا المنوال، وهو ما أدّى إلى حدوث مواقف سوء فهم لم تكن تخلو من خفة ظل؛ ففي دردشة مفتوحة وسط تجمع من الناس زعم أحدهم بثقةٍ أنه سمع قبل سنوات طويلة أنني اعتدتُ الاختفاء عن الأنظار كل فصل ربيع وخريف، لأعود بعدها بروح جديدة كيوم ولدتني أمي. فما كان مني إلا أن أجبتُه بنبرة جادّة مُوبِّخة قائلة: إن عليه إنكار تلك الاتهامات الباطلة وتصحيحها، لأني في حياتي لم أفرّق بين فصل وآخر، كل الفصول عندي سواء.

في كل رحلة كنت أختار رفاق سفر جُددًا عن سابقتها؛ فبلدان جديدة ورفاق سفر جُدد تثمران بالضرورة تجارب جديدة وخبرات مختلفة، لكني كنت أعود في نهاية المطاف إلى عزلتي المنشودة. ومقارنة برحلات هذه الأيام التي تنطلق إلى دول أعالي البحار، لم تغطِّ رحلاتي إلا بقاعًا بعينها من أوروبا، والحقيقة أني لم أشعر يومًا برغبة في السفر إلى بلاد الغرب. كانت أطول رحلاتي إلى البوسنة والهرسك، ودالماتيا [في كرواتيا حاليًا] وبلغاريا والجبل الأسود وألبانيا، وصولًا إلى تركيا عبر مدينة إشقودرة [غرب ألبانيا]. أما ما يُطلق عليه اليوم يوغوسلافيا، فقد غمرني شعبها بذكريات آسرة لا تُنسى، فشعرت هناك كما لو أن الشعب الروسي قد خلع عنه أردية الذل والعبودية ووضع مكانها ثياب الفرح والبهجة. ولم أحسّ بغربة وأنا في ظل التقاليد التركية، فقد كان الناس يعامل بعضهم بعضًا بطريقة ودّية. وهناك لم أرَ أعذب من الشُّقْر فارعات الطول، اللواتي كن يختلفنَ اختلافًا حادًّا عن المظهر التقليدي للنساء التركيات بمشيتهنّ المتجهمة (على الأقل ما أراه هذه الأيام!)، ولا رأيتُ أجمل من منظر صبية الشوارع والحارات وحركاتهم وإيماءاتهم المطبوعة بتقاليد عتيقة تفيض عذوبة.

كانت هذه الإيماءات جزءًا من المنظومة [الحضارية] كلها: سواء أكان هؤلاء الرجال الممتطون صهوات جيادهم بثيابهم التقليدية من دون سرج يهبطون إلى المنحدرات أم إلى جوار أحواض المياه (بغرض الوضوء أو إقامة الصلوات، ترى سلوكهم يلزم شكلًا واحدًا منضبطًا لا يتغيّر).

وفي مرة مررنا بشحّاذ مسنّ قاعد على العشب، وبالرغم من أنه كان باسِطًا كفّه للسؤال بدت هيئته مثل أمير مسنّ، لذلك لم نستغرب عندما مررنا به في مرة ثانية ورأينا يدًا ممدودة للسؤال، واليد الثانية تسحب علبة سجائر مطلية بالمينا الزرقاء، ليقدّم إلينا سيجارة.

في تركيا بدا كل شيء أكثر تشبعًا بالروح الشرقية عما كان عليه في روسيا، بدا كل شيء على حاله القديم، وبدا أميل إلى البدائية. وبعد هذه الرحلة بسنة انغمستُ مع راينر في دردشة حيّة حول هذه الانطباعات كما لو أنه كان معي.

بدَتِ الروح الدينية الروسية التي كانت قد أسرتْ قلبَ راينر، نافذة إلى قلب الحياة التركية لتصبغ كل شيء فيها، وإن بشكل أكثر آلية لو شئتَ القول، وهكذا صارت الروح الدينية التركية أبلغ وأشدّ فاعلية بسبب تاريخها التليد، و "تجدد عظامها وقوّتها" من دون الحاجة إلى التشبّث بالمعتقدات السائدة. وهو ما يصدقُ على صلوات الكنيسة الروسية، وربما بشكل أقوى في الكنيسة الأرمينية، حيث نرى أن العنصر الفعّال هو العنصر الأكثر صرامة وتشبّثًا بالتقاليد، إذ يبدو الأمر وكأننا نقدّم وعاءً فضيًّا فارغًا إلى رجل غريب ليضع فيه ما يشاء من خشوعه وتبتّله الخاص.

ويصدق الأمر بالمثل على التقاليد الإسلامية التي تبدو منسجمة مع طقوس الروم الكاثوليك من حيث المِزاج العام.

ينتاب المرء شعور طاغ بالسكينة الروحية الداخلية وهو يرى المسلم إذ يخلع نعليه أولًا قبل الدخول إلى المسجد للانضمام إلى المصلّين، الذين لزموا الصمت وهم جالسون أو راكعون فوق السجاجيد بديعة الصنع.

تحضرني الآن ذكرى أول ليلة قضيتُها في تركيا، وأعطتني انطباعًا عامًّا حول طبيعة خشوعهم الروحي. كانت نوافذ الغرفة مفتوحة على مصراعيها، فنقلتْ إلينا الضجيج القادم من الأزقّة الضيقة، وكانت أصوات الباعة والعربات ونهيق الحمير عالية تتناهى إلينا عاليةً مدوّية، ثم غرق كل شيء بغتة في صمت مهيب، كما لو أن الكون قد حَبَس أنفاسه، أو كأن قطعة من الحياة انسلخت من الوجود، بل إن الحمير نفسها توقّفت عن النهيق. ومن مِئذنة المسجد التي كانت مرتفعة مثل سبابة مشيرة إلى عنان السماء الحالكة، رُفع الأذان: "الله أكبر".

انطلق نداء "الله أكبر" من قلب كل مخلوق، خوفًا وطمعًا في رضاء الرب، وراح النداء يتردّد صداه عند الحد الفاصل بين أول خيوط النهار وآخر خيوط الليل، حتى إن المرء لا يسعه إلا أن يتفكّر في المغزى الباطني وراء هذه الكلمة، لكنه لا يقوى في الوقت ذاته إلا أن يتماهى مع شعور الخشوع الذي تملَّكَ الجميع. كان الأذان مثله كمثل نداء يوقظ العقل الغارق في سباته، قبيل لحظة انبلاج الفجر، مُؤذنًا بالعودة إلى الحياة مرة ثانية أو مغادرتها.

أما آخر رحلاتي الخارجية فكانت إلى سان بطرسبيرج والسويد سنة 1911. في طريق عودتي من إستوكهولم إلى منزلي، مررتُ بمدينة فايمار في صحبة معالج نفسي، حيث كان يُعقد مؤتمر فرويد للطب النفسي في سبتمبر من هذه السنة. ثم سافرتُ بعدها بسنة إلى فيينا، ولم أقم بأية رحلات بعدها، اللهم إلا إذا كانت متصلة بلقاء راينر، أو البروفيسور فرويد أو رحلة عمل.

وضعت الحرب العالمية حدًّا فاصلًا بين عالم اليوم وعالم الأمس البريء الذي كنا نجوب فيه الآفاق بين البلاد والناس دونما قيود وحيثما نشاء. عندما أرجع ببصري إلى الوراء لتأمّل تلك السنوات أراها قد شكَّلَتْ مرحلة منفصلة قائمة برأسها من حياتي، وأنّ التجارب الداخلية والدخيلة قد امتزجتا سواءً بسواء امتزاجًا ملأ حياتي سعادة وثقة. برغم ذلك أحسُّ أن هذه التجارب قد تحوّلت إلى مجرد ذكريات لا يمكن تأمّلها إلا من مسافة بعيدة مقدارها خمس عشرة سنة، اعتبارًا من سنة 1914، السنة التي حدث فيها تحوّل جذري في حياتي.

فبدلًا من توسيع دائرة المعارف بين معارف قدامَى وجُدد، بدأت أميل، سنةً وراء الأخرى، إلى مَن يوافق تفكيرهم تفكيري. فداخل دائرة أصدقاء فرويد المحدودة في مدينة فيينا وجدتُّ نفسي منجذبةً إلى مجموعة بعينها رأيتُ فيهم أخوية روحية بفضل أهدافهم الموافقة لأهدافي.

كان لانضمامي إلى هذه المجموعة أثرٌ نافع لا يختلف عن الأثر الذي تولّد عندي بعد انضمامي إلى حلقة أصدقاء باول ريه فيما مضى. واقع الأمر أني شعرتُ براحة وأنا أعود مجددًا إلى أجواء عدم التكلّف الذي كنت أشعر به وأنا بين أشقائي الذكور، الذين كنت أختلف معهم اختلافًا شديدًا برغم أننا من أب واحد وأم واحدة. وجدتُّ أشخاصًا يفكّرون بنفس طريقة تفكيري برغم وفودهم من شتّى بقاع الأرض. كان أغلب أعضاء المجموعة قد انضموا إلى الحرب، وكان أولاد البروفيسور فرويد الثلاثة، فضلًا على زوج ابنته قد انضموا أيضًا إلى جبهة القتال.

أذكر أن د. فرويد كتبَ إليَّ ذات مرة، مُلمحًا إلى وجهة نظري الإيجابية بشأن الرجال: "وماذا تقولين الآن في أشقائكِ الرجال المتحاربين؟ وهل تستطيع الفرحة أن تعاودكِ مرة أخرى، بعد أن امتلأتْ نفسكِ ثقةً بهم؟".

وسط حالة التمزّق النفسي بسبب رؤية الشعوب المتصارعة، فضلًا على صراعي النفسي ضد ذاتي وأنا غارقة في حالة عزلة عميقة، لم يسعني إلا أن أجيبَ بكلمة: "لا".

طافت بذهني فكرة أن الحرب من أمر الرجال، بل إنّ الحرب طبع الرجال.

لم أستطع منع نفسي من التفكير: ألم يكن العالم ليصير أفضل حالًا لو امتلكت المرأة زمام الأمور؟ وكم من مرّة راود النساء هذا الحُلم برغم تعارضه الصريح مع الفطرة البشرية!

ألا يرى المرء رأي العين صورة كل أمّ ثكلى منحنية على جثة في الميدان، جثة ابنها، وكأنها نصب تذكاري شامخ واقف على حدود الدول المتحاربة؟ المؤكد أننا نعاني عيبًا في الإبصار يحول بيننا وبين تأويل وإدراك المعنى الخفي، فالأمور ليست دائمًا كما نراها.

فجوهر الأمومة، التي نشأ الجنس البشري من رَحِمها، ليس في صبر الأمّ الأبدي على ما يحدث لأولادها، بل في صبرها على تكرار ما يحدث لهم ويهدّد حياتهم.

الأمومة في جوهرها عصبية عمياء مفعمة بالعاطفة المشتعلة سواء في الحب أم في الكُره، الأمومة هي عدم التسامح الذي لا يعرف الهوادة، والغضب المشتعل لافتراس كل من يقترب بسوء من ذلك المخلوق، الذي ما يزال يجري في دمائها وإن خرَجَ بالفعل من رحمها. تنقل الأمّ إلى طفلها كل ما تحمله من مشاعر الإخلاص والوحشية بالطريقة نفسها، وهذه قيود فطرية مُكبِّلة لطبيعتنا البشرية لا نستطيع الفكاك منها.

وبصرف النظر عن الرغبة الجادة لكل واحد منا في الجنوح للسّلم، لا أحد ينكر في قرارة نفسه أنّ الحياة الثرية بحق ليست إلا استعدادًا لخوض المعارك، وليست إلا انتفاضة غضب وحملة هجوم ضد كل ما يهدّد وجودنا. ومن ثمّ لا غرابة لو رأينا مَنْ ينظر إلى مبدأ الجنوح للسلم، حتى عند أكثر الناس نزاهة وصدقًا، نظرة شكّ وريبة، لأنها صادرة عن عقلانية باردة.

فحيثما طغت الأساليب الفكرية *المُعقَمة* والعواطف المُعَقْلنة، فسنرى افتقارًا في العصبية العاطفية الأمومية التي تكلمتُ عنها آنفًا، التي تتماهى مع الموضوع الذي تنظر إليه.

ونحن هنا لا نرى إلا شعرة خفيفة فاصلة بين الحِقَب البربرية الهمجية وبين الحِقب الحديثة التي هي أكثر تحضرًا وثقافة، التي استطاعت، من جانب، تطوير الأسلحة الفعّالة التي هي أشدّ فتكًا، لكنها حرصت، على الجانب الآخر، على مراعاة الجانب الأخلاقي المتصل بمداواة جروح الأعداء.

إننا نشنّ حروبًا على الآخرين، لأننا في واقع الأمر في حالة حرب ضد أنفسنا؛ لا يكاد يتخيّل أي إنسان أنه يضمّ بين جوانحه قوتين متناقضتين أشدّ ما يكون التناقض، وهما قوتان راغبتان على الدوام في الانطلاق. ينغمس الإنسان في هذه الطبيعة المزدوجة، على المستوى العاطفي والعقلاني على حد سواء، انغماسًا حادًّا حتى يظنّ أنه ليس من صَنَعَ كل هذا، اللهم إلا إذا طرأ عليه تطوّر عقلي أسفر عن نشوء طريق ثالث، ألا وهو المصالحة بين المتناقضات في نسيج واحد مقبول (بشكل أقرب إلى معاهدات الصُّلح التي تبرم بين الدول بعد انتهاء الحرب)، حتى لو خُرقت هذه المعاهدات بشكل متكرر.

نلجأ إلى مثل هذه الوسائل المتحضّرة لئلا نمزّق أنفسنا في صراعات داخلية، فينمو لنا، بشكل لا إرادي، قناع مخبوء ومُربِك، وهو قناع ظاهره للعالم الخارجي وباطنه للعالم الداخلي، أي قناع خلف وجهنا وأمام روحنا، لكنه قناع يصعب أن ينمو على وجه الإنسان البدائي الساذج الذي لا يعرف سوى الغرائز الفطرية الأساسية التي لا يعرف كيف يداريها.

ولكن على صعيد مقابل تتيح هذه الحقب [حقب الحروب] للبشر أن يعايشوا أوقاتًا بربرية، ومن ثمّ تحمل الحروبُ الإنسانَ على الانفتاح على رؤية ومعايشة طور همجي من أطوار الحضارة البشرية معايشةً أعمق وأقوى مما تستطيع أن تفعله مصاير الحياة الأخرى.

في مقدورنا أن نعثر في شهادات العائدين من الحرب على حقائق لم يسمع عنها أحد من قبل. إن ما نُطلق عليه "رِفقة" أو "رابطة" وظيفتها الجمع بين الخبرات المشتركة المتجاوزة لفكرة الصداقة أو الأسرة، إنما توحّد بين أعضائها داخل آصرة واحدة، وداخل وجود واحد، ليعودوا أقوياء متحدين كما كانوا قبل انقسامهم إلى أفراد لكل واحد وعيه المستقل.

نستدلُّ من شهادات هؤلاء أنَّ صلة غامضة كانت تربطهم بالطبيعة ككل؛ وهي صلة تتجاوز المظاهر العملية والجمالية والعاطفية المعتادة إلى ما هو أبعد من ذلك، والحقيقة أن شهادات من هذا النوع تحملنا على الاعتقاد بأن ثمة تغييرًا جديدًا نشأ من رحم هذه الأحداث المدمّرة والمُغَيِّرة التي فرضتها إرادة القَدر، وهو تغيّر ألقى بظلاله على المنتصرين والمهزومين على حد سواء. في المقابل تعجز الشعوب التي لم تكوِها نار الحروب - مثلنا تمامًا في حالة السلم - عن فهم حقيقة ما أقوله، وتنظر إلى ما أقوله من بعيد على أنه أساطير وخرافات.

لا شكّ أن معايشة هذه التجارب المريرة المروّعة تنطوي على قيمة إنسانية لا تدانيها قيمة، لأن البشر إذ يواجهون أنفسهم ويواجهون الواقع إنما يقفون على حقيقة الاثنين (حقيقة أنفسهم وحقيقة الواقع المرير)، فالإنسان لا يَـخبـُر الحياة الحقيقية إلا لو زال عنه حرج التستّر عليها وإخفائها. على الرغم من مساعي البشر لتخفيف وطأتها استمرّتْ تبعات الحرب لمدة عقد كامل بعد انتهائها.

أما عني فقد عزلتني الثورة الروسية عن أسرتي وبلادي عزلًا نهائيًا، حتى قبل أن تضع الحرب العالمية أوزارها بشكل رسمي. لأنهم هناك في روسيا، لم يستطيعوا مواصلة الحراك الثوري إلا عبر سياسة العصا الغليظة. في أثناء الحرب وما بعدها استحوذ علم النفس الفرويدي على حياتي الشخصية استحواذًا كاملًا، سواء على مستوى البحث النظري أم على مستوى الممارسة العملية.

قياسًا بأهوال الحرب لم يكن ثمة شيء يضاهي علم التحليل النفسي الفرويدي في القدرة على إماطة اللثام عن نوازع الصراع المتأججة داخلنا، ولا في قدرته على الحفر للوصول إلى أعمق طبقات روحنا. فلا شيء كان قادرًا على انتشالنا بعيدًا عن حالة الحرب أكثر من اقترابنا المشترك من فهم حقيقة الأساس المشترك لأرواحنا، مثل فردين على بعد خطوة واحدة من حدود السلام.

وما الذي حدث بعدها؟

ما حدثَ أن إنسانًا غريبًا دلف إلى حجرة، فلم يكن موضع استحسان ولا استهجان، وانغمس في العمل الذي بين يديه طوال حياته، فتعرّض لتجربة هـزّت كيانه هِزّةً لا يعرفها إلا من مرَّ بنفس تجربته. ثم انقضت السنون وتقلّص عدد رفاق الدرب بمرور الزمن، مثلما تقلّص عدد

شباب الوطن الذين قَضَوا في الحرب، ولم يبق على قيد الحياة إلا ذلك الإنسان الغريب.

في الأيام الأخيرة من سنة 1926 تُوفّي راينر، وفي الرابع من أكتوبر سنة 1930 غادر زوجي الحياة، وبعد رحيله بمدة قصيرة حاولت قدر الإمكان رسم ملامحه، محتفظة بذكريات عن تلامذته وأصدقائه. وهذا هو السبب الذي دفعني إلى كتابة ملحق.

ثم أضفتُ لاحقًا الملحق المكتوب عن زوجي داخل كتاب غير مُتقن الصنع، ظَهَر في السنة التالية تحت عنوان "ذكريات حياتي"؛ وهي الذكريات التي كانت تروي لي نفسها بنفسها وبإلحاح متزايد، الذكريات التي لم تكن سوى إعادة حكي ما طواه الزمن، الذكريات التي لبثت تطاردنا بقصدٍ حتى أمسكت بنا ونحن في خريف العُمر، كما لو أنها قطعت مشوارًا طويلًا لتضع أمام أعيننا ما هو خالد لا يزول. ولو تركنا كل ذلك جانبًا لرأينا أن الحياة الشخصية للفرد ليست بالقيمة التي نتخيّلها، ففي مقدور أي حدث من أحداث الوجود أن يخبرنا جيدًا بمذاق السعادة والألم. بل حتى أقلّ أحداث حياتنا قيمة، وما قد نظنّه تافهًا لا يستحق الذكر قد يصير معينًا لا ينضب من التجارب، في حين أن أكثرها بهرًا وخطفًا للأبصار قد يفشل في كشف النقاب عن مغزى الصورة الكليّة للوجود.

يظل الوجود لغزًا مبهمًا، لكنه برغم ذلك يبقينا معلّقين داخل شبكة سر الوجود المنفتح.



الفصل الثاني عشر

تجربتي في الزواج

الإنسان ذو القيمة في هذه الدنيا، مقارنةً بما نسمّيه (بشكل سطحي للغاية) الإنسان متوسط القيمة، هو من يحوي في أعماقه أبعادًا إنسانية أشمل وأعمّ، بمعنى الإنسان الذي يضمّ بين ضلوعه مساحة رحبة تتحرك فيها النفس البشرية بحرّية، بكل ما تحمله من تناقضات ورغبات ناجمة عن حالة التعايش بين الأضداد. والحقيقة أن ما نُطلق عليه لفظ "موهبة" ليس في حقيقته إلا ثمرة احتكاك داخلي مصدره محاولات النفس المستميتة للمصالحة بين الأضداد.

أما الانسجام في الشخصية - الذي هو بشكل أو بآخر غاية البشر كلهم - فلا يتحقق إلا عبر طريقين: إما الركون إلى سلام داخلي مبتذل عبر التفريط في استغلال فرص الحياة السانحة، وإما التعلّق بنموذج مثالي يقتدي بعالم غير بشري، كعالم الحيوان أو النبات مثلًا، ويستخدم كمعيار نقيس به تناقضاتنا الداخلية.

داخل الطبيعة البشرية يمكننا أن ندرك أن الفارق بين التفكير البدائي والتفكير الواعي لا يختلف عن الفارق بين المجتمعات البدائية والمجتمعات المتحضّرة، والحقيقة أنَّ الأخيرة هي مجرد حلقة تالية في مسلسل التطور، فالفكر المتحضّر غير منبتّ الصلة بالفكر البدائي، بل هو مؤسّس عليه في الأصل.

ومن هنا نَصِف هذه الثنائية بالحضارة الأوروبية والحضارة غير الأوروبية (برغم وجود شعوب غير أوروبية تتمتع بدرجة عالية من التحضّر)، أو نجنح إلى تقسيمها إلى اتجاهات [جغرافية] فنقول: دول الشمال الغربي ودول الجنوب الغربي، فيؤدي هذا التناقض في نهاية المطاف إلى نشوء معضلة الإنسانية الكبرى العصيّة على الحل.

ولكن أنْ يُفسحَ الإنسان صدره لاستقبال هذه المتناقضات معناه أن تزداد حياته ثراءً وصعوبة في آن واحد؛ حيث يجني ثراءً بفضل التجارب، ويكابد صعوبة في سقوطه فريسة الصراع بين القدرات والحاجات. ولو قُدِّر لإنسان أن يولَد في معترك هذه المتناقضات، فعليه أن يعلم أنّ مواهبه ومزاياه ستأخذ بالشمال ما أعطته إياه باليمين، وأنها ستنتقم منه، وهو ما يصنع في المحصّلة السمة المميزة لشخصيته ككل.

إن الكلام السابق هو أبلغ شرحٍ لشخصية زوجي ف. س. أندرياس، الذي رأى نفسه واقعًا في حبائل الاتجاهيْن في وقت واحد، بخيرهما وشرّهما.

سأتكلم عن زوجي برغم معرفتي أنّ هذه الشهادة لن ترسم إلا جانبًا واحدًا من جوانب شخصيته. أقول: سترسم هذه الشهادة ملمحًا واحدًا فقط، وإنْ كان ملمحًا أساسيًّا من شخصيته، وهو ما سأقتصر عليه هنا، لأن التصاقي الشخصي به يحول بيني وبين رسم الخطوط العريضة الكاملة لشخصيته.

وُلد فريدريش كارل أندرياس كثمرة التقاء عالم الشرق لعالم الغرب؛ إذ كان جدّه لأمه طبيبًا لامعًا من شمال ألمانيا، سافر إلى مدينة جاوة ليتزوج بامرأة ماليزية بارعة الجمال، رقيقة الطباع، محطّ قلوب الجميع. أما

أمه فقد تزوجت برجل أرميني ينحدر من السلالة الملكية البقرادونية[1]، التي تعيش بقاياها في مدينة أصفهان. وكان من دأبِ الناس في بلاد فارس آنذاك أن تغيّر السلالة المندثرة الاسم الأول، فاتخذتِ العائلة اسم "أندرياس".

انتقل والد زوجي إلى هامبورج عندما كان الطفل في السادسة، ولما أتمّ الرابعة عشرة أرسله أبوه إلى مدرسة ثانوية في مدينة جنيف، حيث أبدى الصبي نبوغًا مبكّرًا ظَهَر في شغفه القوي بتعلّم اللغات والموسيقى. في ألمانيا واصل دراسة اللغات الشرقية في عدد من الجامعات، ليتخصص في اللغة الفارسية وآدابها. وفي سنة 1868 تخرَّج في جامعة إيرلانجين، لكنه قضى سنتين في كوبنهاجن لإنهاء الدراسات العليا، ليعود إلى وطنه مجددًا بسبب نشوب حرب 1870 [الحرب البروسية/ الفرنسية]. وبعد انتهاء الحرب سافر إلى مدينة "كيل" لدراسة اللغة "البهلوية" وتحقيق مخطوطاتها، ولم ينه الدراسة إلا في سنة 1882 بسبب تكليفه بالسفر في بعثة استكشافية إلى بلاد فارس.

وبرغم أن هذا المشوار كان منسجمًا مع رغباته، وكان حلقة الوصل بين أهدافه الأكاديمية ورغبته في معايشة التجارب في عالم الشرق الفارسي من كثب، فقد كشف عن الصراع الداخلي بين عقلية الرجل الأوروبي المحدّد الهدف والغاية، وبين نفسه التائقة إلى الاستمتاع بمباهج الحياة دون شعور بالذنب من إهدار الوقت.

(1) سلالة ملكية أرمينية حكمت مملكة أرمينيا القروسطية من نحو عام 885 إلى 1045 (المترجم).

ومثلما مَنَّتْ ترتيبات القَدَر عليه بالنِّعَم سلبته بعضًا منها. كان زوجي قد تأخّر عن اللحاق بركب بعثة استكشافية إلى فارس، كانت قد سبقته بالفعل، في حين توقّف هو بالهند لإجراء بعض الأبحاث ورصد بعض الملاحظات المهمّة، وإنْ كانت في الحقيقة منبتّة الصلة بالهدف الأساسي للبعثة، وهذا ما أثار استياء المسؤولين، واعتبروا أن قرار ابتعاثه كان غلطة، فطالبوه بالعودة من حيث جاء. أما القشّة التي قصمت ظهر البعير فكان ردّه الرسمي الطافح بالعداوة والهجوم الانفعالي، الذي كانت نتيجته أن اضطرّ إلى إتمام دراساته في بلاد فارس على نفقته الشخصية بسبب انقطاع الدعم المالي المقدّم من الحكومة.

استمرّت إقامته هناك قرابة ست سنوات، قضى أغلبها في حالة فقر مدقع، ثمّ اضطرّ إلى العودة إلى وطنه بسبب مرض أصاب عينه في أثناء فحص أحد النقوش القديمة تحت ضوء الشمس الساطعة. وهناك كان يكسب قوته من إعطاء الدروس الخصوصية، واستمرّ به الحال هكذا حتى تأسيس معهد الدراسات الشرقية في برلين، حيث تولّى منصب الأستاذية. إلا أنه سرعان ما فقد كرسي الأستاذية بسبب بعض المكايد التي حيكت ضدّه وزعمت أنه فشل في الوفاء بمتطلبات الوظيفة، وأشاعوا أنه كان يدرّب الدبلوماسيين ورجال الأعمال المهتمّين بالسفر إلى الشرق، بدلًا من التدريس للطلاب الشبّان. وهو ما ثبت بالدليل الدامغ أنّه ادعاء باطل، إذ لم يكن يتردّد إلى المعهد إلا الدارسون المهتمّون بالدراسات الشرقية، وكانوا طُلّاب علم من النوع الذي خُلِقَ زوجي ليدرس لهم.

والحقيقة أنّ مكمن الخطر في سوء فهم الآخرين راجع إلى أنه كشَفَ عن تشتّت داخلي يعتور شخصية أندرياس، وهو أنّه حتى عندما كان يُسمح له بممارسة البحث العلمي دون قيود، كان يصطدم بمشكلة ثانية؛

إذ بدا له أنَّ طريق الأدلة العلمية العقلية طويل بلا نهاية، وأنه طريق لن يصل به إلى المحطة الأخيرة إن جاز لنا التعبير، مقارنةً بالأدلة الحدْسية الباطنية التي تعرض أمامه في أثناء البحث العلمي.

ولأن أندرياس كان يتوخّى الدقة المتناهية، ولأنه كان حريصًا أشدّ الحرص على سبر أغوار المادة العلمية حتى جذورها، ومن ثم كان متمكنًا من مهنته، بدا له أنه من المستحيل أن يطوّر ملكات الحَدْس الداخلي والوصول إلى الدليل الباطني، وهكذا أخفق في إتمام أية مهمّة حتى نهايتها، وسقط مُنجزه العلمي في الهوّة الفاصلة بين الاتجاهين: طريق العقل المحض وطريق الحَدْس المحض.

ذات يوم عبّر شخص يكره أندرياس عن هذه الحقيقة تعبيرًا مباشرًا بقوله: "لو كنتِ في بلاد الشرق لكان زوجكِ من الحُكماء". إلا أن أندرياس لم يكن من النوع الذي يرى نفسه جالسًا في خيمة تحت شمس الجنوب، يلقّن مريديه تعاليم الحكمة، بل كان يرى نفسه على الدوام باحثًا في بعثة علمية استكشافية، سالكًا طريق باحث الدراسات الشرقية، واضعًا نُصْب عينيه غاية البحث العلمي المنضبط.

ولم يكن أي من الاتجاهيْن (العقل والحدس) على استعداد لتقديم تنازلات إلى الآخر، وكان كل اتجاه متفرّدًا بنفسه، متشبثًا بمِزاجه المستقل، ولم يتبدّل هذا الموقف لاحقًا، حتى بعدما تحسّنت أحواله المادية. وحتى بعد أن تقلّد كرسي الأستاذية في قسم الدراسات الفارسية والغرب آسيوية بجامعة "جوتينجين"، لم يُوفَّقْ زوجي لجمع نتائج أبحاثه العلمية في كتب ونشرها، وبقيت أبحاثه على هيئة ملاحظات متفرقة هنا وهناك، أو ربما نقول: كانت "قيد الكتابة".

ولو توخينا الدقة لقلنا: إن نتائج أبحاثه لم تكتمل في صورة نهائية قط، برغم أنّ مادتها كانت من طواعية التطوير والتوسّع ما يُمكّنها من أن تصير مادة علمية مكتملة الأركان من حيث السياقات الداخلية والتحليل العميق. ولكن ذلك لم يكن ليحدث إلا لو توفرت النيّة الصادقة في أن ينذر المرء حياته بأسرها لهذه الغاية. والحقيقة أن هذا المزيج بين الدقّة العلمية المتناهية والحَدْس الباطني النافذ إلى غور الأشياء، حالَ دون تقييم نتائج أبحاث أندرياس على الصعيد الرسمي، لأنه لم يرغب مطلقًا.. مطلقًا في اتخاذ قرار بنشر أبحاثه لأغراض *عملية* على حدّ قوله. لذلك بقي أهمّ مكوّن من مكونات رؤيته الباطنية الحَدْسية مطويًا داخل صدره، بقي مجرد تجربة شخصية، برغم أنه في كل لحظة كتب فيها حرفًا من أعماله، وكل سطر من سطور أبحاثه واستدلالاته في شمولها كان ينشد بلوغ الهدف الكلّي النهائي.

برغم ذلك كانت ثمة نقطة التقاء اجتمعت فيها هاتان الطريقتان المتقابلتان في العلم والإدراك، إذ عثر هذا المزيجُ العجيب بين الحَدْس الباطني والتبحّر في العلم على ضالّته في مجموعة من الطلاب الذين كانوا يشاركونه في الميول الفكرية نفسها، حيث تشرّب الطلاب رؤيته *الماوراء علمية*.

ولا أجانب الصواب لو قلتُ: إن افتقاد أندرياس إلى وجود تلامذة على مدار خمس عشرة سنة من حياته الأكاديمية (باستثناء إعطاء دروس اللغة الألمانية للضباط الأتراك على سبيل المثال)، كان جريمة بحق. ولم يشعر بمتعة وثراء تجربة تحلّق الطلاب حوله إلا عندما بدأ يتواصل مع الطلاب النابهين في جامعة "جوتينتجين"، وكان تواصلًا أقرب إلى تواصل صديق مُعلّم، منه إلى تواصل أستاذ بتلميذ. كان تلامذة زوجي

بمثابة الحقل الذي يبذر فيه حبوب معرفته الواسعة بالطريقة الدقيقة أو غير المتحفظة بحسب ما يلائمه.

بعد وفاة زوجي أخبرني أحد زملائه الذين عرفوه قبل مدة طويلة: "كان أي شخص يستمع إلى محاضراته يشعر بآصرة قوية تربطه به، فيظلُّ وفيًّا لصداقته، ولكنّك لا تعلمين إلى أي حدّ كان يتعهّد تلامذته بالعناية".

ولو اعترفتُ أنَّ شهادات تلامذة زوجي السابقين قد محَتْ تجربة موته، فإني لا أقصد بذلك إظهارهم لمشاعر الحزن أو المواساة أو الفقد، بل أعني أنَّ كلامهم أحيا ذكراه في نفسي، فتحوّلت إلى حقيقة ماثلة أمام عيني. سأحاول تذكّر تفاصيل الشهادة، التي رواها لي واحد من أقرب تلامذته بعد عودته من الخدمة العسكرية؛ قال: إنه أحسَّ بفقد كل رابطة تربطه بالرغبة في تحصيل العلم، وفقدان الرغبة في مواصلة الدراسات العلمية، وإنه لم يعد يتذكّر شيئًا من المواد العلمية.

"لمْ أعقد أملًا على إعادة تشييد العالم الداخلي المنهار عبر الغوص في الكتب وحدها، وكان عليَّ أن أسأل نفسي: تُرى كيف كانت ستبدو الأمور لو كان أندرياس موجودًا؟ سواء في المرة الأولى أم بعدها.. أفكّر كيف كان ينظر إلينا وكيف كان يتكلّم، وكيف كانت كلماته تغمرني تمامًا حتى إني كنت أخشى على نفسي من الغرق فيها.. أقول ذلك برغم أن أحد كبار أساتذتي قال لي يومًا: "ها قد حان الوقت لتذهب وتعمل مع أندرياس". وعندما تذكّرتُ هذه الكلمة أدركت مجددًا ما كنت أبحث عنه، أدركتُ أني لم أكن أفتش عن العلم المبثوث في بطون الكتب ولا عن المعرفة المدوّنة على الأوراق، لأن أندرياس في أثناء الدرس لم يتوقف عن مواصلة البحث عن الجديد، وكان يعثر على الجديد بالتعاون مع طُلابه.

بقيتْ هذه الذكرى محفورة في عقلي حية نابضة، بل انطلقَتْ إلى آفاق أرحب".

استطاع تلامذة زوجي التأليف بين العنصرين المتناقضين (الجانب الشخصي والجانب الأكاديمي) في نسيج واحد، بمعنى التأليف بين المرئي اليقيني، وبين ما يحتاج منه إلى فحص وتمحيص دقيقين.

وقد لخّص طالب آخر انطباعه العام عن أندرياس بوصفِه: "الملك صاحب السيادة المطلقة"، فهو الرجل المحصَّن بمعرفته ضد كل الهجمات الخارجية، الواعي بسعة علمِه، الزاهد في المجد، العازف عن أضواء الشهرة، المتمتّع بالحرية الداخلية. وساهمت طريقة أندرياس في استقبال تلامذته (لا أقصد في الجامعة، بل في غرفة مكتبه في منزلنا) في الكشف عن كثير من ملامح شخصيته. كان التلامذة يحضرون في المساء، عند حافة الليل لو جاز لي التعبير، وكانوا يجلسون أينما يَحْلُ لهم. أندرياس نفسه كان من النوع الذي لا يخلد إلى النوم قبل الرابعة فجرًا، فلم يكن يفرّق بين صباح ومساء. ولأجل الترويح عن نفوسهم كان يُقدِّم إليهم إما الشاي الذي يُعدّه بنفسه بمزاج الرجل الشرقي مصحوبًا بأطباق الكيك، وإما كؤوس النبيذ مع الشطائر الباردة، وكان الطعام الذي يُقدَّم إليهم هو الذي يحدّد طبيعة النقاش وموضوعه. وكل ما يسري على التلامذة يسري على الأستاذ.

في سنواته الأولى في جامعة "جوتينجين" استطاع أندرياس - بعد جهد شاق - تدبير منحة مالية لأحد تلامذته للالتحاق ببعثة استكشافية إلى بلاد فارس. لم ألمح على وجهه قطّ فرحة غامرة مثلما رأيتها عندما جاء وأخبرني بهذا الموضوع.

في هذه اللحظة وحدها زال عنه شعور الألم والمعاناة بعد رحلته الاستكشافية المشؤومة التي أصيبت فيها عيناه بالمرض. وبرغم شعوره بالرضا والإشباع العميق من وراء حلقة التلامذة التي التفّت حولَه بقيت نار التناوش بين الاتجاهين المتعارضين داخل نفسه، إلا أنها بقيت نارًا تحت الرماد، مثلها مثل بركان على وشك الانفجار، برغم خروج بعض الإشارات الدالّة على اقتراب الانفجار من حين إلى آخر. واستمرّ الأمر هكذا حتى شرع أحد تلامذته في العمل على بحث يخصّه، وكان تلميذًا قد اصطفاه أندرياس وشمِله بأوجه الدعم والعناية والمحبة لما رآه فيه من موهبة وقدرة على الإنتاج والوفاء بالمتطلبات العلمية للبحث العلمي، بشكل يفوق قدرة أندرياس شخصيًّا.

وعلى نحو لا إرادي نقَلَ أندرياس إلى تلميذه شكوكَه الشخصية حول كون الموضوع قد قُتل بحثًا وكونه جديرًا بالنشر أو لا، بعبارة أخرى: انصبّتْ شكوك أندرياس على سؤال هو: هل كانت الفروع المتشعبة لمادة البحث التي درساها معًا قد دُرِستْ حق دراستها، أم جرى التضحية بدقّة البحث والفهم تحت إلحاح المجد الشخصي وضغط الوقت؟

ولكن مَن في مقدوره الزعم أنّ هذه الشكوك لم تكن ضرورة مُلحّة - أذهب فأقول: لم تكن ضرورة صحيّة - بالنسبة إلى أندرياس لئلا يتنبّه لشعور الانقسام بين الطريقتيْن المتعارضتين في عمله؟ أعني طريقة الحَدْس الباطني وطريقة الأدلة العلمية الدامغة، فتكون النتيجة عملًا لا يكتمل أبدًا. أشدّ ما كان يخشاه أندرياس في المجالات كافة هو أن تضلّله ذائقته الجمالية، التي تدخل في روعه أن الإلمام بالصورة الكلية مقرون بالضرورة بعدم الالتفات إلى التفاصيل.

وسط احتمالات تنامي شعور كراهية مكتوم تجاه أخلص تلامذته بسبب هذه الشكوك، اختلطت مخاوف زوجي من الانفصال عنهم بمخاوفه من عجزه عن نقل معرفته إليهم.

واقع الأمر أنّ إخلاصه لتلامذته لم يفتُرْ، بل ازداد عمقًا وإن بشكل مؤلم لا يخلو من بغضاء مُضمَرة. في أوائل سنوات زواجنا وصَفَ الكاتب جيرهارد هاوبتمان قدرة زوجي على منح مشاعر الحب وصفًا ممتازًا بقوله: "*كم هي شرسة.. وكم هي رقيقة*".

لا يمكننا أن نغضّ الطرف عن حقيقة أنّ التوتر الحاد في نفس أندرياس قد أمسى عبئًا مفرطًا، وصار إنهاكًا لقواه أدّى في نهاية الأمر إلى الزجّ به في حالة من القلق الداخلي، إذ صار عاجزًا عن النظر إلى ما أنجزه وأنهاه، فتحوّلت أيامه إلى أسبوع عمل بلا يوم أحد، وتحوّل هذا الرجل الرائع إلى مخلوق مُنهك القوى لاهث الأنفاس، وهو يجري مطاردًا نفسه. بل وصل الأمر أني كنت أتجنّب مشاركته في بعض الأمور التي قد تشتت انتباهه عن عمله (مهما بدتْ مثيرة للاهتمام، ما الذي لم يكن يثير اهتمام هذه العقلية المتوقّدة؟!).

وكان لموقفه المشتَّت هذا أثره السلبي في الاضطلاع بواجباته الأكاديمية، التي كانت تفرض عليه الالتزام بمواعيد مُحددة وعدد معين من الأبحاث العلمية، لكنه كان يعطي "*لقيصر*[1] *أكثر مما يستحق قيصر*"، بل حتى الإفراط في إعطاء ما لقيصر لم يكن وافيًا بالغرض أيضًا.

كان هذا النوع من الصراعات يُدمي قلبه كما لو كان لطمة من لطمات القَدَر. ولهذا السبب ظلّ زوجي يأسى طوال حياته على المشروعات التي أخفق في إنجازها في صدر شبابه، وعلى الظُّلم الذي حاق به في وطنه

---

(1) الإشارة إلى آية العهد الجديد: "أَعْطُوا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا للهِ للهِ" (المترجم).

ألمانيا. أذكر أني حادثتُه مرّة عن شخص مهتم يرغب في الحصول على سيرة ذاتية ليضيفها إلى موسوعة تضمّ السير الذاتية لكبار العلماء. كان زوجي ساعتها واقفًا يصبّ الشاي، لكنه لم ينبس بكلمة. امتقع لون وجهه وجحظتْ عيناه الشاخصتان ناحية بقعة معينة على الحائط وكأنه ينظر نظرة تهديد ووعيد إلى ذلك الرجل المنحوس الذي تجرّأ وسأله هذا السؤال، وكأنه رجل قادم يحمل معه الموت. ثم سرعان ما وضع إبريق الشاي جانبًا بسبب ارتعاش أطرافه. لم يَخْفَ عليَّ بالطبع سبب وضع إبريق الشاي جانبًا، لكن قلبي حدّثني أنّ السبب هو أنه كان حريصًا ألا يقع الإبريق من يده.

إلا أنّ هذه الأحداث البسيطة وغيرها لا تدخل تحت إطار ما يُطلقون عليه في العادة عدم القدرة على التحكم في الأعصاب أو ضبط النفس، لأنه كان قادرًا على ممارسة ضبط النفس في مناسبات عديدة حتى الحدّ الأقصى. ولكن إجمالًا كان عنده استعداد للانهيار النفسي عندما يتأثّر جهازه العصبي لسببٍ أو لآخر، حتى لو كان هذا السبب لا يمسّه مسًّا مباشرًا، وكأنها رسالة ترحيب للتنفيس عن هذه الانفعالات المكبوتة وسط مسار الحياة المنضبطة.

هناك حكاية من سنوات زواجنا الأولى ربما توضّح كلامي؛ كنا قد اشترينا كلب حراسة ضخمًا من سلالة "نيوفاوندلاند"، وفي ليلة صيفية تسلّل زوجي من الحديقة إلى ردهة المنزل ليمتحن الكلب وليتحقق هل كان سيتعرّفه الكلب أم سيظُنّه لصًّا متسللًا، إذ كان زوجي متجردًا من ملابسه وعلى هيئة لا يكاد يتعرّفها الكلب. إلا أنه في مشيته الحذرة، وملامح وجهه المتجهّمة بدا مثل قنّاص مفترس - أعجز عن إيجاد الكلمات - ، وبدا كلاهما (زوجي والكلب) مثل لغزيْن لا سبيل إلى تفسيرهما. تلبّستْ زوجي الدراما الداخلية للكلب، لم يعد الأمر مجرد معرفة أنك

"معي" أو "ضدي"، بل استسلم زوجي لرغبته المزدوجة، رغبته في رفاق جدد يكون في صحبتهم مشمولًا بالحب والحماية في آن واحد.

أما الكلب، مسكونًا بحالة توتّر هائل، فقد نأى بنفسه عن التورّط في هذه المسألة، وحقّق الرغبتيْن اللتين كان ينشدهما سيّده؛ إذ تراجع الكلب نابحًا مزمجرًا بالتهديد، فما كان من زوجي إلا أن أطلق ضحكة عالية ملؤها الفرحة، فقفز الكلب ليرقد بين أحضان أندرياس.

كان الكثيرون يعربون عن دهشتهم من طباع زوجي المتحفظة الحذِرة برغم أو ربما بسبب ما يضمره من تعاطف واستعداد لمساعدة الآخرين. على سبيل المثال عندما تكلّم صديقه المقرّب "فرانتس شتولتسه"، رفيق سفره في بعثة بلاد فارس، عن السنوات التي أمضياها معًا هناك، وهو ما يثير شهية أي أحد للكلام، كان أندرياس يلزم الصمت. وهذا ما يثير الانطباع بأن أندرياس لم يكن يعتبر هذه الذكريات أمرًا شائقًا، بل أمرًا حميميًّا لا ينبغي أن يُذاع على الملأ بطيش ورعونة. لكن ذلك لم يكن يصدق على الذكريات الأليمة فقط، بل على الذكريات الحلوة التي مسّته من الأعماق. كانت تمرّ عليه ساعات صفاء يقصُّ فيها بعضًا من هذه الذكريات وكأنه يخرج جواهر كريمة من مكمنها؛ كان يقصّها على أصدقائه وتلامذته، فيحكي عن أمسياته مع ولي العهد الفارسي، ومع خادمه، ويحكي عن فرسِه، وعن كلبه من سلالة "فوكس ترير"، الذي أسِفَ على تركه هناك، وعن الحرباء التي كان يربّيها.

أودُّ هنا أن أنقل عن لسان أحد أصدقائه كيف كان أندرياس في أسفاره: "عندما كنت أذهب إلى العمل صباحًا وأنا منهك القوى وأضطرّ إلى البقاء حتى انتهاء مواعيد العمل، كنت أواصل الحديث. في إحدى

المرات قرأ عليَّ أبياتًا من رباعيات عمر الخيام بترجمة "روزين"[1]، بدا وكأنها لا تتكلم عن بلاد فارس، وإن كانت تروي أحداثًا تحت سماء فارسية. كانت الحكمة المشرقية الخالصة تتدفق من الأبيات، وكان الكلام في هذه الأبيات عن الخمر والحب، وكانت الأبيات تفيض بالروحانية المُبهجة والرقّة".

أو: "حتى في غمرة الحلقات الدراسية المكثفة التي لم تكن تضمّ موادَّ دراسية ثابتة ولا نهائية، كان كل شيء ندرسه، حتى قواعد اللغة الفارسية، مسكونًا بشيء نابض بالحيوية من روح الشرق. ومن وراء النتائج المنطقية المستخلصة من الأبحاث كنا نستشعر الحياة النابضة، المجللة بالصمت، وهي الحياة التي كانت تجعل من كل كلمة ومن كل قواعد علم الصوتيات وعلم الصرف، جزءًا من عالم الواقع".

بهذا المعنى يبدو لي أن حقيقة "المشاعر الروحانية" تجلت بشكل أوضح عند الرجل الشرقي منها عند نظيره الغربي، الذي طالما اعتبر "الفكرة" والمُثل" "والإيديولوجيا" بوصفها أشياء أعلى من المستوى البشري أو أقل منها بحسب منظوره (وأستثني من ذلك جوته وحبّه العميق للشرق والطبيعة اللذين كان يراهما شيئًا واحدًا).

هنا يُصبغ الروحاني بصبغة جسدية، ويُصبغ الجسدي بصبغة روحانية متجاوزة عالم المحسوسات، وهو الأمر الذي يفسّر لي جوانب كثيرة من شخصية أندرياس الباطنية، التي اندمج فيها "الروحاني" و"الجسماني" داخل آصرة واحدة غير قابلة للانفصام. وكان تلامذته يعرفون كيف أنه كان يجيب إجابات مستفيضة - في أثناء الدروس أو بعدها - عن أسئلة متصلة بالحفاظ على الصحة الجسدية، وهي أسئلة منبتة الصلة بموضوع الدرس.

---

(1) المقصود هو الدبلوماسي والسفير الألماني فريدريش روزين، مترجم رباعيات الخيام إلى الألمانية (المترجم).

وبرغم أنه كان قليل الاكتراث بصحته أو بمظهره الشخصي، كان يبدي عظيم الاهتمام بنظافة الجسد، نظافة البدن، فكان يواظب على الاغتسال بالماء والتعطّر بالعطور الشرقية بنفس الدرجة التي يواظب بها الرجل الشرقي المتهيئ للصلاة.

ربّ قائل يقول مازحًا: إنه لو كان مظهر أندرياس الجسدي قد فشل في التعبير عن مملكة الفكر/ الروح الداخلية، فمن المؤكد أنّه عثر على ضالّته هنا، أقصد في طقس عفوي وفطري وغامض مثل التطهّر بالماء.

تحضرني هنا قصيدة صغيرة للشاعر القديم ماتياس كلاوديوس (الذي كان زوجي يعرف أشعاره، ربما قرأ شيئًا منها في سنوات إقامته في هامبورج)، ولم يكن أندرياس يردّد هذه الأبيات إلا بنبرة فرحة مشوبة بالخبث. أحسستُ أنَّ مشاعره كانت نابعة من نور يقينه الشخصي الذي لم يكن للجانب المظلم من الحبّ أو الجانب المشرق من العقل أن يبدّده أبدًا:

أترى القمر في السماء؟

صحيح أننا لا نرى إلا نصفه المنير

لكنه برغم ذلك بدر مكتمل وجميل

من بين الانطباعات عن أندرياس أنه من الصعوبة بمكان أن نرسم حدًّا فاصلًا بين مرحلة الشباب والشيخوخة في حياته، فالشباب متاخم للشيخوخة بشكل نعجز أن نقول فيه: إن مرحلة شبابه منفصلة عن شيخوخته أو إنها جاءت بعدها. لا أكاد أعرف عندما قابلته للمرة الأولى هل كان قبلها أكثر وقارًا أم أكثر رعونة. لأنه عندما اكتملت شخصيته كان اكتمالها مربوطًا بحضور خالد غير مرئي، مثله مثل "**البدر المكتمل الجميل**"، وإن كنا لا نرى سوى نصفه المنير فقط كما يقول البيت الشعري

السابق. وأتخيّل أن هذا هو السبب في أن الناس كانوا يصفون زوجي بصاحب الشخصية الآسرة، حتى من كانوا يعرفونه من بعيد.

فبرغم الانقسام الداخلي الذي ظلَّ يعانيه، بقيت تطوّقه هالة من الحضور الطاغي حتى الخامسة والثمانين، لمّا أسلم نفسه للأبدية، هادئًا مثل طفل مستغرق في اللعب، من دون وجل ولا خوف من الموت. وعندما طَعَن أندرياس في السنّ قلتُ في نفسي: لو أن أندرياس لم يعش الحياة التي عاشها، وعاش حياة الأشقياء، المجرمين، الفاسقين، محتفظًا بنفس القلب السليم المفعم بالسعادة، وبنفس قلبه القادر على إبداء مشاعر الرقة والقسوة، لكان رجلًا جديرًا بالاحترام في أعين الرجال.

ليست شهادتي لأندرياس هنا أكثر من إشعال فتيل الذكريات في قلوب المحبّين الذين كانوا حوله. والحقيقة أني لم أتنبه لهذه الحقيقة إلا عندما بدأت أجول ببصري في الغرف التي عاش فيها، فأكتشف أن أقلّ الأحداث كانت قادرة على أن تقول الكثير عنه، وأن تُجلِّي صورته على الوجه اللائق.

أو: عندما أتطلّع من النافذة فأراه يجول في بستان المنزل عند نهاية اليوم.

تحضرني هنا ذكرى أمسية صيفية. في لحظة الشفق، وقبل أن يأخذ قسطًا من الراحة بعد عناء اليوم، في الوقت الذي كان ذهنه فيه ما يزال مشغولًا بسعادة وإصرار بتقليب المسائل العلمية التي أهمّته عن كل شيء آخر.

لكن ما يراه الإنسان شيء والحقيقة شيء آخر، لأنه، في هذه الأمسية، حين كان يخطو خطواته الحذرة مثل خطوات الحيوانات، كان يريد إيقاظ طيور الشحرور النائمة من خلال تقليد صوت تغريدها. وكانت الطيور

تـردُّ عليه لينغمس الجميع في وصلة دردشة عذبة، وبالمثل كان يدخل إلى خُمّ الدجاج الغارق في النوم، مُقلدًا صياح الديك، فيستيقظُ الديك النائم وقد استولت عليه الحماسة ليصيح هو كذلك ردًّا على الديك الدخيل.

ولم يكن أداؤه في تقليد تغريد الشحرور أو صياح الديك ليقلَّ مهارة وكفاءة عن أدائه وهو في قاعات البحث العلمي؛ كان السلوكان كلاهما في لحظة التجربة مهمَّين وكاشفين بالدرجة نفسها، سواء كان مع الطيور والدجاجات أم مع أقرانه في الجامعة.

الفصل الثالث عشر

ملحق بمذكراتي (1933)

إن الجوهري والذاتي لا يكشف عن نفسه بنفسه، ومن ثمَّ فالصورة الحقيقية عن حياتنا تظلّ طي الكتمان. وإنَّ عدم إفصاحنا عن الجانب الإيجابي منها لهو اعتراف صريح بغَلَبة الجانب السلبي. برغم ذلك لا يزال في مقدورنا رسم خطوطها الأساسية عبر الإشارة إلى الأخطاء ومواطن القصور، فترسم ثغراتُ السرد هذه الصورة.

في لحظة شخصية للغاية، وبينما كنت أتمشّى هبطَ على رأسي ما أودّ الكلام عنه هنا؛ أقصد سوء الفهم الذي وقع بيني وبين صديق الشباب باول ريه، وكان نشوب سوء الفهم أشبه بصخرة ألقيت فجأة أمام سيارة منطلقة بأقصى سرعتها فشقَّتها إلى نصفين.

لا أنكر أنّ رحلة صداقتنا كانت تعترض طريقها العقبات من كل جانب، لكنا وثقنا بالرحلة، مجرّدين من كل همّ أو غاية، وأينما أخذنا الطريق كنا نشعر أنه طريق يخصّنا وحدنا.

منشأ سوء الفهم هو أني كنت قد اتخذت قرارًا بأن أخطو خطوة في طريق رجل آخر، من دون أن أخبر صديقي [باول]، امتثالًا لرغبة هذا الرجل. المشكلة أن باول ريه، ذلك الشاب الذي لم يؤمن قط أنه سيكون موضع حبّ من أي إنسان في الدنيا، رأى في خطوتي دليلًا على رغبتي في قطع علاقتي به، وبنى عليها نتائج وصلت لاحقًا إلى درجة الكُره والعداوة.

ولم يدر بخلده قط أنني لم أكن أحتاج إلى صداقته مثلما كنت أحتاج إليها في هذه اللحظة على وجه التحديد. والحقيقة أنّ **الإلزام القاهر** الذي اتخذت تحت وطأته هذه الخطوة، التي لم أقدر على التراجع عنها قط، لم يفصلني عن باول فقط، بل فصلني عن نفسي.

ثمة شخص واحد فقط على معرفة وثيقة بزوجي وكان يحبه حبًا عميقًا، يعرف تحديدًا ما الذي أقصده بكلمة "**الإلزام القاهر**". وكان مبعث هذا "**الإلزام القاهر**" شيئًا غير قابل للردّ أو الصدّ، شيئًا انقاد له زوجي نفسه.

لم ينبع هذا الشيء من رغبة غريزية حسّية شدّتني إليه، بل من كونه حقيقة محتومة فرضتْ نفسها عليَّ فرضًا. ولم يكن الإقدام على الخطوة [خطوة الزواج] نابعًا من محادثات أخذت شكل الإقناع، بل من سمات زوجي الجسدية نفسها. وسيكون ضربًا من العبث أن أشرح مقصد كلامي لأي شخص لم يرَ زوجي وجهًا لوجه، إنه شيء لم أره في مخلوق آخر قط. لا فرقَ لو قارنّا الأمر بتأثير مخلوقات جامحة، هائلة الحجم، قوية البنية، أو لو قارنّاه بتأثير مخلوقات رقيقة، مهيضة الجناح، منكسرة، مثلها كمثل طائر ضئيل الحجم لا يجرؤ المرء على أن يدهسه. الشاهد فيما أقول أن هذه التشبيهات المنحرفة الرديئة الصياغة وقعت بشكل فطري في قبضة الاستعارة من عالم الحيوانات، وهو ما ينبهنا على حقيقة محدودية قدراتنا البشرية على الوصف.

لم يتأثر انطباعي عن زوجي بحالتي العاطفية المشتعلة آنذاك، أقصد أنه لم يتأثّر بحالة انجذاب إيروتيكي حسّي قوي ناحيته، بل على العكس، كان انطباعًا من نوع آخر. لأنني لم أتعامل معه انطلاقًا من شعوري كامرأة، إذ حافظتُ على سلوك محايدٍ، طالما حرصتُ على التعامل به مع

رفاق مرحلة الشباب. في حالتي كان السبب شيئًا آخر لم يستطع تجنّب التمييز بين الحب والصداقة، فالحواس، قويت أو ضعفت، قادرة على استشعار الغريب عن الجسد. لم يكن الأمر هكذا البتة، سواء في أول العلاقة أم في العقود التالية.

لعبتْ بعض مشاعر التردّد والإحجام المعروفة لدى عدد كثير من النساء دورها، وهي المشاعر التي لم يستطع الكشف عنها وفحصها إلا علم التحليل النفسي. ولكنني بعدما نضجتُ قليلًا تبيّن لي أن الأمر لم يكن كذلك. أما زوجي فقد قال في بداية زواجنا، مثله مثل أي رجل آخر في محله: "هذه أفكار بنات صبيانية، ستزول مع مرور الوقت".

وكان يعني بـ "مرور الوقت" مرور الحياة برمّتها، بل أذهب فأقول: ما عدا الموت الذي لم يضعه زوجي في حسبانه في غمرة انشغاله. كان تحدي الحياة المقبلة هو ما شغلني عن المسألة التي أشرتُ إليها آنفًا، ولم أعثر لها على جواب، في تلك الأثناء كنت ما أزال غارقة في الحزن بسبب انفصالي عن "رفيقي"، وكنت قد اشترطتُّ بشكل أساسي لإتمام الزواج أن يوافق على وجوده في حياتنا، وقد امتثل زوجي ووافق في نهاية المطاف، ولم يتملّص من قراره لاحقًا.

وكلما فكّر المرء كم كان [زوجي] أكبر مني سنًّا وأنضج مني خِبرة، وكلما فكّر المرء كم كنت أشد رعونة وطيشًا من بنات جيلي، أحس كم كان إيمانه ويقينه بشخصي راسخًا لا يتزعزع.

برغم ذلك لم يكن أي منا يملك معرفة كافية عني شخصيًّا، وعن جوهر "*طبيعتي*"، أو أيًّا ما كانت التسمية، عن ذلك الشيء الغامض الذي يُملي علينا أفعالنا بوازعٍ غريزي محض. فمهما كانت تنتابني أفكار صبيانية طائشة أو أفكار ناضجة، لم يكن كل هذا يمثل شيئًا حاسمًا بالنسبة إليَّ.

وربما يكون من الأفضل لو شرحت هذه النقطة المعقّدة عبر مثال أسوقُه من منطقة مختلفة تمامًا، وهو مثال سبقت الإشارة إليه في صدر هذه المذكرات؛ أقصد واقعة خروجي من الكنيسة.

لم يكن خروجي من الكنيسة مظهرًا من مظاهر التمرد ولا شكلًا من أشكال التعصب لمعرفة الحقيقة، وإنما كان صراعًا عقلانيًّا ضد هذا "*الحافز*" الذي تسبّب في حزن والدَي كما تسبب في فضيحة عامة؛ بل إني أصدرت حكم إدانة، بالمعنى الأخلاقي، على ذلك القرار الانفعالي.

لم أكن أنا من اتخذت هذا القرار، بل كان السبب وراءه حُلمًا راودني ذات ليلة، إذ رأيتني أصرخ بملء فمي وأقول "لا"، رافضةً شعائر التثبيت الكَنسي. ولم يكن الأمر أني خشيتُ الاستيقاظ والخضوع لمراسم التثبيت الكنسي، بل على العكس تمامًا، السبب أني تيقّنتُ استحالة الامتثال لأي شيء مفروض عليَّ، حتى لو على طقس شكلي.

إن ما نظنه دوافعنا الشخصية وأحكامنا على الأشياء، مهما حرصنا على تنقيتها من الشوائب، يتضح في النهاية أنها واهنة وَهْن خيوط العنكبوت المنسوجة بين غصنَي شجرة؛ خيوط في مقدور أدنى هبّة رياح أن تذروها بعيدًا. قد يتغيّر مسار الحياة برمتها عبر شيء يهبط علينا فجأة. وقد ظَهَر هذا الشيء أمامنا بغتة، وطواه الصمتُ بغتة، ولم توات الجرأة أحدًا منا على الكلام عنه أبدًا.

في ظهيرة أحد الأيام تمدّدَ زوجي إلى جواري فوق السرير الذي كنت نائمة عليه، ربما كان يعتزم أن يفاجئني، أن يُجهزَ عليَّ على حين غفلة. لم أستفق من نومي على الفور. لم يوقظني ساعتها إلا صوت خافت مشوب بنبرة عجيبة، لكنه اخترق عظامي كما لو كان قادمًا من الأبدية، أو كما لو كان قادمًا من عالم آخر.

اعتراني شعور غامض أنني بلا ذراعيْن، وأنّ ذراعي طافيتان فوق جسدي. ثمّ فتحت عيني فرأيتُ ذراعي تقبضان على رقبتي بشدة، تأخذان بِخناقي، وكان الصوت حشرجة الموت. وكان ما رأيته، وجهًا لوجه، قريبًا مني، شيئًا لم أنسَه طَوال حياتي؛ رأيته وجهًا.

لاحقًا تذكرتُ أنني عشية خطبتنا طالما راودني وهم مخادع أني امرأة قاتلة.

كان زوجي قد اعتادَ حمل سكين جيب صغيرة في مشاويره التي يعود فيها إلى شقته النائية في أوقات متأخرة، وكانت السكين فوق الطاولة المقابلة. بحركة هادئة أمسك السكين وسدّدَ بها طعنة إلى صدره. وعندما هرعتُ إلى الشارع ذاهلة العقل، أنتقلُ من بيت إلى آخر، باحثةً عن طبيب طوارئ لإنقاذه، كان الناس يسألونني ما الذي حدث، فأخبرتهم أن شخصًا طُعن بالسكين. وبينما كان الطبيب يتفحّص الجسد المسجى أمامه فاقدًا الوعي، خمنتُ من بعض تلميحاته وكلماته أن الشبهة تدور بشكل واضح حول "*شخص ما*" طَعَنَ زوجي بالسكين. كان الشكّ يملأ الطبيبَ ناحيتي، لكنه التزم بالتحفّظ والمعاملة الودود. كانت السكين قد انزلَقَت من يد زوجي وانغلق نصلها فلم تنفذ الطعنة إلى قلبه، إلا أنها حفرت ثقبًا مثلث الشكل جعل من التئام الجرح أمرًا صعبًا على المدى القصير.

لم تكن هذه المرة الأولى التي يقفُ فيها الموت على أعتابنا، ونُنهي الحياة، ونعيد الأمور إلى نصابها مع المقرّبين منا. كنا شخصين امتلأا بالمقدار نفسه من القنوط والعجز.

صحيح أنّه قد مرَّت علينا ساعات ولحظات عجزنا فيها عن تقدير مشاعرنا، برغم ذلك جمعَتْ بيننا ميول وطرائق تفكير مشتركة، لكني أشعر أحيانًا بالمبالغة في الإعلاء من قيمة هذه القواسم المشتركة. فبرغم

أنها كانت تمدُّ جسور التواصل بيننا، وتشيع السعادة في قلبينا وتخلق بيئة العمل المشترك، كانت تحجب هوّة الاختلافات بيننا في أحايين كثيرة، وتزيد من المسافة الفاصلة، بدلًا من أن تسمح بأن يرى كل طرف الآخر رؤية أوضح، ومن ثمَّ ربط بعضنا ببعض برباطٍ أوثق وأعمق.

كانت مجالات اهتمامات زوجي الأكاديمية بعيدة كلّ البعد عن مجال معرفتي وإدراكي. وحتى عندما كنت أقترب منه في هذا الصدد وكأنني واحدة من أفضل تلامذته المقربين البارعين، لم يكن ذلك إلا تأجيلًا للموضوع وخداعًا لكلينا حتى نصل إلى لحظة الافتراق التي لم يكن هناك بدّ منها. إلا أن الظروف الخارجية كانت تقف في صفّنا. كان عمل زوجي في معهد الدراسات الشرقية في برلين يتيح له أوقات عمل ثرية مثيرة للاهتمام. ولما كان عمل زوجي متصلًا في أغلبه بالتعامل مع الدبلوماسيين ورجال الأعمال المتطلعين إلى السفر إلى آسيا، لم يتبقَّ أمامه إلا وقت ضئيل لممارسة البحث العلمي.

في إحدى المرّات أعرب زميل زوجي وصديقه، السيد "روزين"، الذي تركَ المعهد للالتحاق بالسلك الدبلوماسي، ثم صار لاحقًا سفيرًا ثم وزيرًا للخارجية، أقول: أعرب عن أسفه لأنّ مهنة زوجي فرضت عليه أن "يبيع الحليب ولا يذوق القشدة الدسمة". لكن الحقيقة كانت على خلاف ذلك، إذ حاول زوجي أن ينزع "القشدة" كلها من كمية هائلة من الحليب.

دعوني أقول بعبارة أخرى: إن زوجي حاول أن يضخَّ في أبحاثه العلمية ما يظنّ أنه سيعودُ متدفقًا ليصبَّ في نهر الحياة نفسها ويرفدها برافدٍ أكثر ثراء، فعبر دراسة الشعوب وأبحاث اللهجات، استطاع أن يقدم نوعًا من "الحليب المكثّف" الخالي من أي نكهة أكاديمية!

أهدى القَدَرُ إلى زوجي قِلّة من التلاميذ المخلصين، من بينهم السيد "زولف" الذي بقي على وفائه طوال حياته. إلا أن منصب الأستاذية نغَّصَ عليه عيشته وجعل الاستمرار في الوظيفة شيئًا مستحيلًا، وتحديدًا لأنه لم يكن مسموحًا له إلا بتقديم "الحليب فقط".

إلا أن هذه الخصلة كانت سمة متجذرة في طباعه، لم يستطع الاستغناء عنها، مثل الماء والهواء، ولم تكن هذه الإخفاقات نتيجة ظروف خارجية غير مواتية أو سوء حظ، لأن طبيعة شخصيته لم تكن تخلو من عناصر قَدَرية مفجعة. كما لو أنَّ أقوى دوافعه ومبرراته قد فشلت بسبب أنها تنشد الكمال، وكما لو أنَّ الشيء الحيوي اللازم لمواصلة حياته كان يتحطّم على صخرة استحالة تحقيق الهدف بسبب لا نهائية المشروع المنشود، وكما لو كان "المطلق" و "النسبي" مرتبطيْن داخل علاقة وثيقة على نحو ينسف كل منهما إمكانية تحقيق نتائج ملموسة في النهاية. وربما كان ذلك هو الذي أضفى على طبيعته وإرادته هذه القدرة الإيحائية، وأقول: ربما أيضًا تمظهر جانب من هذه التراجيديا المكتومة في أعماقه في قوّته وشدّته فأمكنَه من قَهْرِ ما هو قابل للإنجاز وما هو غير قابل للإنجاز.

ومن هنا هيأت نفسي وحياتي بأريحية شديدة للتواؤم مع طريقة الحياة التي تمكّنه من تحقيق أهدافه. لذا لم أجد غضاضة في مغادرة أوروبا والسفر معه إلى أرمينيا، قاصدين "كاتدرائية إتشميادزين"[1]. وهكذا تشكّلتْ حياتنا العامة أكثر وأكثر وفقًا لطريقة حياة زوجي.

والحقيقة أنني كنت مثله تمامًا فيما يتعلق بالبساطة الشديدة في المأكل والملبس، وكذا في ارتباطي القوي بالهواء الطَّلق أيًا ما كان البلد الذي أعيش فيه. وبرغم ما نشأت عليه من عادات وتقاليد أبناء شمال أوروبا،

---

(1) هي أقدم كاتدرائية في أرمينيا وأول كاتدرائية بُنيت في العالم (المترجم).

آليت على نفسي أن ألتزم بهذه العادات الجديدة التزامًا صارمًا طوال حياتي.

برغم ذلك كانت تجمعنا بقعة نعثر فيها على الانسجام المشترك وتفتح لنا أبواب التفاهم، وهي عالم الحيوان. كان هذا العالم "*الذي لم يصر إنسانًا بعد*"، يمسّنا من الأعماق، ويذكّرنا بما هو راقد في قاع طبقات وعينا الإنساني، مُقدِّمًا شكلَ حياة أبسطَ وأقل تعقيدًا، لكنها حياة بعيدة عن متناول أيدينا. إلا أن رؤية كلّ واحد منا تجاه عالم الحيوان كانت مثل رؤية كل واحد منا تجاه عالم الإنسان، كنا نرى العالميْن على طرفي نقيض.

على خلاف زوجي الذي كرّس نفسه تكريسًا لا هوادة فيه لعمله البحثي، ساعدني الافتقار إلى أي هدف أو طموح على تعزيز مَلَكة التكيّف والتواؤم مع أي شيء. كنت عاجزة عن تحديد الشيء الضروري والجوهري في حياتي، ربما لأن همومي اليومية واحتياجاتي لم يكن يعوزها شيء ضروري أو جوهري من الأساس. بدا لي حينذاك أنَّ أي مجال يخوضه المرء بشكل صحيح، سوف يوصله إلى قلب ما يريد. يضاف إلى ذلك نزوعي المستتر إلى الاستكانة، إذ كنت أشعر - مهما تصرّفتُ - أنه ليس عندي ما أفقده بالمعنى الحرفي للكلمة.

أما الاختلاف بين سلوكي في مرحلة الشباب وسلوكي اليوم - ولا أقصد فقط تجاه "*رفاقي*" آنذاك، بل تجاه دائرة المعارف المحيطة بنا ككل - ، فهو أني لم أر في مسألة السير في طريق أحدهم أمرًا شائنًا، بل أمرًا روحانيًّا خالصًا، في حين يصعب عليَّ ذلك اليوم نظرًا إلى المسؤولية الجسيمة التي وجدت نفسي أمامها. وكنتيجة لذلك تطورت قدراتي الفكرية والروحية تطورًا مستقلًا، وصار العمل شيئًا مرغوبًا في حد ذاته، صار العمل حالة عزلة جادة ومنشودة، وهي حالة لا تعنيها مسألة حياتنا معًا، ولا تعنيها

الإشكالية التي تمخضتْ عنها هذه الحياة المشتركة بالنسبة إليَّ. لم يطرأ على حياتنا ما يُطلِق عليه الناس "تأكُّل العلاقة". وهكذا لم تجلب سنوات زواجنا، التي أشرفتْ على أربعة عقود، أي مظهر من مظاهر الامتزاج في العواطف والأفكار، ولم تجلب معها أي انتقاص من مظاهر الثراء الروحي الذي طوّره كل منا في أعماقه.

وحتى بعد أن تقدَّمت بنا السن، نادرًا ما كنت ألجأ إلى استشارة زوجي في المسائل الجوهرية المتصلة بحياتي اليومية، حتى لو حَدَث وفعلت مرّة ولجأت إليه كنت أشعر أنني أزور أرضًا غريبة مجهولة لم تطأها قدماي قط. من الصعوبة بمكان أن يفهم أحدهم ما أقوله، وسيكون ضربًا من سوء الفهم لو رأى أحد كلامي "مسافة فاصلة" تزداد رقعتها بمرور الزمن.

ربما يستطيع الموقف التالي الذي حدث في أواخر حياة زوجي قبيل وفاته أن يوضّح مقصد كلامي. في خريف تلك السنة لزمتُ فراش المرض بأحد المستشفيات لمدة ستة أسابيع تقريبًا، لكنني كنت أواصل أبحاثي في علم النفس بدءًا من الساعة الرابعة عصرًا، وسُمح لزوجي وقتها بزيارتي في الساعة الثالثة. كان موعد الزيارة موقوتًا لا يمكن مخالفته. كان جلوسنا متقابلين تجربة جديدة بالنسبة لكلينا، نحن اللذين لم نذق قط طعم "الأمسيات الزوجية" المعتادة أسفل ضوء المصباح الخافت المريح، نحن اللذين كنا نفضّل نزهات المشي الطويلة والصمت يلفّنا، مررنا بموقف جديد تمامًا علينا، مَسَّ قلبينا من الأعماق.

كان من الضروري ساعتها أن نخادع الزمن وأن نُطيل أجَل هذه اللحظة كما كان الناس يطيلون أجل استهلاك رغيف الخبز أيام الحرب لإطالة أجل بقائهم. وزيارة إثر زيارة كنا نشعر بالتئام الشمل من جديد،

الشعور الذي يُحسُّ به العائد إلى مسقط رأسه من مكان بعيد، وعقب فراق طويل. أحسسنا بذلك، وعمَّت البهجة اللحظات التي كانت تجمعنا. وعندما استرددتُ عافيتي وعدت إلى المنزل، استمرّت "أوقات الزيارة" بلا انقطاع، ولم تعد مقصورة على توقيت الزيارة بين الثالثة والرابعة عصرًا.

من بين دائرة الأصدقاء المهتمين بالأدب والسياسة التي تشكّلت بعد زواجنا تعرفنا برجل كان موضع إعجابنا واهتمامنا. وكعادتي لم أنتبه لاسمه عندما لفظه أمامي للمرة الأولى، وهو أيضًا لم ينتبه لاسمي. وفي المرة الثانية عند لقائنا لاحظتُ أنه كان يتفحّص يدي بنظرة مُدقّقة، وفي اللحظة التي أوشكت فيها أن أسأله ما الذي يحدّق إليه، بادرني بسؤال بنبرة فظة: "لماذا لا ترتدين خاتم الزواج؟"، فأجبته ضاحكة أننا نسينا شراء خاتم الزواج، ثم قررنا لاحقًا ترك الأمر على هذا النحو، لكن نبرة صوته لم تتغيّر، فصرخ في وجهي: "لكن يحتم عليكِ ذلك".

في اللحظة نفسها سأله شخص بنبرة مازحة كيف قضى مدة الصيف في "سجن بلوتزينسي[1]" بتهمة العيب في الذات الملكية. وجدته أمرًا مضحكًا أن يختارني هذا الرجل، دون الجميع، ليوجّه إليَّ مثل هذا الهجوم الأخلاقي، ولاحظت أن مزاجه ظلَّ معكّرًا برغم حديثه المنطلق سابقًا. سرعان ما توطدت الصداقة بيننا. وبعدها ببضعة أسابيع وبينما كنا في طريق العودة من مؤتمر جمعنا اعترف لي بحبّه، كان اعترافًا مصحوبًا بكلمات لم أفهمها، وإن لم تخل من اعتذار من جانبه، إذ قال: "أنتِ لستِ امرأة، أنت مجرد صبيّة".

---

(1) سجن بلوتزينسي هو سجن للرجال في منطقة شارلوتنبورج نورد في برلين (المترجم).

صعقَتني هذه المعلومة غير المعقولة حتى إني كنت عاجزة، سواء في هذه اللحظة أم لاحقًا، من معرفة حقيقة مشاعري تجاه هذا الرجل. لم أستبعد إضمار مشاعر حبّ مماثلة تجاه هذا الرجل. إلا أن مشاعري التي كانت آخذة في النمو، حتى لو في عقلي الباطن، كَبَحتها صدمة ثانية ليست أقل صدمة من كلماته، بل ربما أشدّ أثرًا من صدمة امرأة متزوجة تجرّب الوقوع في الحب. حيث بدا لي الارتباط بالقيود الدينية والمجتمعية ضعيفًا قياسًا بالرابطة غير القابلة للانفصام التي كانت تربطني بزوجي بحُكم شخصيته وطبيعته، الرابطة التي لم تكن لتسمح بالانفصال بيننا قط. أعادتني هذه التجربة إلى العذابات التي مررنا بها قبل مدة خطبتنا، حيث تعاهدنا على "الرباط المقدّس الباقي إلى الأبد". كانت حالة الحماسة المفرطة لزوجي هي المسيطرة على الموقف. لم يكن زوجي أعمى، لكنه كان يتظاهر بالعمى.

إلا أنّ هذا الموقف أسفرَ عن شعور لا إرادي تفجّر في أعماقي، وهو شعور بعيد تمامًا عن حبّ هذا الرجل، أقصد أنه تملكتني الرغبة في الهَرب بعيدًا بدافع من الخوف والذعر، وهو شعور كنت أقف أمامه مكتوفة الأيدي؛ شعور حوّل أيامنا ولياليناا إلى عذاب مقيم.

في الساعات النادرة التي كانت تجمعني به حاول أن يقدّم إليَّ يد المساعدة بمشاعر صداقة حقيقية وبنبالة أخلاق مجرّدة لم تُمحَ من ذاكرتي قط، وهو ما كان يعني لي خلاصًا من حالة الوحدة القاتلة التي كنت أعيش فيها.

لكن الأمر لم يتوقّف عند هذا الحد، كان خوفُه عليَّ آخذًا في الازدياد، مُفاقِمًا لحالة اضطرابه الداخلي، وهو ما كان يعذّبني ويضغط عليَّ مثل ضربة عنيفة تنكأ جُرحًا ملتهبًا. بعدها بعشرين عامًا عرفت أن مقدار كرهه لزوجي لم يكن يقلّ عن مقدار كره زوجي له.

في غمرة قلقي من تأثير تطورات الأحداث السياسية على أقاربي في روسيا، أرسلت إليه خطابًا موصى به بعلم الوصول، أستفسر فيه منه عن أشياء وأطلب منه المشورة، تعرّف هويتي من خطّ يدي. كنت قد كتبت فوق الظرف "السيد عضو الرايشستاج"، فرُدَّ إليَّ الخطاب ممهورًا بتأشيرة من مكتب البريد تقول: "رُفض التسلم". ثم أُسدِل الستار على علاقتنا عندما امتثلت لرغبة زوجي بأن لا أرى ذلك الرجل مجددًا.

كان المعنى الحقيقي من وراء هذه التجربة هو تأثيرها في علاقة زواجنا، إذ أثبتت لنا بالدليل القاطع أن استمرار زواجنا بهذه الطريقة مستحيل على المستوى الإنساني، وكالعادة لم تكن مسألة الطلاق مطروحة البتة. وكما هي عادة زوجي في طريقة تفكيره لم يرَ الأمر مجرد رغبات شخصية من ناحيتي في مستقبل مختلف ولا محاولات لتصحيح مسار خاطئ في طبيعة علاقتنا، لأنه لم يكن في ذهنه إلا أنَّ علاقة زواجنا حقيقة لا يرقى إليها الشكّ مهما طرأ عليها من أحداث.

لن أنسى أبدًا اللحظة التي قال لي فيها: "لا أستطيع التفكير في حقيقة أخرى سوى أنكِ زوجتي". وبعد مرور أشهر طافحة بالألم، تخللتها أوقات انفصال مؤقت ولجوء كلّ منا إلى عزلته الخاصة، طرأت وجهة نظر جديدة على مسرح الأحداث. على المستوى الظاهري لم يتغيّر شيء البتة، أما على المستوى الباطني فتغيّر كل شيء، وشهدت هذه المدة أسفارًا كثيرة.

في مرة كانت مشاعري فيها في أوج توهجها طرحتُ على زوجي سؤالًا:

"هل تحب أن أخبركَ بما جرى في تلك الأثناء؟"

وبسرعة خاطفة، ومن دون أن يسمح لي حتى بالتقاط أنفاسي لأقول الكلمة التالية، أجاب بحسمٍ: "لا". في هذه اللحظة طوقتنا حالة من الصمت المهيب، كان حصارًا من الصمت الذي لم نستطع كسره طوال حياتنا. وبرغم طبيعة زوجي المختلفة، لم يكن ردّه يخلو من صبغة ذكورية واضحة تميّز الرجال بوجه عام، بصرف النظر عن اختلاف الظروف التي تُقال فيها هذه التصريحات. فبعدها ببضع سنوات سمعتُ الردَّ نفسه من صديق. كانت الظروف الخارجة عن إرادتي قد حالت دون رؤيته مدة طويلة، إذ أجابني بالجواب نفسه، ويبدو أنه أساء فهم موقفي لما حاولتُ أن أشرح له خلفيات الظروف.

وبعد لحظة غشينا فيها الصمت قال بحسمٍ: "لا أريد أن أعرف".

ولما كنا متحفظيْن في التواصل الاجتماعي مع الناس، لم نكن نعرف طبيعة أفكار الناس عنا، فربما ذهب تفكير العالم كما العادة إلى أن زوجي كان يخونني أو أني كنت زوجة خائنة! لا أعرف!

هل كان يدور بخلد أحدٍ أني كنت أكرّس حياتي في هذه المدة تكريسًا تامًّا لزوجي كامرأة مخلصة، أو كأفضل وأجمل ما يمكن أن تقدّمه عشيقة لعشيقها، بروح فرحة حقيقية مثل الفرحة التي تنتابنا في أعياد الميلاد؟ كان الصمت المشترك الذي يغشى حياتنا يحجب كل ما قد يطرأ على حياتنا من أحداث، ولم أتوقف يومًا أن أطلب منه أن نواصل ذلك الصمت.

بالنسبة إليَّ، لعبتِ الصراعات والتشنجات التي سبق أن عصفت بحياتي دورها في أنها جعلتني أستقبل لحظات الحب، إذ تجيئني، استقبالًا هادئًا طبيعيًّا؛ استقبالًا مفعمًا بالبركة، وخاليًا من مشاعر الذنب أو الرغبة في التمرّد على الأوضاع، استقبالًا قادرًا على إضافة لمسة الكمال

إلى العالم، وهو عالم ليس مثاليًا في عيني، بل عالم مثالي في حد ذاته. مثله كمثل الأشياء التي تحدث وفق إرادة عليا، فتتجاوز آراءنا، لكنا نستقبلها استقبالًا يُسلِّم بمجريات الأمور. ومن هنا يتحتّم علينا ألا نعقد مقارنة أو تقديرًا بين حجم العواطف التي تعترينا وبين دوامها واستمرارها. سيّان لو استمرت هذه العواطف طوال العُمر، واندمجت داخل تفاصيل حياتنا، ولو تكرّرتْ.

في مقدور الإنسان الشعور بهذه العواطف الجياشة باعتبارها شيئًا مشرقًا عظيمًا، ولكن عليه أن يتحلّى بالتواضع لأن يدرك قصوره عن فهم الصورة الكلية للحياة، لأن قدرات الإنسان على الحب في هذه الحالة متفاوتة، سواء على المستوى الذاتي أم الموضوعي.

ما أقل ما نعرفه عن سر الحب! والسبب هو اقتصارنا على الجانب الشخصي المحض منه، ومن ثمَّ ففهمنا للحب إنما يكون من هذا المنظور الشخصي وحده. أما الشعور المفرط في الإنسانية والعواطف الإنسانية السامية التي نتوق إليها بشوق، فهي عالقة في قبضة تقديراتنا وأحكامنا على الأمور، ومن هنا يعجز القلبُ أن يخبر العقلَ بسر الحب.

لذا لا يبقى أمام العقل سوى الانغماس في الدرك الأسفل من الملذات الجسدية الخالصة، التي تكون مثار ابتذال وتسفيه البشر. ولكن، أليس الأمر هنا قريبًا من شعائر تناول النبيذ والخبز في القداس الإلهي، الذي يتحول إلى قوت الجسد وشرابه اللازمين للوجود؟

إن الإنسان الذي يكون موضع حُبّنا، مهما بلغت درجة رقيّه الفكري أو الروحي أو كليهما معًا، إنما يشبه كاهنًا يرتدي رداء الكهنوت، لا يدري أية طقوس يقيم!

تقلّد زوجي منصب الأستاذية في جامعة "جوتنيجين" في مرحلة متأخرة من حياته، لكنه بقي في المنصب لمدة تجاوزت عقدين ونصفًا، وبعد تقاعده لم يتغيّر شيء جوهري في أسلوب حياته. فطلابه الأساسيون وزملاؤه الأجانب بقوا إلى جواره.

في مرة سنحت له الفرصة للعمل في برلين لكنه أخفق في اقتناصها، كان عليه أن يسلم ورقة علمية ولم يستطع إكمالها، وبعث شعور الوقوع تحت الضغط لإنهائها مزيدًا من الارتباك في قلب زوجي، هذا فضلاً عن رغبته الفطرية في أن يعزو سبب التأخّر إلى ظروف خارجية، مثل صوت الضوضاء (حتى لو كان خافتًا!) المنبعث من جرامافون في الحانة المقابلة لبيتنا حتى وصل الأمر إلى أن امتلأ زوجي بالكره لصاحب الحانة!

لا تبرح ذاكرتي تلك الكلمات الساحرة التي سمعتها مرة من صديقه الأكبر سنًّا، البروفيسور هوفمان من جامعة كيل، الذي زارنا مرّة بعد زواجنا: "ربما يمكننا الحصول على ورقة علمية من أندرياس لو حُكم عليه بالإعدام، وربما ساعتها لا نفلح في ذلك، لأن تنفيذ الإعدام سيكون أهون عليه من كتابة ورقة علمية!".

لأن إنهاء كتابة ورقة علمية كان بالنسبة إليه بمثابة استغناء عن الشعور بالراحة المثالية النافذة إلى أعماقه. في هذا الصدد لا يسعني إلا أن أفكّر في الانطباع الذي تَركَه عند زوجي موقف الألمان إزاء الحرب العالمية، هذا لو نحينا أية عواطف وطنية جانبًا.

كان يمده شعور الامتلاء بالحماسة والإتقان، وبأنه محمول على بساط من قوة روحية متوقّدة بالحمية والكفاءة المنقطعة النظير، التي تدفعه دفعًا إلى ضرورة الإنجاز بشكل لا يغفل ولا يترك أدقّ التفاصيل. وكان إعجابه بالحرب يشحذ وعيه بمشكلة وجوده، ثم ما لبث أن تحوّل ذلك

الوعي إلى اضطراب عارم، وكان في حيرة من أمرِه: كيف يمكن أن تساعده هذه المشاعر الحماسية بدلًا من أن تثبّط همته؟

لكنا لو نظرنا إلى الأمر لوجدنا أن منبع ذلك الشعور لم يكن انقسامًا داخليًّا، بل بالأحرى طبيعته الشخصية التي كانت مسرح أحداث ونقطة التقاء لاجتماع عالمين متناقضين.

ولم يكن ثمة شيء أقسى على زوجي -هذا لو قُدِّر للأمر أن ينجح- مِن محاولة رأب الصدع بين هذه المتناقضات في نفسه بشكل مصطنع عبر التضحيةِ بواحدٍ لمصلحة الآخر. مثلما لم يكن ثمة شيء قادر على تخريب روحه أكثر من التظاهر بإنهاء كتابة ورقة علمية للوفاء بالأغراض الأكاديمية أو تحقيق النجاح، في حين تصرخ الورقة العلمية ذاتها طالبةً مزيدًا من الوقت والدقّة لإنجازها!

وبرغم وضوح هذا العيب لا ينبغي أن نغضَّ الطرف عن حقيقة أن ذلك العيبَ قد أسبغ على زوجي ميزة فريدة مفعمة بالحيوية، وأعني بها أنّه أيًّا ما كان العمل الذي بين يديه، كان عمله مسكونًا بشعور الثقة في المستقبل، لا المستقبل المشرق أو الزائل، بل المستقبل الذي لا يعرف معنى الزمن من الأساس. وإن كان هذا العيب قد صنَعَ منه رجلًا سريع الوقوع في الحيرة، سريع الاضطراب والتشتّت، والإصابة بفتور الهمّة، فقد نفخَ في أعماقه، في الوقت ذاته، قوّة لم أعهدها في أحد غيره. حتى في مرحلة الشيخوخة لم تتأثّر قواه الباطنية سلبًا بوهن العظام أو ضعف حاسة السمع، بله أن اشتعال رأسه بالشيب قد أضفى عليه هيئةَ وقار، ثم إن عينيه السوداوين وقوس الشيخوخة الأزرق[1] صارت أشدّ نفاذًا

(1) قوس الشيخوخة يظهر على شكل حلقة بيضاء أو رمادية أو زرقاء أو قوس حول قرنية العين، عادة ما يظهر عند كبار السن (المترجم).

وسطوعًا عما كانت عليه قبل، وبدا لي أنّ الظلام الحالك نفسه ليس كافيًا لإظهار قوة سطوعها.

ما أزال أذكر عيد ميلاده السبعين بكل تفاصيله. لم يكن زوجي على استعداد لهذا الاحتفال الذي نظَّمه زملاؤه وأصدقاؤه، لأنه لم يكن قد احتفل من قبل بعيد ميلاده الستين والخامس والستين على خلفية الاضطرابات [السياسية] التي ضربت تلك المدة. انتزعه حفل عيد الميلاد من فراشِه انتزاعًا بعد أن أمضى الليلة السابقة ساهرًا حتى مطلع الفجر، إلا أنّ حضور روحه كان حضورًا طاغيًا وسط جميع الضيوف المجتمعين.

وردًّا على كلمات التهنئة وآيات التبجيل الصادقة -فضلًا على تذكير مدير الجامعة بأنهم ما يزالون ينتظرون منه أن يواصل عطاءه بقدر ما يستطيع-، استطاع زوجي أن يرسم صورة حماسية صادقة حول ملامح خطّته العلمية القادمة بوجه عام. إذ تَوقَّعَ أن تشهد العقود القادمة تضافرًا لحقول الأبحاث الفيلولوجية [أبحاث فقه اللغة] اقتداءً بطريق العلوم الطبيعية. كان زوجي يقول ذلك كما لو أنّه يشهد حدوثه ويضمن تحقّقه على مدار السنوات التالية.

خرجتْ الابتسامات الموحية من هنا ومن هناك، في حين فاضت أعين الآخرين من الدمع، لكن لا زوجي شخصيًّا ولا أحد من الحاضرين كان يفكّر أن هذه الآمال والتوقعات ستبقى معلقة في الهواء دون تحقّق، أو ربما، بالمعنى الأعم، كانت عصيّة على التحقّق.

طالما كنت واعية بحقيقة ما في نفسه، لكنّ ذلك لم يكن موضع نقاش بيننا. أظنّ أننا ناقشنا هذا الموضوع في مناسبتين فقط على مدار سنوات طويلة. كان أسلوبنا في عدم المواجهة، أو لو توخينا الدقة: في تجنّب

المواجهة، أسلوبًا يخصّنا وحدنا، حيث لم يطرأ أي تطوّر ولا تبدّل على أسلوب تعاملنا بعضنا مع بعض على مدار حياتنا الزوجية، إذ احتفظتْ علاقتنا بطابعها البسيط وأساسها الراسخ الذي لا يتزعزع.

يُضاف إلى ذلك أنَّ طبيعة عملي كانت محكومة بالسرية والكتمان، فلم يكن جائزًا أن أعيد حكْي ما كنت أراه وألاحظه وأنا أعالج مرضاي، فضلًا على حقيقة أنَّ أية محاولات لصرف انتباه زوجي عن عمله كانت ذات آثار مدمّرة عليه.

برغم ذلك كانت مساحة الحرية المطلقة التي يتمتع بها كل واحد منا بمثابة تجربة مشتركة تجمعنا في جوّ واحد. بل ربما أذهب فأقول: إن هذه المساحة كانت تعبيرًا عن الاحترام الذي يكنّه كل طرف لخصوصية الطرف الآخر؛ تعبيرًا يمنحنا شعورًا بالثراء والأمان. فمهما بلغ انشغال زوجي ذروته لم يكن يفارقه شعور واحد رائع، ألا وهو ضرورة الاطمئنان إلى أي حد يحظى الطرف الثاني (أنا) بالسعادة والسكينة. وخير مثال على ذلك موقف تركَ أثرًا قويًا في نفسي. كنت قد شرعت في كتابة عمل قصصي كتابةً مرتجلة خالية من الاتساق بسبب قرارٍ اتخذته سابقًا بهَجْر الكتابة الأدبية منذ اشتغالي بالتحليل النفسي، وكان التركيز الشديد في الحقليْن قد استنفد قواي تمامًا. وبعد إنهاء الكتابة صحتُ في نفسي ضاحكة، وبنبرة لا تخلو من تأنيب ضمير: ها قد صرتُ طَوال وقت الكتابة امرأة عديمة الفائدة، ثقيلة الظلّ، فأشرق وجه زوجي بابتسامة جزلة لن أنساها ما حييتُ قائلًا:

" ولكنكِ كنتِ سعيدة!".

كانت فرحة زوجي بإنجازي تتجاوز حدود الحنان والطيبة مهما بلغت قوّتها، وكانت قدرته على "*مشاطرة الآخرين أفراحَهم*"، وهي السمة المميّزة لطبعه، انعكاسًا لفهم الآخر وكأنه هو نفسه، وهو مرادف لفهم الأساس المشترك الذي يجمعنا معًا. وكان هذا تحديدًا هو ما منحه الهيئة القوية المقنعة، أقصد هيئة الرجل الذي عاين "*حقيقة الإنسان*" وفهمها.

وحتى هذه اللحظة، وبرغم موته، ذلك الموت الذي لم يفكّر فيه يومًا ولا اهتمّ بشأنه يومًا، ما يزال هذا الشعور مستمرًّا ومتقدًا بداخلي، ففي كل مرة ألامس فيها ذلك الجزء الأعمق من نفسي، أشعر بالسعادة المشتركة التي جمعتنا.

هل غرقتُ في كلام زوجي الذي قاله آنذاك لأنه استمدّ وجوده من الحقيقة الإنسانية المطلقة؟ لا أدري. أنا آسفة! المعذرة! لا أدري.

يبدو أن لحظات السعادة في حياتي كانت تعرف عني أكثر مما أعرف عن نفسي.

لم أعش ذكرياتي معكَ كشيء انقضى، بل كشيء حاضر يدنو مني.

ولم يكن ما كتبتُه تأبينًا لكَ.. لأنه تحوَّل إلى تجربة حياة.



نيتشه، فرويد، ريلكه

واقع الأمر أني رأيت «إنسانًا آخر» واقفًا أمامي، إنسانًا لم أستطع تبيّن ملامحه تحت هالة القداسة التي أضفيتُها عليه. برغم ذلك أقول: إن الصواب لم يجانبني لمّا خلعتُ عليه صفة القداسة، فبرغم كل شيء كان هو الشخص الذي أدين له بالفضل، وكان هو الشخص الذي كنتُ أحتاج إلى وجوده وإلى أثَرِه كيما أعثر على ذاتي الحقيقية. وقد تجلّتْ هذه العلاقة المزدوجة (أي: كونه حبيبًا ومرادفًا لصورة الربّ) في أنني لم أرفع الكلفة بيننا قط، ولم أنادِه باسمه الأول كما كان يفعل معي برغم علاقة الحب بيننا، وطَوال حياتي كانت المخاطبة بصيغة الاحترام (حضرتك) مرادفة للحميمية والألفة، أما المخاطبة بصيغة (أنتَ) فمرادفة لمخاطبة من هم أقل أهمية.

***

هذا عمل ظاهره سيرة ذاتية، وباطنه كشف حساب مع النفس. تتأمّل المحللة النفسية لو أندرياس سالومي مشوار حياتها، وتعيد اكتشاف حقيقة علاقتها بالله والحب والموت والحياة، عبر سرد علاقتها بثلاثة من أعلام الفكر الغربي: نيتشه، فرويد وريلكه.


ISBN: 978-1-998800-10-0
9 781998 800100

